مطلق المعنى لا غيرُ ، وعلمُ البيان يؤدى فائدة أخرى ، وهو ما يحصل من بلاغة فى ذلك المعنى وحسن نظمٍ وترتيب لهُ ، فهو كالكيفية العارضة

والعلمان الأولان أعنى علم اللغة وعلم التصريف ، إنما يختصان بمفردات الألفاظ ، وفائدتهما تصحيح مطلق اللفظ من غير التفات الى تركيب كما لخصناهُ من قبل ، فكل واحد من هذه العلوم الأدبية على حظ من إحراز الغرض والأمن من الخطإِ والغلط كما ترى ، لكن أرسخُها أصلاً وأنسقُها فرعاً ، وأنورها سراجاً وأكرمها نتاجاً ، وأقواها قاعدة ، وأجزلها فائدة ، علم البيان ، فإنهُ هو المُطْلِع على حقائق الإعجاز وهو من العلوم بمنزلة الشامة والطِراز ، وقد نجز غرضنا من هذه المقدمات وبتمامهِ يتم الكلام فى الفن الأول وهو فن السوابق

الفن الثانى من علوم هذا الكتاب

(وهو فن المقاصد اللائقة)

إعلم أن المقصود من الكلام إنما هو إفادة المعانى ، وهذه الإفادة على وجهين ، لفظية ، ومعنوية ، فأما الإفادةُ اللفظية فهى دلالة المطابقة ، وما هذا حالهُ فإنهُ يستحيل

تطرُّق الزيادة والنقصان اليها ، وبيانهُ هو أن السامع لشيءٍ من الألفاظ الوضعية لا يخلو حالهُ إما أن يكون عالماً بكونهِ موضوعاً لمسماه ، أو لا يكون عالماً ، فإن لم يكن عالماً بهِ فإنهُ لا يعرف فيهِ شيئاً أصلاً ، وإن كان عالماً بهِ فانهُ يعرفهُ بتمامهِ وكمالهِ ، فخيلّ من مجموع ما ذكرناه ههنا أن الألفاظ فى دلالتها الوضعية إما أن تكون مفيدة إفادةً ناقصة، وإما أن لا تكون مفيدة أصلاً ،وهذان القسمان باطلان بما مرّ ، فإذا بطلا تعين القسم الثالث،وهو أنّ إفادتهما لمسماها على الكمال والتمام وهو مطلوبنا ، وتقرير ذلك بما نذكرهُ من المثال ، وهو أنك إذا أردت تشبيه زيد بالأسد فى الشجاعة ، فإنك إذا قصدت إفادة هذا المعنى بالدلالة الوضعية فإنك تقول زيد يشبهُ الأسد فى شجاعتهِ ، فقد أفدت مقصودك من ذلك بألفاظ دالة عليهِ دلالة وضعية ، وهذه الافادة يستحيل تطرّق الزيادة والنقصان اليها ، لأنك إنْ نقصت منها تطرّق الخرْم على قدر ما نقص منها ، وان زدت على هذه الألفاظ كان ذلك مستغنًى عنهُ ولا فائدة فيهِ ، وإن أقمت كل لفظة مقام ما يرادفها امتنع تطرّق الزيادة والنقصان فى المعنى من أجل ذلك ، وعن هذا قال المحققون من أهل

هـذه الصناعة إن الإيجاز ، والاختصار ، والتطويل ، والإطناب ، والحذف ، والإضمار ، والوحدة ، والتكرار ، وغير ذلك من أودية البلاغة يستحيل تطرّقها الى الدلالات الوضعية ، لما كانت تدلّ بجهة المطابقة

وأما الإفادة المعنوية فهى تكون من جهة اللوازم ، ثم تلك اللوازم كثيرة فتارة تكون قريبةً ، وتارة تكون بعيدةً ، فلأجل هذا صحّ تأدية المعنى بطرق كثيرة وجاز فى تلك الطرق أن يكون بعضها أكمل من بعض ، فلا جرم جاز تطرّق الزيادة والنقصان والكمال اليها ، ثم قد يكون حصول ذلك من جهة الدلائل الإفرادية وهو ما يتعلق بالبلاغة من جهة المفردات ، وقد يكون حصوله من جهة الدلائل المركبة ، وهو ما يتعلق بالبلاغة من جهة الكلم المركبة ، وتقدير ذلك بما نذكرهُ من المثال ، وهو أنك اذا قصدت وصف زيد بالشجاعة من جهة اللوازم بحيث يجوز تطرّق الزيادة والنقصان والكمال اليهِ ، فإن أردت طريق الاستعارة قلت رأيت اسداً ، وإن أردت طريقة التشبيهِ فإنك تقول زيد كالأسد ، وإن جئت بطريق الكناية قلت فلانٌ يكفلُ الأبطال برُمحهِ ، وإن أردت أن تصفهُ بالكرم ، قلت رأيت بحراً على جهة الاستعارة ،

وهو كالبحر بطريق التشبيهِ، أو فلان تتراكم أمواجهُ، بجعله كنايةً عن جوده وسخائهِ

تنبيهٌ

إيّاك أن يعتريك الوهم، أو يستولى على قلبك غفلةٌ، فتظنّ أنا لمّا قلنا إن الألفاظ دالةٌ على المعانى فتعتقد من أجل ذلك أن المعانى تابعة للألفاظ، وأنها مؤسسة عليها، فهذا وأمثالهِ خيالٌ باطل وتوهم فاسد فإن الألفاظ فى أنفسها هى التابعة للمعانى، وأن المعانى هى السابقة بالتقرير والثبوت، والألفاظ تابعة لها، ولنضرب لما ذكرناهُ مثالاً يُصدّقُ ما قلنا فى المفردة منها والمركبة فنقول:

أمّا المفردة فلأنك إذا رأيت سواداً على بُعدٍ فظننتهُ حجراً فإنك تسميّهِ حجراً، وإن دنوت منهُ قليلاً وسبق الى فهمك أنهُ شجر فإنك تسميهِ شجراً، فإذا دنوت منهُ وتحققت حاله رجلاً فإنك تسميهِ رجلاً، فاختلاف هذه الأسامى يدلّ على اختلاف تلك الحقيقة وما يفهم منها من الصور المدركة،

وأمّا المركبة فلأنك إذا رأيت رجلاً من بعيدٍ ولا تدرى حاله أهو قائم أم قاعد أم مضطجع، فإنك اذا دنوت اليهِ فعلى

حسب ما يسبق الى فهمك من حالتهِ تصفهُ بتلك الحالة ، ولا يزال الوصف يتغير حتى يستقر الوصف على واحد منها ، وهذا يدلك على أن الألفاظ تابعة للمعانى المفردة والمركبة كما أشرنا اليهِ ، ولهذا فإنك تطلق العبارات على وفق ما يقع فى نفسك من الحقائق والمعانى من غير مخالفة

﴿ دقيقه ﴾

اعلم أن المعانى بالإضافة الى كيفية حصولها من أهل البلاغة والفصحاء على ثلاث مراتب

(المرتبة الاولى)

أن يكون مقتضيها على جهة الابتداء من نفسهِ من غير أن يكون مقتدياً بمن قبلهُ ، ويكون ذلك على ما يعرض من مشاهدة الحال ، وما يعرض من الأمور الحادثة .

ولنورد من ذلك شواهد على ما قلناهُ ، من ذلك ما أغرب فيهِ أَبو نُواس وأَبدع حين رآى كأساً من الذهب فيها تصاويرُ وأمثالٌ ، فقال حاكياً لها

(تدارُ علينا الرّاحُ فى عسجديّةٍ
حبتها بأنواع التصاويرِ فارسُ)

(قراراتها كسرى وفى جنباتها
مهاً تدّريها بالقسىّ الفوارسُ)
(فللرّاح ما زُرَّت عليهِ جيوبُها
وللماء ما دارت عليهِ القلانِسُ)

فهذا من المعانى البديعة فإنهُ أراد أنها مُزجت بقليل من الماء حتى صار لقلّتِه بقدر القلانس على رؤس الكاسات

قال ابن الاثير وما أعرفُ ما أقول فى هذا سوى أنى أقول : قد تجاوز أبو نواس حدّ الإكثار ، ومن ذلك ما قالهُ ابن أبى الشمقمق حين قُلّد رجلٌ ولايةً على الموْصل فانكسر لواؤه فتطيّر بذلك فقال ما قال يقرّر خاطرهُ ويؤسّيهِ لما وقع فى نفسهِ من ذلك وقع عظيم لأجل التطير

(ما كان مندقّ اللواءِ بطَيرهِ
نحسٌ ولا سوءٌ يكون معجّلا)
(لكنّ هذا العود أضعف متنهُ
صغرُ الولايةِ فاستقلّ الموصِلا)

فلقد أجاد فيما ذكرهُ كلَّ الإجادة وأحسن كل الاحسان ، ومن ذلك ما قالهُ بعض المغاربة فى وصف الخمر فأبدع فيهِ

(ثقُلت زُجاجات أتينا فرَّغاً
حتى إذا ملئت بصرف الرّاح)
(خفَّت فكادت أن تطير بما حوت
وكذا الجسوم تخفُّ بالأرواح)

فهذا معنى بديع عجيب يفعل بالعقول فى الإعجاب كما تفعل الخمر فى الإسكار، فلهذا قاله على ما شاهد من حالها،

ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المتنبي وقد صُرعت الخيمةُ بسيف الدّولة فوقعت فتطيَّر بذلك فقال فيها قصيدة يذكر ذلك ويقرّرُ نفسهُ عن الطّيرة فمنها قوله

وإنّ لها شرفاً باذخاً * وإن الخيام بها تخجلُ
فلا تنكرنَّ لها صرعةً * فمن فرح النفس مايقتلُ
(وكيف تقوم على راحةٍ * كأن البحار لها أنملُ)
(فما اعتمدنا الله تقويضها * ولكن أشار بما تفعلُ)

فانظر الى هذه المعانى البديعة، وكفى بالمتنبي فضلا إتيانه بها،وإنهُ لصاحبُ كلّ غريبة ومنتهى كل أُطرُوبة فى المعانى الشعرية، ومن ذلك ما قاله فى وصف حاله عند ورود الحُمَّى عليه

(وزائرتى كأنّ بها حياءً * فليس تزور الاّ فى الظلام)
(بذلتُ لها المطارف والحشايا * فعافتها و باتت فى عظامى)
(كأن الصبح يطردها فتجرى * مدامعها بأربعة سجام)
(أُراقب وقتها من غير شوق * مراقبة المشوق المستهام)

فانظر الى ما قاله ، ما أشدّ موافقته لما حكى من حاله ، وهذا أكثر ما يجرى على ألسنة أهل البلاغة عند مشاهدة ما يشاهدونهُ من أحوال الحوادث وفيهِ كفاية لغرضنا

(المرتبة الثانية)

ما يُوردُونهُ من غير مشاهدة حال فيجرى عليها ولكن يقتضبونهُ اقتضاباً ويخترعونهُ اختراعاً ، فمن ذلك قول علىّ بن جبلة يمدح رجلاً بالكرم والجود

(تكفل ساكنى الدنيا حميدٌ
فقد أضحت لهُ الدنيا عيالا)
(كأن أباه آدم كان أوصى
اليهِ أن يعُولهم فعالا)

قال ابن الأثير وقد حام الشعراءُ حول هذا المعنى ، وفاز علىُّ بن جبلة بالإِفصاح بهِ ، ومن ذلك قول أبى تمام

(يأيُّها الملك النائى برؤيتهِ
وجودُهُ لمراعى جُودِهِ كثبُ)

(ليس الحجابُ بمقصٍ عنك لى أملا
إنّ السماءَ ترجّى حين تحتجبُ)

ومن ذلك قولهُ

(رأينا الجود فيك وما عرضنا
لسجلٍ منهُ بعدُ ولا ذَنُوبِ)

(ولكن دارةُ القمر استتمّت
فدلتنا على مطرٍ قريبِ)

ومن بليغ كلامهِ قولهُ

(وإذا أراد اللهُ نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسودِ)

(لولا اشتعالُ النار فيما جاورت
ما كان يُعرفُ طيبُ عَرْفِ العُودِ)

ومن ذلك قوله فى مديحهِ

(لا تنكروا ضربى لهُ من دُونهِ
مثلاً شرُوداً فى الندى والباس)

فاللهُ قد ضرب الأَقلَّ لنُوره
مثلاً من المشكاة والنبراس

ومن ذلك ما قاله ابن الرومي

لما تؤذنُ الدنيا بهِ من صروفها
يكونُ بكاءَ الطفل ساعة يولدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنهُ
لأوسعُ مما كان فيهِ وأرغدُ
وإذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنّهُ
بما هو لاقٍ من أذاها يُهدَّدُ

ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المتنبي

أجزنى إذا أنشدت مدحاً فإنما
بشعرى أتاك المادحون مردَّدا
ودع كلَّ صوت بعد صوتى فإننى
أنا الصائح المحكىُّ والاخر الصدى

فانظر الى ما أودعهُ فى هذين البيتين من المديح ما أرقّه ، ومن المعنى ما أدقّه ، ومن ذلك ما قاله ابن الرومي أيضاً

عدوُّك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرنَّ من الصّحاب
فإنّ الداءَ أكثرُ ما تراهُ * يكون من الطعام أو الشَراب

ومن دقيق ما يورد فيما نحن بصدده قول بعض الشعراء

(بأبي غزالٌ غازلتهُ مقلتي
بين الغُوير وبين شطَّيْ بارق)
(عاطيتهُ والليلُ يسحبُ ذيلهُ
صهباءَ كالمسك الفتيق الناشق)
(وضممتهُ ضمَّ الكميّ لسيفهِ
وذؤابتاهُ حمائلٌ في عاتقي)
(حتى اذا مالت بهِ سِنَةُ الكرَى
زحزحتهُ شيئاً وكان معانقي)
(أبعدتهُ عن أضلُعٍ تشتاقهُ
كيلا ينام على وسادٍ خافق)

ومن الفائق الرائق ماقالهُ أبو الطيب يمدح سيف الدولة

(صدَمْتهمْ بخميس أنتَ غُرَّتهُ
وسَمْهَرِيَّتهُ في وجههِ غمَمُ)
(فكان أثبتَ ما فيهمْ جسومُهمُ
يسقُطن حولك والأرواح تنهزمُ)

هذا وأمثالهُ من بدائع ابي الطيب وعجائبهِ في معانيهِ التي فاق بها على نظرائهِ ، وامتاز فيها على أقرانهِ من الشعراء ،

ومن جيد ما يقال فى هذا المعنى ماقالهُ بعض المغاربة

(غدرَتْ بهِ زُرِقُ الأسنّةِ بعد ما
قد كنّ طوعَ يمينهِ وشمالهِ)
(فليحْذَرِ البدرُ المنيرُ نجومهُ
إذ بان غدْرُ مثالها بمثالهِ)

فهذا وأمثالهُ من سحريّات الشعر وعجائبهِ، ولنقتصر منهُ على هذا القدر

(المرتبة الثالثة)

ما يكون وارداً على جهة الاحتذاء على مثال سابق، ومنوال متقدّم، وهذا كالبخل فانهُ ورد عنهم فيهِ أشياء كثيرة كلها دالّ على مقصود واحد فى الهجاء بهِ وهذا كقول أبى نُواس يصف بخيلاً

(شرابُكَ فى السّراب إذا عطشْنَا
وخيرُك عند مُنْقطَع التراب
(فما روّحتنا لتذُبَّ عنا
ولكن خِفْتَ مَرْزئةَ الذُّباب)

ومن ذلك ما قالهُ بعض المغاربة يهجو إنساناً احترقت دارُهُ يقال لهُ ابن طُلَيْلِ

(أنظر الى الأيام كيف تسوقُنا
طوْعاً الى الأقدار بالأقدار)

(ما أوقد ابنُ طُلَيْل قطُّ بدارهِ
ناراً وكان هلاكُها بالنار)

وكما قال بعض الشعراء فى ذمّ اللؤم والبخل

(زِدْ رفعةً إن قيل أغْضَى * ثمّ انخفِضْ إن قيل أثْرَى)
(كالغصن يدنُو ما اكْتَسَى * ثمراً ويَنأى ما تَعَرَّى)

ومما ولع بهِ الشعراء وتهالكوا فى التعبير عن أحوال الطّلول والرسُوم وأحوال الديار، قال أبو الطيب المتنبى

(لكِ يامنازلُ فى القلوب منازلُ
أقفرْتِ أنتِ وهنّ منكِ أوَاهلُ)

(١) فأخذ هذا المعنى أبو تمام وأجاد فيهِ كل الإجادة فقال

(عفتِ الرسومُ وما عفت أحْشاؤهُ
من عهد شوقٍ ما يحولُ فيَذْهبُ)

فأخذهُ البحترى ونسج على منوالهِ بقولهِ

---

(١) كانه لم يدر أن أبا تمام أسبق من أبى الطيب فقال ما قال. وهو خطأ

(وقفتُ وأحشائى منازلُ للأسى
بهِ وهو قفرٌ قد تعفَّتْ منازلُه)

وقال امرؤ القيس

(عُوجُوا على الطلل المُحيل لعلّنا
نبكى الديار كما بكى ابنُ حِذَام)

فابنُ حزام هذا هو أول من بكى على الديار فلهذا حذوُا على حذْوِه ، ووصفو الديار بأوصاف مختلفة كلُّها متفقة فى مقصود واحد ، ولْنقتصر على هذا القدر من تمهيد قاعدة هذا الفن ، ونشرع الآن فى شرح مقاصدهِ فلنذكر ما يتعلق بذكر علوم البيان من مواقع المجاز فى البلاغة ، ثم نُرْدفهُ بما يتعلق بالمعانى الإفرادية وهو المعبر عنهُ بعلم المعانى ، ثم نذكر على إثْرِه ما هو منهُ وهو ما يتعلق بمراعاة أحوال التأليف وهو المعبر عنهُ بعلوم المعانى أيضاً ، ثم نذكر خاتمة الفن فيما يتعلق بمجموع الإفراد والتركيب ، وهو المعبر عنهُ بعلم البديع فهذه أبواب أربعة

الباب الاول

(فى كيفية استعمال المجاز وذكر مواقعه فى البلاغة)

اعلم أن جميع ما أسلفناهُ فى المجاز إنما هو كلام فى بيان ماهيّته وذكر أقسامه وأحكامه ، والذى نذكرهُ الآن إنما هو كلام من وراء ذلك مما له تعلُّق بعلم البلاغة وذكر مواقعه العجيبة وأَسرارهِ الغريبة ولهُ قواعد أربع

(القاعدة الاولى فى ذكر الاستعارة)

اعلم أن التوسّع ، اسم يقع على جميع الأنواع المجازية كلّها ، واشتقاقه من السعة ، وهو نقيض الضيق ، فالضيقُ قصرُ الكلام على حقيقتهِ من غير خروج عنها ، والتوسّعُ شاملٌ لما ذكرناهُ من أنواع المجازات ، فإطلاقُ التوسع على ما يندرج تحته من أنواع المجاز بمنزلة إطلاق الكلمة على ما يندرج تحتها من أنواعها الخاصّة الاسم والفعل والحرف ، وهكذا اسمُ المجاز ، فإنهُ شامل لأنواعهِ من الاستعارة ، والكناية ، والتمثيل ، فهما سيّان كما ترى فى إفادة ما تحتهما من هذه الأنواع ، وليسا مختصين بنوع من المجاز دون نوع ، فاذا تمهدت هذه القاعدةُ فلنذكر ماهية الاستعارة والتفرقة بينهما

وبين التشبيه، ثم نذكر امثلتها، ثم نُردفه بذكر أقسامها ونذكر أحكامها الخاصة فهذه مباحث أربعة نفصلها بمعونة الله تعالى

﴿ البحث الاول ﴾

(فى بيان ماهية الاستعارة وبيان التفرقة بينهما وبين التشبيه)

اعلم أن الاستعارة المجازية مأخوذة من الاستعارة الحقيقية، وإنما لُقِّب هذا النوع من المجاز بالاستعارة أخذاً لها مما ذكرناهُ، لأن الواحد منا يستعير من غيره رداءً ليلبسهُ، ومثل هـذا لايقع إلا من شخصين بينهما معرفة ومعاملة فتقتضى تلك المعرفة استعارة أحدهما من الآخر فإذا لم يكن بينهما معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر من أجل الانقطاع، وهذا الحكم جارٍ فى الاستعارة المجازية، فإنك لا تستعير أحد اللفظين للآخر إلا بواسطة التعارف المعنوى كما أن أحد الشخصين لا يستعير من الآخر إلا بواسطة المعرفة بينهما. فأمّا معناها فى مصطلح علماء البيان فقد ذكر فى تعريف ماهيتها أمور خمسة

(التعريف الاول)

ذكرهُ الرُّمانى وحاصل ما قالهُ فى الاستعارة أنها استعمال

العبارة لغيرما وضعت لهُ فى أصل اللغة ، هذا ملخّص كلامهِ ، وهو فاسدٌ من أوجه ثلاثة ، أما أوّلاً فلأن هذا يلزم منهُ أن يكون كلُّ مجاز من باب الاستعارة وهو خطأ ، فإن كل واحد من الأودية المجازية لهُ حدٌّ يخالف حدّ الآخر وحقيقته ، فلا وجه لخلطها ، وأما ثانياً فلأن هذا يلزم عليهِ أن تكون الأعلامُ المنقولة يدخلها المجاز وتكون من نوع الاستعارة وهو باطل ، فإنّ المجازات لا تدخلها فضلاً عن الاستعارة ، وأما ثالثاً فلأن ما قالهُ يلزم منهُ أنا لو وضعنا اسم السماء على الأرض ، أن يكون مجازاً ، وهذا باطل لا يقول بهِ أحد

(التعريف الثانى)

حكاهُ ابن الأثير نصرُ بن عبد الكريم فى كتابهِ المثل السائر عن بعض علماء البيان ، فقال هو نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما بسبب ما وهذا فاسد لأمرين ، أما أوّلاً فلأن ما ذكرهُ يدخل فيهِ التشبيه كقولنا زيد كالأسد ، وزيد كأنهُ الأسد ، فإن هذا نقل معنى من لفظ الى لفظ بسبب مشاركة بينهما ، لأنا نقلنا حقيقة الأسد الى زيد ،

فصار مجازاً للمشاركة التى كانت بين زيد وبين الأسد فى وصف الشجاعة ، وأما ثانياً فلأن مثل هذا يدخل فيهِ ماهية المجاز مطلقاً ، فإن المجاز من حيث إنهُ مجازٌ نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما ، والمجازُ المطلقُ مغايرٌ للاستعارة فلا يدخل أحدهما فى الآخر

(التعريف الثالث)

اختارهُ ابن الاثير فى كتابهِ فقال فى حدّها هو نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما مع طَيّ ذكر المنقول اليهِ ، فقولنا نقل المعنى من لفظ الى لفظ عامٌ للاستعارة والتشبيه ، وقولنا مع طى ذكر المنقول اليهِ يخرج بهِ التشبيه عن الاستعارة ، وهذا فاسد أيضاً فإنّ بعض أنواع الاستعارة لا يُقَدَّرُ هناك مَطْوِىٌّ فيها ، ولا يُتَوَهّم طَيُّه وإن ذكر المطوىُّ خرج بإظهاره الكلامُ عن رتبة البلاغة ، وهذا كقوله تعالى « واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » وقوله تعالى « فَاذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ » فأنتَ لو أبرزت ههنا ذِكْرَ المستعار له وقلت واخفض لهما جانبَكَ الذى يشبه الجناح ، لاخرجت الكلام عن ديباجة الفصاحة ، فظهر مما

ذكرناهُ أن اعتبار المطوىّ يُخرج بعض الاستعارة عن كونها استعارة ، فبطل جعله قيداً من قيود حدّ الاستعارة

(التعريف الرابع)

ذكرهُ ابن الخطيب الرازى : وحاصل ما قاله أنها ذكر الشيء باسم غيره وإثباتُ ما لغيره له لأجل المبالغة فى التشبيه ، فقولنا ذكر الشيء باسم غيره ، احترازٌ عما إذا صُرّح بذكر المشبه ، كقولنا زيد أسد ، فإنك ما ذكرت زيداً باسم الاسد ، بل ذكرتهُ باسمهِ الخاصّ له ، فلا جرم ليس ذلك من الاستعارة وقولنا وإثبات ما لغيره له ، ذكرناهُ ليدخل فيهِ الاستعارة التخيلية ، وقولنا لأجل المبالغة فى التشبيه ، ذكرناهُ لتتميز بهِ عن المجاز ، هذا ملخص كلامه فى تفسير ما ذكرهُ من الحدّ ، وهو فاسدٌ لامرين ، أما أوّلاً فلأنهُ ذكر التشبيه قيداً فى الحدّ ، وبذكره يخرج عن حدّ الاستعارة ، لأنها مخالفة للتشبيه فى ماهيتها وحكمها ، فلا يدخل أحدهما فى الآخر ، وأمّا ثانياً فلأنهُ أورد فيهِ لفظ التعليل ، وهو قوله لأجل المبالغة ، والحدُّ انما يُراد لتصور الماهية مطلقة من غير تعليل فبطل ما قاله

(التعريف الخامس)

وهو المختار ، أن يقال تصييرُك الشيءَ الشيءَ وليس بهِ ، وجعلك الشيءَ للشيء وليس لهُ بحيث لا يُلحظ فيهِ معنى التشبيه صورةً ولا حُكْماً ، ولنفسّر هذه القيود ، فقولنا « تصييرك الشيءَ الشيءَ وليس بهِ وجعلك الشيءَ للشيء وليس لهُ » شامل لنوعى الاستعارة ، فالأول كقولك لقيت أسداً ، وأتيت بحراً ، والثانى كقولك رأيت رجلاً أظفارُه وافرةٌ ، وقصدتُ رجلاً تتقاذفُ أمواجُ بحرهِ ، وفلان بيدهِ زمامُ الأمر ، وقولنا « بحيث لا يلحظ فيهِ معنى التشبيه صورة » كقولك زيد كالأسد ومثل البحر ، فإن ما هذا حاله ليس من باب الاستعارة فى شيء لما يظهر فيهِ من صورة التشبيه ، وأحدُ البابين مغاير للآخر فلا يمْزَجُ أحدهما بصاحبهِ ، وقولنا « ولا حُكْماً » يحترز بهِ عن صورةٍ واحدةٍ ، وهى قولنا زيد أسد ، وعمرو بحر ، فهل يُعَدُّ هذا من باب الاستعارة ، أو يكون معدوداً فى التشبيه ، فأكثرُ علماء البيان على عدّة من باب التشبيه ، وإدخالهِ فى حَيّزه ، ومنهم من زعم أنهُ معدود فى الاستعارة لتجرده من آلة التشبيه ، فصار الامر فى الاستعارة

والتشبيه جارياً على ثلاثة أوجه ، أوّلها أن يكون استعارة باتفاق ، وهذا كقولك رأيت قمراً نورُهُ على الناس ، وشمساً ضياؤهُ على الخلق ، وثانيها تشبيهٌ بلا خلاف ، وهو ما ظهرت فيهِ أداةُ التشبيهِ كقولك زيد مثل البحر ، ومثل الأسد ، وثالثها وقع فيهِ خلاف ، هل يُعَدُّ من الاستعارة أو يكون معدوداً من التشبيه ، وهو ما كان مضمرَ الأداة ، وهذا كقولك زيد أسد ، وعمرو بحر ، وغير ذلك وسيأتى لهذا مزيد تقرير فى التفرقة بين الاستعارة والتشبيه. فهذا ما أردنا ذكرهُ فى ماهيّة الاستعارة ومفهومها

وأمّا التفرقة بين الاستعارة والتشبيهِ فاعلم أن كل ما كان من صريح الاستعارة إمّا تصييرُ الشىء الشىءَ وليس بهِ كما قال بعض الشعراء

(لا تعجبوا من بِلَى غِلَالَتِهِ * قد زَرَّ أزرَارَهُ على القَمَرِ)

وكما قال بعضهم

(قامَتْ تُظَلِّلُنى من الشمس نفسٌ أعزُّ علىّ من نفسى)

(قامتْ تُظَلِّلُنى ومن عجبٍ * شمسٌ تُظَلِّلُنى من الشمسِ)

وأمّا جعلُ الشىء للشىء وليس لهُ فكما قال لَبيد

(وغَدَاةِ رِيحٍ قد كَشَفْتُ وقرَّةٍ
إِذْ أصبحتْ بيد الشَّمَال زمامُهـا)

أراد السحابة كما قالوا نَشِبَتْ أظفارُ المنيَّة بفلان ، فهذا لا خفاء بكونهِ مستعاراً كما ترى ، وما كان من صريح التشبيه فلا مقالَ فيـهِ ، وهو ما كان فيـهِ أداة التشبيه ظاهرةً كقول بشار

(كأن مُثارَ النقع فوق رؤُسنا
واسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبُهُ)

ومثلُ قولهم فلانٌ كالبدر ، وفلان كالأسد ، الى غـير ذلك من التشبيهات ، فهذا لا خفاءَ بهِ فى كونهِ تشبيهاً محْضاً ، وإِنما يقع النظر والتردّد فى التشبيه المضمر الأداة كقولك زيد الأسد شجاعةً ، وعمرٌو البحر فى الجود والكرم ، وكقول أبى الطيب المتنبى

(بدتْ قمراً ومالت خُوط بانٍ
وفاحتْ عنبراً ورنتْ غزالا)

فهل يُعَدُّ من باب التشبيهِ ، أو من باب الاستعارة ، فيهِ مذهبان

﴿ المذهب الأول ﴾

انهُ ليس من باب الاستعارة وهذا هو الذى مال اليهِ ابن الخطيب الرازى وأبو المكارم صاحب التبيان ، وهو رأىُ أكثر علماء البيان ، وأنهُ من باب التشبيهِ المضمر الأداة ، ولهم على ذلك حجتان

الحجةُ الأولى ، قولُهم إِن الاسماءَ فى دلالتها على مدلولاتها نازلةٌ منزلة الهيئات فى دلالتها على ما تدل عليهِ من الأحوال ، فكما أنك لو أخذت رجلاً من السُّوقَة معلوماً حالهُ بكونهِ سُوقيّاً ، ثم ألبستهُ تاجَ المُلْك ، وأَعرْتَهُ إِيّاهُ ، وأقعدتَهُ على تَخْتِ المملكة بحيث إِن كل من رآهُ توهم أنهُ هو المَلِكُ ، لكنت قد أعرتَهُ المُلْك ، لأن المقصود من هيئة المُلْك حصولُ المهابة فى النفوس والجلالة فى الأعيان ، ولكن ذلك غيرُ حاصل مع بقاء ما يدلّ على كونهِ سُوقيّاً ، فهكذا ما نحن فيهِ إِذا قلت زيد أسدٌ ، فقد نفيتَ عنهُ ما يدلّ على أنهُ ليس بأسد ، لأن الذاتين لا يكونان ذاتاً واحدةً ، فلا جرَمَ لا تحصل المبالغة المقصودة من الاستعارة فلا تكون الإِعارةُ حاصلةً

الحجة الثانية ، إن المقصود من الاستعارة هو أن يحصل للمستعير من المنافع مثلُ ما كان حاصلاً للمعير منها ، كالثوب مثلاً فإنّ المستعير يلبسهُ كما يلبسهُ المعير سواءً ، فاذا قلت زيد أسدٌ . فالمقصودُ من هذا الإخبارُ عن الشخص المعلوم بكونهِ أسداً لا غيرُ ، بخلاف قولك : لقيت الأسدَ ، فإنك تفيد بهِ أنهُ هو الحيوان المعلوم في الشجاعة ، فقد صار الاسم منتفِعاً بالشجاعة مثل انتفاع الأسد بها ، بخلاف قولك زيد الأسدُ ، فلم يقع ذلك الموقع ، فلهذا لم يكن منتفِعاً بها ، فلا جرَمَ قضينا بكونهِ غير مستعار لما ذكرناهُ

﴿ المذهب الثانى ﴾

أنهُ بحقيقة الاستعارة أشْبَهُ ، وقد قال بهِ أبو هلال العسكريّ ، والغانميّ ، وأبو الحسن الآمدى ، وأبو محمد الخفاجيّ ، وغيرهم من علماء البيان ولهم حجتان

الحجة الاولى ، قولُهم الاستعارة ليس لها آلة ، والتشبيهُ لهُ الآلة ، فما كانت فيهِ آلة التشبيهِ ظاهرةً فهو تشبيهٌ ، وما لم تكن فيهِ ظاهرةً فهو استعارة ، فقولهُ زيد الأسدُ لا آلةَ فيهِ فوجب كونهُ من الاستعارة

الحجة الثانية ، هو أن المفهوم من قولنا زيد الأسدُ ، مثل المفهوم من قولنا لقيت الأسد ، وأتانى أسدٌ ، فإذا كان مفهومُهما واحداً فى المبالغة فى المجاز ، فإذا قضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقةٍ بينهما ، هذا مَغْزَى كلام الفريقين مع فضل تهذيب منّا لهُ لم يذكروهُ ، وقد لخّصناهُ ، والمختارُ عندنا تفصيل نَرْمُزُ الى مباديهِ ، وحاصلهُ أنا نقولُ : ما كان من قبيل التشبيهِ المضمر الأداة كقولنا : زيد الأسد ، وزيد أسد ، فليس يخلو حالهُ من قسمين

فالقسم الأولُ أن يكون الكلام مَسُوقاً على جهة الاستعارة ، فلو قدّرنا ظهور آلة التشبيهِ لنَزَل قدْرُهُ وخَرَجَ عن ديباجة بلاغتهِ ، فما هذا حالهُ يكون من باب الاستعارة ، ويفْسُدُ جعلهُ من التشبيهِ ، ومثالهُ قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقوله تعالى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » فالخفضُ والذوقُ استعارتان بليغتان فلو ذهب بجعلهِ تشبيهاً قائلاً ، اخفض لهما جانبك الذى هو كالجناح ، وأذاقها الله الجوع والخوف اللذين هما كاللباس ، كان من الرّكّة بمكان ، وهكذا لو قلتَ فى نحو قول الشاعر

فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجس وسقتْ
وردًا وعضّتْ على العُناب بالبَرَد

فما هذا حالهُ من رقيق الاستعارة وعجيبها فلو أظهرتَ التشبيه فيهِ وقلت فأمطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خدًّا كالورد ، وعضّت أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبَرَد ، لكان غثًّا من الكلام فضلاً عن أن يكون بليغاً

القسم الثانى أن يكون الكلام متسقاً مع ظهور أداة التشبيهِ وهذا كقولنا : زيد الأسدُ ، فإنك لو قلت كالأسد كان الكلام سديداً وكقول البحترى

إذا سفَرَتْ أضاءتْ شمسَ دَجْنٍ
ومالتْ فى التعطّف غصنَ بانِ

فإنك لو قلت سفرت مثل ضوء الشمس ومالت فى التعطف مثل غصن البان ، لم يخرج الكلام عن بلاغتهِ ، وعن هذا قيل إن قولنا زيد أسدٌ ، الأحقُّ ان يكون من باب الاستعارة ، وأن يكون قولنا زيد الأسد ، أن يكون من باب التشبيهِ ، لأن الكاف يحسُن إظهارُها فى المعرّف باللام دون المنكر ، والتفرقةُ بينهما أن اللام فى الأسد للجنس ، فكأنك قلت زيد يشبهُ هذه الحقيقة المخصوصة

من الحيوان ، بخلاف المنكر ، فإنها دالّةٌ على واحد من هذه الحقيقة ، فإذا قلت زيد يشبهُ واحداً من هذه الحقيقة ، فلا مبالغة فيهِ فافترقا ، وقد قرّر الزمخشريّ فى تفسيرهِ أن قوله تعالى « خَتَمَ اللهُ على قلوبهمْ وعلى سمعهمْ وعلى أبصارهمْ غشاوةٌ » يمكن جعلهُ من باب الاستعارة ، ويمكن جعلهُ من باب التشبيه ، مشيراً الى ما ذكرنا من التلخيص فى ظهور آلة التشبيه وإضمارهِ ، كما مرّ ، واللهُ أعلم ، فينحلُّ من مجموع كلامنا أن الاستعارة لا تفتقر الى أداةِ التشبيه وأن التشبيه لا بدّ فيهِ من ذكر الأداة ، وهى الكاف وكأنّ ، ومثل ، ونحو ، وما شاكلها ، فكلما ازداد التشبيه خفاءً ازدادت الاستعارة حسناً ورشاقةً ، وكلما ظهر معنى التشبيه تَعَفَّتْ آثار الاستعارة ، وامَّحَتْ سومُها وأعلامُها ، واتَّضح أمر المشابهة كما تشهد لهُ الأمثلة التى ذكرناها من قبل ويشهد لهُ ماذكرهُ الآن بمعونة الله تعالى

﴿ دقيقة ﴾

اعلم أنك إذا حققت النظر فى الاستعارة فى مثل قولك لقيت الأسد ، وجاءنى البحر ، علمتَ قطعاً أن التجوّز إنما

كان فى جهة المعنى دون اللفظ من حيثُ اعتقدتَ أن ذات زيدٍ ذاتُ الأسد ، من غير مخالفة ، ومن أجل هذا قال أهل التحقيق من علماء المعانى : إن استعمال المجازات يكون أبلغ فى تأدية المعانى من استعمال الحقائق ، ولهذا فانهُ يقال عند ذاك جعلهُ أسداً وبحراً كما يُقال جعلهُ أميراً ،

فإنْ زعم زاعمٌ أنَ المراد بالجَعْل ههنا التسمية كقولهِ تعالى « وجَعَلوا الملائكةَ الّذينَ همْ عبادُ الرَّحْمَنِ إناثاً » اى سمّوْا ، والمفعولُ الثانى من فعْلِ سمّى أبداً يكون المرادُ بهِ اللفظ دون المعنى ، كقولك سمّيت ولدى عبدَ الله ، إذا وضعت عليهِ هذا الاسم ،

فجوابُهُ أنا لا نسلم أنهم أرادوا التسميةَ ، بل اعتقدوا للملائكة صفة الأنوثة ، وأثبتوها لهم ، ومن أجل هذا الاعتقاد صدر من جهتهم إطلاقُ اسم البنات فى قولهِ تعالى « أَمْ لَهُ البناتُ ولكمُ البنونَ » ولم يكن ذمُّهم من أجل إطلاق لفظ البنات والأنوثة على الملائكة من غير اعتقاد لمعنى الأنوثة ، بل كان الإنكارُ عليهم من أجل اعتقادهم لها فيهم ، ومصداقُ ذلك قوله تعالى « أَشَهِدُوا خلْقَهمْ » فهذا ما أردنا تقريرهُ فى ماهية الاستعارة والحمد لله

﴿ البحث الثانى ﴾

(فى إيراد الامثلة فيهما)

اعلم أن الأمثلة هى تِلْوُ الماهيات فى تقرير الحقائق وبيانها ، فلأجل هذا أوردناها على إِثْرِ كلامنا فى الماهيّة ليتضح الأمر فيما نريدهُ من ذلك ، وجملةُ ما نُوردهُ من أمثلة الاستعارة أنواعٌ خمسة

(النوعُ الأول الاستعارات القرآنية)

اعلم أَن من حقّ الاستعارة وحكمها الخاص أَن يكون المستعارُ له مطْرِىّ الذكر ، وكلما ازْدَادَ خفاَء ازدادَتْ الاستعارةُ حسْنا ، فإِن أَدخلت على الاستعارة حرفَ التشبيه فقلتَ فى قولك رأَيت أسدًا ، رأيت رجلاً كالأسد ، فقد وضعت تاجَها ، وسلَبْتَها ديباَجها ،

فمن ذلك قوله تعالى « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمنةً مُطْمَئِنَّةً يأْتيهَا رِزْقُها رغَدًا من كلِّ مَكانٍ فكفَرَتْ بأنْعُمِ اللهِ فأَذَاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخَوْفِ » فانظر الى ما اشتملت عليهِ هذه الآية من المجازات البليغة والاستعارات الرشيقة ، فقد تضمنت استعاراتٍ أَربعا ، الأُولى منها القريةُ

للأَهل ، والثانية استعارة الذّوق فى اللباس ، والثالثةُ استعارة اللباس فى الجوع ، والرابعة استعارةُ اللباس فى الخوف ، فهذهِ الاستعارات كلها متلائمة ، وفيها من التناسب ما لا خفاء بهِ ، فلما ذكر الأَمن ، والرغَدَ ، من الرزق أَردفهُ بما يلائمهُ من من الجوع ، والخوف ، والإِذاقة ، لما فى ذلك من البلاغة ، وهذا النوع يسمى الاستعارة المُرَشّحة ، وهو أن يأتى بالاستعارة عقيب الاستعارة لها بالاولى علاقة ومناسبة ، وهذا كقوله تعالى « اشتَرُوا الضلالةَ بالهُدَى » فلما استعار الشّراء عقّبه بذكر الرّبح لمّا كان مناسباً لهُ فى غاية الملائمة لما سبق ، وقد زَعم عبدُ الله بن سَيّار الخفاجىّ إِنكارَ الاستعارة المرشّحة ، وقال إِنّ الاستعارة المبنية على الاستعارة من أَبعد الاستعارات ، وأَنكر عليهِ الآمدىّ هذه المقالة ، وما قالهُ الآمدى هو المعوّلُ عليهِ ، فإِن هذه الاستعارة المرشّحة من أعجب الاستعارات وأَغرَبها ، واستظرفها كلُّ محصّل من علماء البيان وسنوضحها فى التقاسيم ، ونورد الشاهد عليها بمعونة الله تعالى

ومن ذلك قوله تعالى « الر ، كتابٌ أنزلْناهُ إِليكَ لتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلُماتِ الى النور » فذكر الظلمات والنور إِنما كان على جهة الاستعارة للكفر والإِيمان ، والضلالة

والهدى كأنهُ قال لتخرج الناس من الكفر والضلال اللذين هما كالظلمة الى الإيمان والهدى اللذين هما كالنور، والمستعار لهُ مطوىٌّ الذكر، فإذا أُظْهر كان من قبيل صريح التشبيه كما مثلناهُ ومن هذا قوله تعالى « وقد مَكَرُوا مكْرَهُمْ وعند اللهِ مكْرُهم وإِنْ كان مَكْرُهُمْ لتَزُولَ منهُ الجِبالُ » وإِنما يكون استعارة فى قراءة من قرأ لتزول بالنصب على تقدير . إِنْ . بمعنى . ما. والمعنى وما كان مكرُهم لتزول منهُ الجبال، واستعارَ الجبال لما أتى بهِ الرسول صلى الله عليهِ وآلهِ ، من المعجزات الباهرة والأعلام الواضحة النيّرة على نبوّتهِ ، فالمعنى وما كان خَدْعُهم وتكذيبُهم لتزول منهُ هذه الأمورُ المستقرّةُ الثابتة التى هى كالجبال فى الرسوخ والاستقرار ، فأمّا على قراءة من قرأ « لتزولُ منهُ » بالرفع فى ، تزول ، فلا وجه للاستعارة فيهِ للجبال بل تكون باقية على حقيقتها ، هذا ما قالهُ ابن الاثير، وهو جيّدٌ لا غُبارَ عليهِ ، لكنهُ يمكن دخول المجاز فيها من وجه آخر، وهوأنّ الله تعالى أخبر عما كانوا عليهِ من الإغراق فى الردّ والتكذيب والمبالغة فى الإنكار لما جاءَ بهِ الرسول بأن الجبال الرواسى تزول من شنْع هذه المقالة وتفاحُش هذه الجهالة كما قال تعالى « تكادُ السمواتُ يتفطَّرْنَ منهُ وتَنْشَقُّ

الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدًّا أَنْ دعوْا للرحمن ولداً » فهكذا هذا ، ومن هـذا قوله تعالى « والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُون أَلَمْ تَرَ أَنّهم فى كلّ وادٍ يَهِيمُونَ » فاستعار الأودية للمغازى والمقاصد الشعريّة التى يُلخّصونها بأفئدتهم ويصوغونها بأفكارهم ، وخصّ الاستعارة بالأودية دون الطرُق والمسالك ، لأن المعانى الشعريّة تُستخرج بالفكرة والرّويّة ، وفيهما خفاء وغموض ، فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة ، وفى القرآن استعارات كثيرة

(النوع الثاني الاستعارة فى الأخبار النبوية)

فمن ذلك قوله صلى الله عليهِ وآلهِ « أَكثروا من ذكر هَاذِمِ اللّذّاتِ فإِنكمْ إِن ذكرتُمُوهُ فى ضِيقٍ وسّعهُ عليكم » فاستعار هاذم اللذات للموت ، وهو مطوى الذكر ، ولو ظهر لم يكن هناك استعارة ، وفى هـذه الاستعارة من الرّقة واللطافة مالا يخفى حاله على مَن ضرب فى هذه الصناعة بحظٍ وافر وكان لهُ فيها القِدحُ القامِر

ومن ذلك قوله صلى الله عليهِ وآلهِ « لاتستضيئُوا بنار المشركين » فاستعار ذكر النار للرأى والمشورة ، والمعنى

لا تهتدوا بآراء المشركين ، ولا تتكلوا على أقوالهم ، لما فيها من الخديعةِ والمكر والغَرَر ، ومن ذلك قوله عليهِ السلام ، « إنّ الغضب ليُوقِدُ فى فؤاد ابن آدم النارَ أَلاَ تَرَاهُ إذا غضبَ كيف تَحْمَرُّ عيناهُ وتنْتَفِخُ أَوْداجهُ » فاستعار الوَقِيدَ لاشتداد الغضب وتراكمهِ ، ومنهُ قولهُ عليهِ السلام « ماذئبان ضاريان فى زريبة أحدِكم بأسرَعَ من الحسد فى حسناتِ المؤمن » فاستعار الذئبين فى إفساد الغنم بضراوتهما لما يحصل من عقوبة الحسد فى إحباط الحسنات المستحقة على الأعمال الصالحة ، يريد أن إسراعهُ فى الإحباط بمنزلة إسراع هذين الذئبين فى إهلاك الغنم وقتلها ، ومن بديع الاستعارة وغريبها قوله صلى الله عليهِ وآلهِ « ما جرَع عبدٌ قَطُّ جَرْعتين أعْظَمَ عند اللهِ من جَرْعةِ غيظٍ يلْقاها بحِلْمٍ أَوْ جَرْعَةِ مُصيبةٍ يلْقاها بصبرٍ جميلٍ » فاستعار الجرْعة لما يكابدهُ الإنسان عند ملابسة الغيظ ومقاساة الأحزان ، وخصّ الجرعة لأن هذه الأمور كلها تخصّ القلب وتقع عليهِ كما تقع الجرعة عليهِ عند شربهِ ، وهى استعارة لطيفة يعقلها أهل الكياسة ، وينظر لها الاذكياء ، ومن ذلك قوله عليهِ السلام « المؤمنُ والكافرُ لا تُتَرَاءى

نيرانُهما » فاستعار ذلك إعلاماً لما بينهما من البُعْدِ والانقطاع في جميع الأحوال لانهما اذا تباعدا في الدين ، فما وراء ذلك يكون أبعدَ وأعظمَ في الانقطاع ، وفي هذا إشارة الى ان الايمان أعظم الوُصلِ فيما بين المسلمين ، وأن الافتراق فيه لا وُصْلة بعدهُ ، ولهذا استعار لهُ النارَ لانها تُرى من الأمكنة البعيدة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليهِ وآلهِ « قيّدُوا القُرآن بالدّرْسِ فإنّ لهُ أَوَابدَ كأوابدِ الوحْشِ » فاستعار ذكر الأوابد وهي الحيوانات الوحشية لما فيها من النفار وشدّةِ الشُّرود لذهاب هذه المحفوظات عن القلب اذا لم تكن راسخةً فيه بشدة الدرس لها ، ومجازاتُ الأخبار النبوية واسعةُ الخطوِ وقد وقفتُ على المجازات النبوية للسيد الشريف عليّ بن ناصر ، ولقد أتى فيها بالعجبِ العُجاب ولُباب الألباب ، وفي كلامهِ دلالة على ما اختُصَّ بهِ من الفضل والإحاطة بالبلاغة وتبحُّرِهِ في علومها

(النوع الثالث)

في الاستعارة المأخوذة من كلام أمير المؤمنين كرّم الله وجههُ ، فمن بليغها وأغربها قوله عليهِ السلام « وأيمُ الله

لأقودنَّ الظالم بخزامةٍ (١) حتى أُورِدهُ مَنْهَلَ الحقّ وإنْ كان كارهاً » فانظر الى هذه النكتة من كلامهِ ما أعظم موقعَها في الدين ، وأرضاها لله وأشجاها في حلوق الظلمة ، وأرسخ قدمها في البلاغة ، وقد اشتملت على استعارات ثلاث ، الخزامةُ ، والانقياد ، والمنهل ، وما أعجبَ توشّحها في قالب نَظْمِها وحُسْن سياقها ، فإنهُ لما ذكر الانقياد عقبهُ بما يلائمهُ من الخزامة ، ولما ذكر الورود عقّبهُ بما يناسبهُ من المنهل ،وهذا هو سِرُّ التوشيح ، وحقيقة جوهرِه ، ومن أَرقّ الاستعارة وألطفها ما قالهُ عليهِ السلام : يُشير بهِ الى نفسهِ وأولادهِ من بعدهِ « نحن الشّعارُ والخَزَنَةُ والأبوابُ ، لا تُؤتى البيوتُ الاّ من أبوابها ، فَمَنْ أتاها من غير بابها سمّي سارقاً »

فتفكر في هذه الكلمات القصيرة وما اشتملت عليهِ من المعاني وانطوت عليهِ من الأسرار والرموز في فضل أهل البيت وعلو درجتهم عند الله تعالى ومكانتهم من الشرف بالرسول صلى الله عليهِ ، وقُرْبِ مكانهم منهُ ، وتحتوى على استعارات خمسة ، فاستعار الشّعار ليدلّ بهِ على الاختصاص

(١) الخزامة. حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام

بالرسول ، والملاصقة لهُ فى حسبهِ ، واستعار الخزنة ليدلّ بهِ على أنهم الحافظون لعلوم الشريعة والمُهَيمنون عليها ، واستعار الأبواب ليدلّ بهِ على أنهُ لا توجد الفضائل فى العلوم الاّ من جهتهم ، وأنهم بمنزلة الأبواب لها ، واستعار قوله لا تؤتى البيوت الاّ من أبوابها ، دالاًّ بهِ على أن أخذها من جهة غيرهم خلافُ العادة المألوفة وعكس للأَمر وإبطال لحقيقتهِ ، واستعار قوله فمن أتاها من غير بابها كان سارقاً ، ليدلّ بهِ على أن كل من أخذها من غيرهم فقد ظلَم وتعدّى وأساء كالسارق، لأنهُ أخذ ما لا يملكهُ فاستعار هذه الألفاظ لما ذكرناهُ من تلك المعانى ، ومن ذلك ما قالهُ فى مَعرِض التهكّم والتوبيخ لبنى أميّة إن بنى أُميّة يفوّقُوننى بمالِ الله ، واللهِ لئنْ عشْتُ لهم لأَنفُضنَّهم نفْض اللحّامِ الوِذام التَّرِبة » وفى كلام آخر « التراب الوَذَمة » فاستعار التفويق للأكل قليلاً قليلاً ، أخذاً من فُوَاقِ الناقة ، وهو الحَلْبة بعـد الحلبة ، وقوله لأنفضنهم نفض اللحّام ، استعارة لتفريق شملهم والتنكيل بهم ، واللحّام ، هو القصّاب ، والوِذامُ هى القطعُ من الكرش ، واحدتها وذمة ، والتّرِبة ، التى تقع على الأرض فإذا نفضها اللحّام تناثر الترابُ منها أسرع ما يكون وأقصاه عنها، فأما قوله

عليهِ السلام ، التراب الوَذمة ، فهو من القلب الذى قَدْ رَقِىَ فى غايتى الفصاحة والبلاغة ، وهذه الاستعارة دالة على أنهُ مبالغ فى قطع الدّابرِ منهم ، واستئصال الشأفة بالتفريق لجموعهم ، والإهانة لقدرهم ، ولله دَرُّ أمير المؤمنين ما أصلَبَ قَنَاتهُ فى الدّين ، وأشدّ غضبهُ فى الله ، وأعظم عداوتهُ لأعدائه

ومن ذلك كتابهُ الى ابن عباس وهو عامله بالبصرة « اعلم أنّ البصرة مَهبطُ إبليسَ ومَغْرِسَ الفِتَنِ فحادِثْ أهلها بالإحسان اليهم ، واحلُلْ عُقْدَةَ الخوف عن قلوبهم . وقد بلغنى تَنمُّرُكَ على بنى تميم وغِلْظَتُكَ عليهمْ ، وإنّ بنى تميم لم يَغِبْ منهم نَجْمٌ إلاّ طلع لهم آخر فالمهبط ، والمغرس استعارتان بليغتان لموضع البِدَع والشرور ومخالفة أمر الله تعالى ، وإثارة الفِتَن ، ومعصية إمام الحق ، وقوله فحادِثْ أهلها بالإحسان اليهم ، استعارة ، وقوله واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم ، استعارة أخرى للأنس لهم وتقرير خواطرهم وقوله وقد بلغنى تنمرك على بنى تميم ، استعارة للوحشة وشراسة الأخلاق وقوله وغلظتك عليهم ، استعارة أيضاً للإعراض وضيق النفس عليهم ، وقوله وإن بنى تميم لم يغب منهم نجم إلاّ طلع لهم

آخر، استعارة لبقاء الرئاسة فيهم ، وأَنهُ لا يزال فيهم من فى حياته نفعٌ للاسلام وعزّ وكهفٌ

وأكثر كلامهِ عليهِ السلام فى أعلا طبقات الفصاحة ، وأسمى مراتب البلاغة ، فأمّا قوله عليهِ السلام عند لقاء عدوهِ « اللّهمّ قد صرّح بمكنون الشنآن ، وجاشت مَرَاجلُ الأضغان » فهاتان استعارتان لشدّة البغضاء وتمكّن العداوة وتأكدها فِي الأفئدة ، فهما على ما اختصا بهِ من النظم والاتساق ، وقصر اللفظ وبلاغة المعانى ، لا يقدّران بقيمةٍ ولا يُوزنان بأنفس الأثمان كما ترى

ومن كلامٍ له عليهِ السلام يخاطب بهِ معاوية ويذكر فيهِ توجّعهُ على بنى هاشم ، فأَرَادَ قومُنا قتلَ نبينا واجتياحَ أصلنا ، وهمّوا بنا الهمومَ ، وفعلوا بنا الأفاعيل ، ومنعونا العَذْبَ ، وأَحلَسُونا الخَوْف ، واُضْطَرُّونا الى جبلٍ وَعْرٍ ، وأوقدوا لنا نارَ الحرب ، فعَزَمَ اللهُ لنا على الذَّبِّ عن حَوْزَتهِ ، والرمْيِ من وراء حُرمتهِ ، مؤمنُنا يَبْغى بذلك الأجر ، وكافرُنا يحامي عن الأصل ، ومنْ أَسلمَ من قريشٍ خِلْوٌ مما نحنُ فيهِ بحِلفٍ يمنعهُ أو عشيرةٍ تقومُ دُونهُ ، فهو مِن القتلِ بمكان

أَمْنٍ ، وكان رسول الله إذا احمرَّ البَأسُ ، وأحجمَ الناس قدَّم أهلَ بيته ، فوقى بهم أصحابه حرَّ السيوف والأسنة

فعلى الناظرِ إعمالُ فكرتهِ الصافية، وشَحذُ عزيمتهِ الماضية، فإذا فعل ذلك وعزَل عن نفسهِ سلطان الحَمِيَّة ، وحمى جانبهُ عن التمسك بأهداب العَصَبِيَّةِ علِم قطعاً لا ريبَ فيهِ ، ويقيناً لا رَدَّ لهُ أنهُ كلامُ مَنْ أحاط بالمعانى مُلْكُهُ ، ونظَمَ عُقودَ البلاغة ولآلئها سِلْكُهُ ، وما قصدتُ بنقل طرَف من كلام أمير المؤمنين إلا لغرضين

(الغرض الأول)

التنبيهُ على عظَم قدْرهِ ، والإعلام بأن أحداً من البلغاء وأهل الفصاحة لا يبلغ وإنْ عَظُم خَطَرُهُ شأوَ كلامهِ ، ولا يستولى على أغْوَارهِ ، ويقصُرعن الإتيان بمثالهِ وما ذاك الاّ لأنهُ قد سبَق وقصّروا ، وتقدّم وتأخّروا

(الغرض الثانى)

الإعلام بأن أهل البلاغة أَلْهَبُ الناس حَشاً ، وأعطشُهم أكْبَاداً ، الى الوقوف على أسرارها ، والإحراز لأَغْوالها ، وأغوارِها ، ومع ذلك تراهم قد أعرضوا عن كلامهِ

صفحاً ، وطووْا عنه كشْحاً ، مع دلوعهم من الكلام عما لا يُدانيهِ ويقصرُ عن بلوغ أقصر معانيهِ ، ولستُ أدرى على م أحمل إعْراضهم عنهُ ، فإن كان جهلاً بأمرهِ ، فقدْرُهم أعلا من أن يجهلوا مثل ذلك ، وهم الغوَّاصُون على جواهر البلاغة . والمتبحِّرون فى علومها ، وإنْ كان استغناءً عنهُ بغيرهِ فهيهات ، هيهات ، أين الغرَب من النَّبْع ، والحصا من العقيان ، وعقُود الياقوتِ من خرَز المرْجان ، وشتّان ما بين ظهور السُّها ونور الفرْقد ، ومتى ظهر نورُ الشمس انسلخ الظلامُ وزال اللبْسُ

(النوع الرابع)

(في الاستعارة الواردة عن البُلغاء واهل الفصاحة)

اعلم أنا نذكر ههنا ما ورد من الاستعارات الفائقة عمَّن يُوصف بالبلاغة ، ونذكر ما يُوازنهُ من كلام أمير المؤمنين ، كرّم الله وجههُ ، ليتحقق الناظر تفاوُت ما بين الكلامين ، وليعرف مصْداق ما ادّعيناهُ فى حقّهِ من أنهُ قد صار أُبناً لبجدتها وأباً لعُذْرتها

فمن ذلك مارُوِى عن الحجّاج عند قدومهِ العراق أنهُ قال : إنّ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نَثَلَ كِنانَتَهُ وعجَمَها عوداً عُوداً ، فرآنى أصلَبَها نجاراً ، وأبْعَدَها نصلاً ،

فقولهُ : نثل كنانتهُ وعجمها عوداً عوداً ، يريد أنهُ عَرَض رجالَهُ واحداً واحداً ، واختبرهم رجلاً رجلاً ، فرآني أشَدَّهُمْ وأمْضاهم ، فهذا من الاستعارات الفائقة ،

ولنذكر من كلام أمير المؤمنين ما هو أرق وألطف في الاستعارة من هذا ، وهذا نحو قوله يخاطب بهِ معُاوية ، فكيف أنت إذا انكشف عنك جلابيبُ ما أَنت فيهِ من دُنيا قد تَبَهَّجَتْ بزينتها ، وخَدعَتْ بلذّتها ، دعتْكَ فأَجبْتها ، وقَادَتْك فاتّبعْتَها ، وأَمرتْك فأطعْتها ، وإِنّهُ يُوشكُ أن يَقفكَ واقفٌ على ما لا يُنْجيك منْهُ مُنْجٍ ، فاقْعَسْ عن هذا الأَمر ، وخُذْ أُهْبة الحَساب ، وشَمّرْ لما قد نزل بك ، فإِنك مُتْرَفٌ قد أخذ الشيطانُ منك مأَخَذهُ ، وبلغ فيك أَملهُ ، وجرى منك مَجْرى الرّوح والدم

فليُمْعِنِ الناظرُ نظرهُ فيما بين الكلامين من التفاوُت في لطيف الاستعارة منهما ، فإِنهُ يجدُ بينهما بوْناً بعيداً ، وغايةً غير مُدركة بالحَصْر

ومن ذلك ما قالهُ بعض الفصحاء في وصف ولدين لرجل كان مغرماً بحبهما قال : وقد هويتُ بذرين على غُصنين ، ولا طاقة لقلبٍ بهوى واحدٍ ، فكيف إذا حمل هوى اثنيْن ،

ومما شَجَانى أنهما يتلوّنان فى أَصْبَاغِ الثّياب ، كما يتلوّنان فى فنون التجَرُّمِ والعتاب ، وكان أَحدُهما قد لَبِس قَبَاءً أحمر ، والآخرُ لبِس قَباءً أسْود ، فقال : واصفاً لهما ، وقد استجدَّا الآن زِيّاً لا مزيد على حسنهما فى حسنهِ ، فهذا يخرج فى ثوب من حُمْرة خدّهِ ، وهذا فى ثوب من سواد جَفْنِهِ

ولنذكر من كلام أمير المؤمنين ما يفُوقُ عليهِ ويزيد فى الاستعارة الرائقة ، والمقاصد الفائقة ، من ذلك قوله فى صفة خِلْقة الطاوُوسِ قال فيهِ: إِذا نشَر جناحَهُ من طيّهِ وسما بهِ مُطلاً على رأسهِ قلْت (١) قِلْعُ دارِىّ عنَجهُ (٢) نُوتيُّهُ ، تخالُ قَصَبَهُ مَدارِى من فضّة وما أُنبت عليهِ من عجيب داراتهِ وشموسهِ خالص العِقْيان وفِلَزّ (٣) الزَّبَرْجَد فإِن شبّهتهُ بما أنْبَتَت الأرض قلت جَنِىّ جُنِى من زهْرة كلّ ربيع ، وإِن شاكلتهُ بالحلِىّ فهو فُصوصٌ ذاتُ ألوان ، قد نُطّقتْ باللُّجين المكلَّل ، وإِنْ ضاهيتْهُ بالملابس قلت مُوشّىً الحلل ، أو مُونق عَصْب اليمن ، وإِذا تصفّحت شعْرةً من شعَرات قصبَه ، أَرتْك حمْرةً ورْدِيّة ، وتارة خضرةً زبرْجديّة ، وأحيانًا صفرةً عسجَديّة

---

(١) قلع . شراع السفينة . والدارى . الملاح (٢) عنجهُ . بفتح النون . جذبهُ فرفعه (٣) الفلز . الجواهر . من الذهب والفضة وغيرهما

فانظر أيها الواقف مقدار مابين الكلامين من التفاوُت فى مَأخذهما فى الاستعارة ، وميِّزْ ما اشتمل عليهِ من الرقّةِ واللطافة والرونق والرّشاقة ، فليس العلم كالحسبان ، ولا يكون الخبر كالعيان

ومن ذلك ما قالهُ بعض الفصحاء فى وصف المطر ، أقْبَلَ عارضٌ مُسفّ ، مُتراكم غيرُ شفّ ، كالقاصد الى الرَّقاق ، والمخْضِل للأَنفاق ، فأَرْخَى الغمامُ عزاليهِ . وانْعنجرَ بصَوْب مافيهِ . فالتقى الماءُ على أمْرٍ قد قُدِر ، وتعقَّدَ منهُ الثَّرى وودّأتْ منهُ العُذَر ، وتهدمت القرى . وقال أمير المؤمنين كرم الله وجههُ عند الاستسقاء ، وانْشرْ علينا رحمتك بالسحاب المنْبَعِق ، والربيع المغْدِق ، والنبات المونق سَحًّا وابلاً ، تُحيي بهِ ما قدْ مات وتردُّ بهِ ما قد فات ، وأَنْزِلْ علينا سماءً مخْضِلةً مدراراً هاطلةً يُدافعُ الودقُ منها الودق ، ويحفزُ القَطْرُ منها القطر ، غيرخُلَّب برقُها ولا جهام عارضُها ، ولا قُزَعٍ رَبابُها ، ولا شفَانٍ ذَهابُها ، تنعشُ بها الضعيف من عبادك ، وتُحيي بها الميّتَ من بلادك ، فهذا معنى واحد قد اتّفقا على وصفهِ فانظر ما بين الوصفين وتأمّلْ مابين الكلامين ، كيف بالغ فأحسن ، واستعارَ فأجاد ، ولنقتصر على هذا القدر ففيهِ

كفاية فى الاعتراف لهُ بالتقدّم والسبق ممن لم يتضمَّخ بوذائل الحسد ، ولا ينبِضْ فيهِ عِرْق العَصبيَّةِ ، حيث خصهُ اللهُ بالخصال الشريفة والفضائل الجمَّه

(النوع الخامس)

الاستعارات الشعرية ، من ذلك ما قالهُ أبو الطيب المتنبى

فما تركن بها خُلْداً لهُ بصرٌ * تحت التراب ولا بازاً لهُ قدم

ولا هزبْراً لهُ من درعهِ لِبَدٌ * ولا مهاةً لها من شبهها حشم

وهذا من بديع الاستعارة وغريبها واستعار الخُلْد لمن كان مختفياً تحت التراب خائفاً ، والبازَ ، استعارهُ لمنْ طار هارباً ، والهزبر ، والمهاة استعارتان للرجال المقاتلة ، وللنساء من السبايا ، وهذه مبالغة فى شدة الوقْعة والهزيمة ، ومن ذلك ما ورد عن بعض الشعراء فى صفة السيف فقال

حملت حمائلهُ القديمة بقْلةً * من عهد عادٍ غضَّةً لم تذْبُل

وقال المتنبى أيضاً

فى الخدّ إنْ عزم الخليطُ رحيلاً

مطرٌ تزيد بهِ الخدودُ مُحُولاً

فالبقلة ، استعارةٌ للسيف ، والمطر جعلهُ استعارة للدمع ، ومن ذلك ما قالهُ الشريف الرضى

إذا أنت أَفنيْت العرانين والذُّرى
رمتك الليالى من يدِ الخاملِ الذّكر
وهبك اتَّقَيت السّهْم من حيثُ يُتَّقى
فمَنْ ليَدٍ ترميك من حيثُ لاتدرى

فالعرانينُ والذّرى ، استعارة لعظماء الناس وأشرافهم ، ومن ذلك ما ورد عن امرىءِ القيس فى صفة الليل الطويل

فقلتُ لهُ لما تمطّى بصلبهِ * وأَردف أعجازاً وناء بكلكل

فلما جعل للّيل وسطاً ممتدّاً ، استعار لهُ اسمِ الصلّب ، وجعله متمطّياً ، استعارةُ لطولهِ ، واستعار الأعجاز لثقلهِ وبِطَائهِ ، واستعار الكلكل ، لمُعْظم الليل ووسطهِ ، أخذاً لهُ من كلكل البعير ، وهو ما يعتمد عليهِ إذا برَك ، فصوّر الليل على صورة البعير ، حيث جعل لهُ صُلباً يتمطّى بهِ أوّلاً ، وثنّى بذكر العجز ، وثلّث بالكلكل حتى يكاد أن يُخيّل أنهُ كصورة البعير ، وهو من بليغ الاستعارة ومحاسنها ومن ذلك ما قالهُ بعضهم

نَبلٌ حبَاها من رُؤُسِ بنَانِهِ
ريشاً ومن حلَلِ المِدَادِ نُصُولا
ففرَتْشوَاكِل كُلّ أمْرٍ مشْكِلٍ
وردَدْنَ كلَّ مُفضَّلٍ مفْضُولاَ
وترى الصحيفَةَ حلْبَةً وجيادَها
أَقلامَهُ وصَرِيرَهنّ صهيلا

فهذا أيضاً من جيّد الاستعارة ومليحها فاستعار اسم النبل للأقلام ، والريش للأنامل ، والنصول ، لسواد المداد واستعار اسم الحلبة للقرطاس ، والجياد للاقلام وجعل الصّرير كالصهيل ، فى الخيل ، وهذا من التوشيح للاستعارة البالغ

ومن ذلك ما قالهُ بعض الشعراءِ

العيشُ نومٌ والمنيةُ يقْظَةٌ
والمَرْءُ بينهما خيالٌ سارِى
فاقضوا مآرِبَكم سراعاً إنما
أعمارُكم سفَرٌ من الأَسْفارِ
وتراكَضُوا خَيْلَ الشبابِ وبادِرُوا
أنْ تُستَرَدّ فإنّهن عوارِى

(١) ومن غريب الاستعارة ما قالهُ بعضهم يرثى ولداً له

وهلال أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ
بَدْراً ولم يُمْهَلْ لوقتِ سَرَارِ

عَجلَ الكسوفُ عليهِ قبلَ أَوانهِ
فمَحَاهُ قبلَ مَظنّةِ الإِبْدار

واُستُلَّ مِنْ أَتْرَابهِ ولدَاته
كالمقْلَةِ اسْتُلَّتْ من الأَشْفَارِ

ولنكتف بهذا القدر فى امثلة الاستعارات ففيهِ غنية

﴿ البحث الثالث ﴾

(فى أقسام الاستعارة)

اعلم أن الاستعارة منقسمة باعتبار ذاتها الى حقيقية ، وخيالية ، وباعتبار لازمها الى مجرّدة ، وموشحة ، وباعتبار حكمها الى حسنة ، وقبيحة ، وباعتبار كيفية استعمالها الى استعارة محسوس لمحسوس ، أو معقول لمعقول ، الى غير ذلك من أنواع التقاسيم ، فهذه تقسيمات أربعة ، نذكر مايتعلق بكل واحد منها وأمثلته بمعونة الله تعالى

---

(١) الصواب حذفه . فان الأبيات كلها لشاعر واحد . وهو أبو الحسن على التهامى

﴿ التقسيم الأول ﴾

(باعتبار ذاتها الى حقيقية وخيالية)

فأما الحقيقية فهى أن تذكر اللفظ المستعار مطلقاً كقولك : رأيت أسداً والضابط لها أن يكون المستعار له أمراً محققاً ، سواءٌ جُرِّد عن حكم المستعار لهُ ، أو لم يُجَرَّد بأن يذكر الاستعارة ثم يأتى بعد ذلك بما يؤكد أمر المستعار لهُ ويوضّح حالهُ ، وهذا مثالهُ قولك : رأيت أسداً على سرير ملكهِ ، وبدراً على فرسٍ أبلَقَ ، وبحراً على بابهِ الوُفَّادُ ، وبحر علم لايحِيفُ فى قضائهِ وحكمهِ ، وبدرَ تمّ يتكلمُ بجميع الحقائق ، فيأتى بهذه الأمور عقيب ذكر الاستعارة من أجل تأكيد أمرها ، وإيضاح حالها لانك إذا قلت رأيت أسداً ، فقد حصل مطلقُ الاستعارة اختصاصهُ بالشجاعة التى هى خاصة الأسد ، فهذه استعارة مطلقةٌ ، ثمّ لما قلت على سرير ملكه ، فصلتهُ عن حكم الآساد ، إذ ليس الجلوس على السرر من شأنها ، وإنما جىء بذلك من أجل تأكيد المستعار لهُ ، وهذه تسمّى مجرّدة ، وهكذا إذا قلت رأيت قمراً على فرس ، وبدر تمٍّ يتكلم ، فقد أثبت له ضوءَ الاقمار وتمامَ البدور ، ثم

فصلتَهُ عما لا يليق بالأقمار والبدور بقولك على فرس ، وبقولك يتكلم ، لأنه ليس الكونُ على الخيل والكلامُ من صفة الأقمار والبدور بحال ، ولكن الغرض هو ما ذكرناهُ من توكيد أمر المستعار له وتوضيح حاله ، ومن النمط العالى فى الاستعارة ما قاله بعض الشعراء

وصاعقةٍ فى كفهِ ينكفى بها

على أرؤُسِ الأعداءِ خمسُ سحائب

فلما استعار الصاعقة لنصل السيف عقبهُ بقولهِ ينكفى بها ، أى يتصل ويلابس رؤس الاعداء خمس سحائب ، أراد بها الأصابع ، إيضاحاً لأمر الصاعقة ، وتبياناً أن ما ذكرهُ من حكم المستعار لهُ ، وجعل قرينتَهُ دالّة على ما أرادهُ من وصف هذا الممدوح ، ومن فائق الاستعارة ورائقها قول بعضهم

ترى الثّيابَ من الكتّان يلمَحُهَا

نورٌ من البدر أحيانًا فيبْليهَا

فكيف تُنكِرُ أنْ تُبْلَى معاجِرُها

والبدرُ فى كلّ وقت طالعٌ فيها

فلمّا استعار ذكر القمر ، عقّبهُ بذكر المعاجر وأنهُ يبليها

بطلوعهِ فيها كلّ وقت ، وذكره من أجل ايضاح أمر المستعار لهُ ، وبيان حقيقتهِ

وأما الاستعارة الخياليَّةُ الوهميَّةُ ، لهى أن تستعير لفظاً دالاً على حقيقة خياليَّة تُقَدِّرُها فى الوهم ، ثم تُرْدِفُها بذكر المستعار لهُ ، إيضاحاً لها وتعريفاً لحالها كما قال بعضهم

وإِذَا المنيـةُ أنشبَتْ أَظْفارَها
أَلْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفَعُ

وقد يجتمع التجريد والتوشيح فى الاستعارة كما قال زهير

لدى أسدٍ شاكى السلاح مُقَذَّفٍ
لهُ لِبَدٌ أظفارُهُ لم تُقَلَّم

فلمّا صوَّرهُ بصورة الأسد جرّد الاستعارة بأن عقبهُ بكونهِ حَديدَ الشوكة فى سلاحهِ ، تقريراً لحال الاستعارة ، وتوكيداً لأمرها ، ثم وشّحها بقولهِ : « لهُ لِبَدٌ أظفاره لم تقلم » وكما لو قال فى هذا « رأيت أسداً دامىَ الأَنْياب وافرَ البرائن » لكان من باب الاستعارة الموشحة ، ومن الخياليّة قولهم « فلان أنشبت المنيةُ فيهِ مَخَالِبَها » كان تخييلاً للاستعارة ، لأنهُ لما شبَّه المنية بالسبع فى عُدْوانها وتَضْرِيَتِها على الإِنسان ، جعل لها مَخَالِب ، ليزداد أمرُ التخييل ويكثر ، ومن الاستعارة

التخييلية ، الآياتُ الدالّة على التشبيهِ كقولهِ تعالى « بل يداهُ مبسوطتانِ ينفقُ كيفَ يشاءُ » وقوله تعالى « خلقْتُ بيديَّ » وقوله تعالى « ويبقَى وجهُ ربّك » ومن أجل ذلك زلّ كثيرٌ من الفِرَق فى اعتقادها جوازَ الاعضاء على اللهِ تعالى وحلول المكان ، والجهة ، وغير ذلك من الظواهر النقليّة التى يشعرُ ظواهرها بذلك ، فإنهم لما لم يفهموا هذه الاستعارة وجَهلُوا حالها ، وقعوا فى أوْدية التهْويس من اعتقاد التشبيهِ وتوهمُّ كل ضلالة فى ذاتهِ تعالى ، فمن ههنا كان السبب فى ضلال المشبّهة ، فأما المنزّهةُ فلهم فيها تأويلاتٌ ركيكةٌ بعيدة ، والذى حملهم على ذلك تقرير القواعد العقلية ، فلا جرَمَ اغتفرُوا بُعْدها حذراً من المناقضة للقضايا فى البراهين ، ولو تفطنوا لهذه الاستعارة لكانوا فى غنية عن أكثر هذه التأويلات الركيكة ، فأما التفرقة بين الاستعارة الحقيقية والاستعارة الخيالية ، فسنذكرها فى أحكام الاستعارة بعونة الله تعالى

وقد يجتمع التحقيق والتخييل فى الاستعارة كما فى بيت زهير

صَحَا القلبُ عن سلْمَى وأَقْصرَ بَاطِلُهْ
وعُرّىَ أَفْراسُ الصِبَا ورَوَاحِلُهْ

فيمكن جعلهُ من باب التخييل ، وتقريرُهُ هو أنهُ لما تحقق من حالهِ أنهُ أمسك عما كان عليهِ فى عُنفُوَانِ الشباب وغَضَارَتهِ من سلوك جانب الغَىّ وركوب مراكب الهوى ، استعار لهُ قوله « عُرّى أفراس الصبا ورواحله » على جهة التخييل وطريقهِ ، كأنهُ شبّه الصبا فى حال قوّة دواعيهِ ومَيَلانهِ الى اللهو والطّرب ، بالإِنسان الذى يقدِر على تصريفك على ما تريد ، ثم بالغ فى الاستعارة حتى صوّرهُ بصورة الإِنسان واختراع ما لهُ من الآلات والأدوات ، وأطلَق اسمها عليهِ تحقيقاً لحال الاستعارة المتخيَّلة ، ويمكن جعلهُ من باب التحقيق ، وتقريرُهُ أنهُ استعار الأفراس والرواحل لِمَا يحصل من دواعى النفوس والقُوى الإِنسانية عند الصبا وميل القلوب الى الهوى فلهذا قال : عرّى عن هذه الأشياء بعد مفارقة الصبا . وممّا يُمكن تنزيلهُ على هذين الوجهين فى الخيال ، والتحقيق ، قوله تعالى « واخفضْ لهما جَنَاح الذّل من الرَّحمة » فاذا جعلتهُ من باب التخييل ، فتقريرُهُ هو أن الله تعالى أمر الولد بأن يلينَ لهما جانبهُ ، ويتواضعَ لهما ، فاستعار لفظ الجناح ، مُنبِّهاً بهِ على التخييل فى الاستعارة بطريق المبالغة فى طلب أن يكون الولد لأبويهِ ، كالطائر لفرخهِ فى فرط

حُنُوّهِ عليهِ وتعطفهِ على محبّتهِ ، فجعل الذّل طائراً على طريق الاستعارة ، ثم أخذ الوَهْمُ فى تصوير ما للمستعار من الآلات والجوارح ، ثم أضاف اسم الجناح الى الذلّ ، رعايةً لمزيد البيان ، وإفْراطاً فى تحصيل البلاغة . واذا جعلتهُ من باب التحقيق فتقريرُهُ أنهُ لما أراد المبالغة فى لِينِ الجانب للأبوين من جهة الولد ، استعار لفظ الجناح للتذلل والتواضع ، ونزّلهُ منزلة الجناح فى التصاقهِ بالتراب وإسبالهِ فى التغطية للفرخ ، مبالغة فى لِينِ العريكةِ ، وحُسْنِ التذلل للوالدين ،

ومن ألطف ما نوجّههُ على هذين التوجيهين قوله تعالى « فأذاقها اللهُ لباس الجوع والخوف » والظاهرُ من هذه الاستعارة هو التخييل ، لأن الله تعالى لمّا ابتلاهم لكفرهم باتصال هاتين البليّتين ، ولمّا استعار اللباس ههنا مبالغةً فى الاشتمال عليهم أخذ الوهمُ فى تصوير ما للمستعار منهُ من التغطية والستر والاسترسال ، رعاية لمزيد البيان فى ذلك ، وإنْ جعلتهُ من باب التحقيق للاستعارة ، فتقريرُهُ هو أنّ ما يُرى على الإنسان عند شدة الخوف والجوع من الضعف والهزال ، وانتِقاع اللون ، وعلوّ الصفرة ، ورثاثة الهيئة ،

ورِكَّة الحال ، وحصول القلق والفشل ، يُضاهى الملابس فى اُختلاف أحوالها وألوانها

✱ القسم الثانى

(باعتبار اللازم لها الى مجردة وموشحة)

إِذا استُعير لفظٌ لمعنى آخر ، فليس يخلو الحال ، إِما أن يُذكرمعهُ لازمُ المستعار لهُ ، أو يذكر لازم المستعار نفسهُ ، فإِن كان الأول فهو التجريد ، وإِن كان الثانى فهو التوشيح ، فأما الاستعارةُ المجرّدةُ فإِنما لقِّبَتْ بهذا اللّقب ، لأنك إِذا قلت : « رأَيت أسداً يجدّلُ الأَبْطال بنَصْلِهِ ، ويشُكُّ الفُرْسان برُمحِهِ » فقد جرّدت قولك : أسداً ، عن لوازم الآساد وخصائصها ، إِذ ليس من شأنها تجديل الأبطال ولا شكّ الفرسان بالرماح والنصال ، ومن التجريد قوله تعالى « فأذاقها الله لباس الجوع » ولو قال : كساها اللهُ لباس الجوع والخوف ، لكان توشيحاً فبالغ فى شدّة ما أصابهم بقولهِ « فأذاقها » لأن الذّوق أبلغ فى الإِحساس وأدخلُ فى الايلام ، من قوله كساها

لا يُقال فأُراهُ لما قال « اذاقها » فلم لم يقُلْ طَعْمَ الجُوع

والخوف، ليلائم قوله « فاذاقها » ولِمَ قال لباس الجوع وبين اللباس والطعام تنافر، لأنا نقول إن الطعم وإنْ كان ملائماً للإذاقة، لكنَّهُ لو ذكرهُ لما كان مقوّياً لبيان اشتمال الجوع والخوف لهم، وعموم أثرهما على جميع البدن، كما تَعُمّ الملابس وتغطى جميع البدن، فلا جَرَمَ حصل من لفظ الإذاقة المبالغة فى إدراك ألم الجوع والخوف بالإدراك بآلة الذوق، وحصل من لفظ اللباس المبالغة فى العموم والاشتمال، فلأجل هذا كان الأولى ذكر اللباس ليحصل المعنيان جميعاً، فأما الاستعارةُ الموشحة، فإنما سميت بهذا الاسم، لانك اذا قلت « رأيت أسداً وافرَ الأظفار مُنْكَرَ الزَّئير دَامِىَ الأَنياب » فقد ذكرت لازم اللفظ المستعار وذكرت خصائصهُ فوشحت هذه الاستعارة، وزيَّنتها بما ذكرتهُ من لوازمها وأحكامها الخاصة، أخْذاً لها من التوشيح، وهو ترصيع الجلد بالجواهر واللآلى تحملهُ المرأةُ من عاتقها الى كشحها، وهذا هو الوشاحُ، واشتقاقُ التوشيح للاستعارة منهُ، ومثالها قوله تعالى « اشتَرَوُا الضلالة بالهدى » ثم قال على إِثْره « فما ربحَتْ تجارتُهم » فلما استعار لفظ الشراء عقبهُ بذكر لازمِهِ وحكمِهِ، وهو الربح توشيحاً للاستعارة، ولو قال فهلكوا

أو عمُوا وصمّوا عِوَضَ قولهُ « فما ربحت » لكان تجريداً ، ولم يكن توشيحاً ، ولو قال تعالى فكساها اللهُ لباس الجوع ، لكان توشيحاً ، أو قال فاذاقها الله طعم الجوع والخوف لكان توشيحاً أيضاً ، ومن التوشيح قول كُثيّر عَزَّةَ

« رمَتْنى بسَهْمٍ رِيشُهُ الكحلُ لم يَضرِ »

ومن قولهِ

تَقْرِى الرياحُ رياضَ الحَزْنِ مُزْهِرَةً
إِذا سرى النومُ فى الأجفان أيْقاظا .

فذكْرُ السهم مع الريش ، والرياض مع الأزهار ، يكون توشيحاً

ومن مليح الاستعارة المجرّدة ما قالهُ أمير المؤمنين كرّم اللهُ وجههُ ، فى حقّ اللهِ تعالى « فلوْ وهَبَ ما ضحِكَتْ عنهُ أصْدافُ البحار من سبائك العقْيان وفِلزّ اللُّجيْن » ومن الاستعارة الموشحة قوله عليهِ السلام « قَذَفَتْ إِليهِ السموات والأرضون مقاليدها ، وانْقادت لهُ الدنيا والآخرةُ بأَزمَّتها » فلما ذكر الانقياد عقبهُ بما يلائمهُ من الزمام توشيحاً لها

﴿ القسم الثالث ﴾

(باعتبار حكمها الى حسنة وقبيحة)

اعلم ان الاستعارة إنما يظهر حسنها إذا عَرِيَتْ عن أداة التشبيهِ ، وكلما ازداد التشبيهُ خفاءً ازدادت حسناً ورشاقة ، وكانت متضمنة للبلاغة مع الإيجاز ، وجودة النظم وحسن السياق ، والقبيح منها ما خالف ما ذكرناهُ من هذه الاعتبارات

فأما الاستعارة الرائقة فكقولهِ تعالى « ولا تَمُدَّنَّ عينَيْك إلى ما متَّعنا بهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زهْرة الحياةِ الدُّنيا » فانظر الى استعارة مدّ العين لإحراز محاسن الدنيا والشَّغف بحبّها ، والتهالك فى جمع حُطامها ، والشُّحّ بما ظفر بهِ منها وبين المدّ للعيْن ، وهذه الاشياء ، من الملائمة ، والتناسب ما لا يخفى على أهل الكياسة، وهكذا قوله تعالى « زهْرة الحياةِ الدُّنيا » فاستعار الزهرة لما يظهر من زينة الدنيا ورونقها ، وإدراك لذاتها كالزهر اذا تفتح وأعجبتْ غضارتهُ وحُسْن بهجتهِ ، ومن أعظمها إعجاباً قوله صلى الله عليهِ فى وصف القرآن « مَنْ جعلهُ أَمامَهُ قادهُ إلى الجنة ، ومَنْ جعلهُ خلفهُ

ساقهُ الى النار » فاستعار الأمام، والخلف، للعمل بأحكامهِ والإعراض عنها، ثم جعل الانقياد الى الأمور المحبوبة وصيّر السّوق الى الأمور المكروهة، ومما يشير الى هذا المعنى قول أمير المؤمنين « تخففوا تلحقوا » وقوله « فإنّ السُّبْقَة الجنّة، وإنّ الغاية النار » فقوله تخففوا تلحقوا، من الكلام الذى لا تنال لهُ غاية، ولا يدرك لهُ حدٌّ ولا نهاية، ثم إنهُ جعل السبقة، لما يُراد ويحَبّ، وجعل الغاية لما يكره ويُعرض عنهُ. ومن جيّدها قوله

ولما قضينا مِن منى كلَّ حاجةٍ
ومسَّح بالأَركان من هو ماسحُ
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا
وسالتْ بأعناق المطيّ الأَباطحُ

والغرضُ بهذا هو أن الإبل سارت سيراً شديداً فى سرعة مع اختصاصهِ بلين وسلاسةٍ، حتى كأنها سيولٌ وقعت فى الأباطح فجرت —

ومن غريبها ماقالهُ بعض الشعراء

قومٌ إذا لبِسوا الدُّروع حسبتَها
سحباً مُزرَّرَةً على أقمار

لو أَشرعُوا أَيمانهُمْ من طُولها
طعنُوا بها عوض القنا الخطَّار
ودحوْا فُويق الأرض أَرضاً من دمٍ
ثمَّ انثنوْا فبنوْا سماءَ غبار

فهذا وما شاكلهُ من أحسن الاستعارات وأرقّها ، وقال بعضهم يرثى ولداً لهُ

إِنْ تُحْتقر صغراً فرُبَّ مفخَّمٍ
يبدُو ضئيل الشخص للنُّظار
إِنّ الكواكب فى علو مكانها
لتُرى صغاراً وهى غيرُ صغار

فهكذا يكون حال الاستعارة الحسنة فأما الاستعارة القبيحة ، فهى كلُّ ما كان لا مناسبة بينها وبين المستعار لهُ فيقبح لأجل ذلك ، وهذا كقول أبى نُواس

نَحَّ صوْتُ المالِ مِمَّا مِنْكَ يشكو ويصيحْ

فهذا وأمثالهُ من الاستعارة الركيكة النازلة القدر فى البلاغة ، ومرادُه من هذا هو أن المال يتظلم من إِهانتهِ لهُ

بالتمزيق بالاعطا فالمعنى جيّدٌ ، والعبارة قبيحةٌ لاتلوح فيها مخايلُ البلاغة بحال . ومنهُ قولهُ أيضاً

ما لرجْل المال أضحَتْ * تشتكى منها الـكلالا

فهذا أيضاً أركُّ من الأول وأنزل قدراً وأسخف . وما أعجب ما قالهُ مسلم بن الوليد فى هذا المعنى

تظلَّمَ المالُ والاعداءُ من يدهِ

لازال للمال والاعداءِ ظلاَّما

فالمقصودُ من هذا لهُ ولأبى نواس واحد ، ولـكنهُ فاق عليهِ بجَوْدة الانتظام وحسن السبك ، فكان بليغاً فصيحاً . ومن ضعيف الاستعارة قول ابى تمام

بلَوْناك أمّا كعبُ عرْضك فى العلى

فعَالٍ وأما خَدُّ مالك أسفلُ

فمرادُه من هذا أن عرضك مصونٌ ومالك مبتذلٌ ، لـكنهُ أخرجهُ أقبح مُخرج ، وساقهُ سياقاً مستكرها ، فانظر الى قولهِ كعبِ عرضك ، وخدّ مالك ، ما أبعدهُ عن طرق البلاغة وأسخَفَ قدرهُ فيها. ومما نزل قدرُهُ قول بعضهم

(أيا مَن رَمى قلبِي بسهم فأَوجَا)

فقوله فأوجا من الاستعارات النازلة وهكذا لو قال

فأدْخلاَ ، ولو قال بدله فأقْصَدَا أو فأَنْفَذَا ، لكان لهُ موقع حسن فى الاستعارة فهذه الأمور « إِذَنْ » تعرف بالذهن الصّافى ، ويحكم فيها الذوقُ المعتدل . وفى ماذكرناهُ كفاية فى التنبيهِ على ما أردنا من ذلك على غيرهِ

﴿ التقسيم الرابع ﴾

(باعتبار كيفية الاستعمال للاستعارات)

اعلم ان الاستعارة تجرى فى استعمالها على أوجه أربعة نذكرها

(الوجه الاول)

استعارة المحسوس للمحسوس وهذا كقوله تعالى « كأنهنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ » شبه الحور العين بالمرجان والياقوت فى شدة الحمرة والرّقة وهكذا قوله تعالى « كأنهنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ » شبههن بالبيض فى بياضهِ ورقتهِ ولطافتهِ ، فهذه استعارة مقدّرة بتقدير طرح أداة التشبيهِ فتكون استعارة محققة ، كما أن كل ما كان من الاستعارة يُطوى فيهِ ذكرُ المشبهِ فهو من التشبيهِ المقدّر كقولك : رأيت اسداً ، ولقِيَنِي أسدٌ ، كما مرّ بيانهُ . ومثال الاستعارة المحققة فى

obeikandi.com

المحسوسين قوله تعالى « واشْتعَلَ الرأسُ شَيْبًا » فالمستعار النار، والمستعار له هو الشيب ، بواسطة الانبساط ومنهُ قوله تعالى « وتَرَكْنَا بعضَهمْ يَومئذٍ يمُوجُ فى بعضٍ » فالموجانُ ، حركة الماء فى الأصل ، فاستُعير للقلق والفشل والاضطراب فى الأمر . ومن هذا قوله تعالى «إِذْ أَرْسلنا عليهمُ الرّيحَ العقيمَ» فالمستعار منهُ المرأة التي لا تلد ولداً ، والمستعار لهُ الريحُ ، لأنها لا تُصلح شيئاً ولا ينمُو بها نباتٌ . وقوله تعالى « نسلَخُ منهُ النهار » فالمستعارُ لهُ خروج النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منهُ ظهور المسلوخ من جلدتهِ ، فلمّا كانَ النهارُ من شدة الاتصال بالليل كاتصال الجلد بالمسلوخ منهُ ، لا جرم حسُنت الاستعارة ، وهو بابٌ واسعٌ فى كتاب الله تعالى والسّنة الشريفة

(الوجه الثانى)

استعارة المعقول للمعقول وهذا كقوله تعالى « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » فاستعار الرُّقاد للموت ، وكلاهما أمرٌ معقولٌ . وقوله تعالى « ولما سَكَتَ عن موسَى الغضبُ » فالسكوتُ عبارةٌ عن زوال الغضب وارتفاعهِ : وهما أمران عقليان . ومنهُ قوله تعالى « وقَدِمنَا الى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ » استعير من قدوم

المسافر بعد مدة والمستعار له ، هو الجزاء بعد الامهال . وقوله تعالى « تَكادُ تَمَيَّزُ من الغَيظِ » فالغيظُ أمر معقول مستعار للحالة المتوهمة للنار . أجارَنا اللهُ منها . لإرادة الانتقام بلسان الحال من العصاة

(الوجهُ الثالث)

استعارة المحسوس للمعقول وهـذا كقوله تعالى « بلْ نقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدْمغُهُ » فالقذفُ ، والدمغُ ، أمران معقولان مستعاران من صفات الأجسام ، والمستعارُ لهُ الحق ، والباطل ، والجامعُ هو الإعدامُ والإذهاب ومنـهُ قولهُ تعالى « وزُلْزِلُوا » فأصلُ الزلزلة التحريك بالعُنف والشدّة ، ثم يستعار لشدة ما نالهم من العذاب . ومنهُ قوله تعالى « فاصْدعْ بما تُؤْمرُ » الأصل في الصـدع هو الانشقاق للقارُورة وغيرها . ومنهُ قوله تعالى « فنبذُوهُ وراءَ ظُهُورهم » فالنبذ فى الأصل يستعمل فى إلقاء الشىء عن اليـد ، ثم استعير فى الأمر المعقول عنهُ المتناسَى حالُه ، والجامعُ بينهما اشتراكهما فى الزوال عن التحفظ والإيقاظ

(الوجهُ الرابع)

استعارة المعقول للمحسوس وهذا كقوله تعالى « إِنا لما طغى الماءُ » المستعارُ منهُ التكبُّرُ والعلوّ ، والمستعارُ لهُ هو ظهور الماءِ ، والجامعُ بينهما خروجُ الحد فى الاستعلاءِ المضر ، ومنهُ قولهُ تعالى « بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ » فالعُتُوُّ مستعار من التكبُّر والشموخ ، والمستعار لهُ هو الريحُ ، والجامعُ بينهما هو الإضرارُ البالغ . ومنهُ قوله تعالى « تكاد تميَّزُ من الغيظ » فالتميُّزُ من الغيظ استعارة ، استعيُر للنار والجامعُ بينهما شدّة التلهّب والاضطراب كما قال تعالى « سمِعُوا لها تغيُّظاً وزَفيراً » ومنهُ قوله تعالى « حتى تضعَ الحربُ أوْزَارَها » فالوضعُ والوزْرُ ، معنيان معقولان ، استعيرا للحرب وهى محسوسة

﴿ تنبيه ﴾

اعلم أن فى الاستعارة ما يكون معدوداً فى التهكم ، وحاصل الاستعارة التهكميّة ، أن تستعمل الألفاظ الدالة على المدح فى نقائضها من الذم والاهانة تهكماً بالمخاطب ، وإنزالاً لقدرهِ ، وحطّاً منهُ وهذا كقوله تعالى « إِنك لأَنْتَ الحليمُ الرشيدُ » مكان نقضيهما من السفيهِ الغوىّ وقوله تعالى

« فبشّرْهُمْ بعذابٍ اليم » بدل قوله أنْذِرهُمْ ، لأن البشارة إنما تستعمل فى الأمور المحمودة ، والمراد ههنا العذاب والويل ومنهُ قوله تعالى « فاهْدُوهُمْ الى صراطِ الجحيم » والتهكمُ فى اللغة عبارة عن شدّة الغضب على المتهكم بهِ ، لما فيهِ من إسقاط أَمرهِ وحط منزلتهِ وحالهِ . واشتقاقه من ، تهكّمَت البئرُ ، اذا سقَطَ طيُّها . وهو كثير التّدْوَارِ فى كتاب الله تعالى خاصة عند عروض ذكر الكفار وأهل الشرك والنفاق كقوله تعالى « فلما آسَفُونَا انتقمنَا منهمْ » وغير ذلك من الآيات الوعيدية ، والخطابات الزجرية الدالة على مزيد الغضب وبالغ الانتقام . اللهم أجرنا من التعرض لسخطك ، وعظيم غضبك ، ياخير مُسْتجَارٍ بهِ ، وأكرمَ من يُلاَذُ برحمتهِ

﴿ البحث الرابع ﴾

(فى أحكام الاستعارة)

اعلم أنا قد ذكرنا ما يتعلق بحقائق الاستعارة ، والذى بقى علينا هو ذكر أحكامها الخاصة غير ما أسلْفناهُ من قبلُ ، وجملتها سبعة

(الحكم الاول)

هل المستعار هو اللفظ ، أو المعنى ، زعم زاعمون أن المستعار هو اللفظ ، والذى عليهِ أهل التحقيق أن الاستعارة إنما تكون متعلقة بالمعنى ، وهذا هو المختار ، ويدلُّ على ذلك أوجه ثلاثة ، أما أولها فلأن الإجماع منعقدٌ من جهة علماء الادب وأرباب هذه الصناعة على أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة وأن قولنا : زيد أسد ، فى المبالغة فى وصف الشجاعة أعظم من قولنا : زيد يشبهُ الاسد ، فى شجاعتهِ ، فلو لم تكن هناك استعارة لفظ الاسد ونقله ، لم تكن هناك مبالغة لأنهُ لا مبالغة فى نقل العبارة خالية من معناها وعَرِيّةً عنهُ ، وأمّا ثانياً فلأن القائل اذا قال : رأيت أسداً ، ولقينى أسدٌ ، فالسابق من هذا الكلام هو أنهُ صوّرهُ بحقيقة الأسد مبالغة فى شجاعتهِ ، وزيادة فى جراءتهِ ، وليس ذلك إلا لأجل ما كان من المقصود من إثبات حقيقة الشجاعة ومعقولها ، ولو كان ذلك من أجل استعارة اللفظ لم يكن هذا الإطلاق ، لأنهُ لا يقال لمَن سمّى انساناً باسم الاسد ، أنهُ صيرهُ أسداً ، وجعلهُ بحقيقة الآساد ، وأما ثالثاً فلقوله تعالى « وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن

إناثاً » فظاهر الآية مشعر بأنهم أثبتوا للملائكة صفة الأنوثة ، فلأجل هذا الاعتقاد سمّوهم باسم الإناث ، وليس الغرضُ إطلاقَ اسم البنات عليهم من غير اعتقاد معنى الأنوثة ، ولهذا قال تعالى « أَشَهِدُوا خلْقَهم » فلو لم يعتقدوا الأنوثة لكان لا وجه للمبالغة فى التنكير عليهم فى ذلك ، وظهر بما لخصناهُ أن المبالغة فى الاستعارة بإثبات المعنى أولاً ثم يتلوهُ اللفظ فى الاستعارة كما حققناهُ

(الحكم الثانى)

(فى المجاز بالاستعارة هل يكون عقلياً أو لغوياً)

أعلم أن المجاز فى الاستعارة يردُ على نوعين ، النوع الأول منها مركبٌ وهذا كقولنا أحيانى اكتحالى بطلعتك ، وقوله

أشاب الصغير وأفنى الكبير * كَرُّ الغداة ومرُّ العشىّ

فإسنادُ الإشابة والإفنا الى الكرّ والمرّ إنما كان على جهة التجوز بالاستعارة ، والحقيقةُ فيهِ هو الإضافة الى الله تعالى لأنهُ فى الحقيقة هو الفاعل لذلك فإسنادُهُ الى قدرة الله تعالى هو حكمٌ ذاتىٌ ، لا من جهة وضع واضع ، فاذا أسندناهُ الى غيرهِ ، فقد نقلناهُ عما كان مستحقاً لهُ لذاتهِ فى الأصل ، وعلى

هذا يكون التصرّف عقليّا ، فهذا هو مراد علماء البيان بكون المجاز المركب عقلياً ، فما هذا حالُه من الاستعارة لا يختلفون فى تسميتهِ مجازاً عقلياً على التقرير الذى لخصناهُ ، هذا تقرير كلام النّظّار من أهل هذه الصناعة ، والمختارُ أن المجاز لا مدْخل لهُ فى الأحكام العقلية، ولا وجه لتسمية المجاز بكونهِ عقلياً ، لأن ما هذا حالهُ إنما يتعلق بالأوضاع اللغوية دون الأحكام العقلية ، وإذا كان الأمر كما حققناهُ من تعذّر المجاز فى العقل فنقول : إن صيغة « أشاب وأفنى » موضوعتان للإسناد الى الفاعل المختار القادر ، فإذا وجدناهما على الإسناد الى غيرهِ نحو « كرّ الغداة ومرّ العشىّ » عرفنا بذلك أنهما قد استُعملا فى غير موضوعهما الأصلىّ اللغوىّ ،وعلى هذا التقرير يكون المجاز المركب لغويّا حيث وقع من غير حاجة الى كونهِ عقلياً

(النوع الثانى) مفرد وهذا كقولنا : لقيت أسداً ، فى أسد ، فما هذا حالهُ من الاستعارات قد وقع فيهِ تردّدَ فيهِ نظرُ الشيخ عبد القاهر الجُرجانىّ ، ولهُ فيهِ

(أول) نَصرهُ فى أسرار البلاغة ، وهو أن

ما هذا حالهُ من المجاز يكون مجازاً لغويّا ، وحجّتهُ على ذلك هو أنا إذا أجرينا اسم الأسد ، على الرجل الشجاع فإنما نجريه بطريق التأويل ، فلأجل هذا كان ما ذكرناهُ استعمالاً للأسد في غير موضوعهِ ، ويؤيد ما ذكرناهُ ويزيدهُ وضوحاً هو أنا إذا أطلقنا على الرجل اسم الأسد فإنما كان ذلك الإطلاقُ من أجل اختصاصهِ بالشجاعة ، ولا ندّعى للرجل صورةَ الأسد وشكلَهُ وهيئتَهُ وتأليفَهُ ، واسمُ الأسد ليس موضوعاً على معنى الشجاعة وحدَها ، بل هو موضوعٌ على تمام هذه الهيئة وكمالها ، فإذا أجرينا عليهِ اسم الأسد تبعاً لثُبوت صفة الشجاعة ، فقد سلبنا عن الصيغة بعض ما كان مُندرجاً تحتها في أصل وضعها من الشكل والهيئة وتَدْوِير الوجه ، وَعرْض المَقادِم ، ودقّة المآخير فيكون نقلاً لها عمّا وضعت لهُ في الأصل .

(الاختيارُ الثانى) نصرَهُ في دلائل الاعجاز ، وتقريرُ كلامهِ : أنهُ قد كثر كلام الناس في أن الاستعارة لفظةٌ منقولةٌ عن موضوعها الأصلىّ ، وهو خطأ ، وبيانه أنك لا تطلق لفظ الأسد على الرجل إلاّ بَعْدَ أن تعتقد أنهُ بصفة الأسد وشكلهِ وهيئتهِ ، وتتصوّرهُ بجميع صفاتهِ ،

فلمّا كان الأمرُ كما قلناهُ فأنْتَ لم تنقُلْ لفظةَ الأسد عمّاً كانت موضوعة لهُ فى الأصل . لأنك إنما تكون ناقلاً لها إذا لم تقصد معناها الأصليّ ، فأمّا إذا كنت قاصداً لهُ فلا وجه لكونها منقولةً ، فلأجل هذا قضينا بكون هذا المجاز عقلياً ، فهذا تقرير كلامهِ ههنا ، والى كون هذا المجاز عقليًّا ذهب ابن الخطيب الرازى ، واختار ماقررهُ عبد القاهر فى دلائل الإعجاز ، والمختارُ عندنا ما نصرهُ فى أسرار البلاغة من كونهِ لغويًّا ، ومُعتمَدُنا فى ذلك أمران ، أحدُهما أن القائل اذا قال لقينى الأسد ، وجاءَنى أسد ، فالسابقُ الى الفهم من هذا هوأنهُ جاءَهُ رجلٌ بالغٌ فى الشجاعة كلَّ مبلَغ ليس فوقها رتبة لأنهُ شاكلَ الأسدَ فى شجاعتهِ لا غيرُ ، وليس الغرضُ حصولهُ على هيئة الأسد ، فى تدْوير الهامة ، وحدّة الأنياب ، وطُول البراثن ، الى غيرِ ذلك من الصفات ، وإنما الغرضُ إحرازُ وصف الشجاعة دون غيرهِ من الصفات

وثانيهما أنهُ لو كان الغرضُ من إطلاق لفظ الأسد أنهُ لا بدّ من إحراز جميع أوصافهِ ومعانيهِ ، لكان إذا جرّدنا الاستعارة فقلنا جاءَنى أسدٌ يضحك ، ورأيت أسداً لهُ عقلٌ وافرٌ ، وبحراً قد برَّز على الأقران فى فضلهِ ، أن

يكون مناقضاً ، لأن قولنا يضحك ، وله عقل وافر ، وفضل باهرٌ ، ينافى هذه الاستعارات ، لأن الأسد لا يوصف بالضحك ولا بالعقل ولا يوصف البحر بالفضل ، وفى هذا دلالةٌ على أن المجاز يجب كونهُ لغويا بالاستعارة ، كما أشرنا اليهِ

﴿ إِشارة ﴾

اعلم أن هذه الاستعارة فى المفرد والمركب كما ذكرناهُ ، فأمّا الخلافُ فى كونها مجازاً ، هل يكون عقليّا ، أو لغويّا فالأمرُ فيهِ قريبٌ ، وليس وراء النزاع كبيرُ فائدة ، فإِذا فُهم المرادُ من كونهِ لغويّا أو عقليّا ، فلا عليك فى إِطلاق العبارة بعد إِحراز المعانى والوقوف على حقائقها

(الحكم الثالث)

(فى بيان محل الاستعارة ومكانها)

اُعلم أن أعظمَ ما تدخل فيهِ الاستعارة هو أسماء الأجناس ، وهذا كقوله تعالى « واخفضْ لهما جَناح الذّلّ من الرحمة » وقوله تعالى « وتركهم فى ظلُماتٍ لا يُبصرون صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُمْ لا يَرْجعون » وقوله تعالى « وجَعلنا من بيْن أيديهم سَدًّا ومِنْ خَلْفِهمْ سَدًّا ، وجعلْنا على قلوبهمْ أَكِنَّةً أنْ

يفقهوهُ » فأما أسماءُ الأعلام فقد قرّرنا فيما سبق استحالةَ دخول المجاز فيها فضلاً عن الاستعارة ، فلا وجه لتكريرهِ ، وقد تدخل الاستعارة فى أسماءِ الإشارة كقوله تعالى « هذا وإنّ للطاغينَ لَشرَّ مآبٍ » فقوله « هذا » استعارةٌ لأنهُ إنما يستعمل حقيقةً فيما كان قريباً مشاراً اليهِ ، فالمجازُ فى الإشارة داخلٌ ههنا فيما يَعْرِض من أحوالهِ فى القُرْب والبُعْد ، فلا يكون مناقضاً لما أسلفناهُ من أن أسماءَ الإشارة لا يدخلها المجاز ، فانما تعذر المجاز فيها من حيث الإطلاق ، وقد تدخل الاستعارة فى الأفعال . كقولك : نَطَقَت الحالُ بكذا ، لأن الحال غير ناطقة ، وإنما يكون النطق حقيقةً من الإنسان وغيرهِ ، فهذه الاستعارة فى الأفعال من جهة فاعلها ، وقد تحصلُ الاستعارة فيها من جهة مفعولاتها كما يقال: فلانٌ أظهرَ العلومَ بعدَ خفائها ، ورَفَعَ المجدَ بعدَ انخفاضهِ ، قال ابن المعتز

جُمِعَ الخَلْقُ لنا فى إمامٍ
قَتَلَ البُخْلَ وأحْيي السَّماحا

وكقول الحريرى

وأَقْرِ المسامعَ إما نطقتَ * بياناً يقود الحرونَ الشَّمُوسا

(الحكم الرابع)

(فى بيان موقع الاستعارة)

أعلم أنهم ربما بالغوا فى الاستعارة حتى ينزّلوها منزلة الحقيقة ، وبيان ذلك أنهم قد يستعيرون الوصف للشىء المعقول ويجعلون تأتّيهُ لذلك الشىء على جهة الحقيقة وكأنّ خلافها محال وكأن الاستعارة غير موجودة ، وينكرون خلاف ذلك ويتعجّبون منهُ ، وهذا كقول أبى تمام

ويصْعَدُ حتى يظُن الجهُولُ
بأنّ لهُ حاجةً فى السماءِ

فقرّر صعودَهُ فى الخصال العالية ، والمراتب الشريفة ، على وجهٍ لا يمكن جحْدُهُ ولا يسوغ إنكارُهُ ، وأحسن من هذا وأوضحُ لما نحن فيهِ قولُ بعض الشعراء

ومن عجبٍ أن الصوارمَ والقَنا
تحيضُ بأيدى القوم وهىَ ذكورُ
وأعجبُ من ذا أنها فى أكُفّهِمْ
تأجّجُ ناراً والأكُفُّ بُحُورُ

فلولا أن هذه الاستعارة قد نزّلت منزلة الحقائق لما

كان للتعجّب وجهٌ ، ومن هذا ما قالهُ بعض الادباء

لا تعجبوا من بِلَى غِلالَتِهِ
قد زرّ أزرارَهُ على القمر

فالقمرُ من طبعهِ إبلاءُ الأثواب وتقطيعُها فمعناهُ لا تعجبوا من تقطيع الغلالة فانها مشتملة على القمر ، فانظر الى تحقيقهِ للاستعارة وتقريرها ، ومن هذا قوله

قامت تظلّلنى من الشمس * نفسٌ أعزُّ علىّ من نفسى
قامت تظلّلنى ومن عجبٍ شمسٌ تظلّلنى من الشمس

فلولا أنها قد نُزّلت عندهُ منزلة الشمس على الحقيقة لما كان للتعجّب وجهٌ

(الحكم الخامس)

(فى التفرقة بين الاستعارة والتشبيه)

المحققون من علماء البيان على حصول التفرقة بينهما ، وصار صائرون الى أنهُ لا فرق بينهما فنقول : أما ما كان من التشبيهِ مُظْهِر الأداة بالكاف ، وكأنّ ، فلا تخفى التفرقة بينهُ وبين الاستعارة تفرقة لفظية ، وأما ما كان من التشبيهِ مُضْمَر الأداة ، فقد يكاد يلتبس بالاستعارة ، وهل يكون لاحقاً

بالتشبيهِ ، أو بالاستعارة فى نحو قولك جاءنى الأسد ، ومررت بالأسد ، وقد قدمنا ذكر الخلاف فيهِ وذكر المختار فيهِ فأغنى عن الإعادة ، وعلى الجملة فلا بدّ من إدراك التفرقة بينهما ، وحاصلهُ أن التشبيه حكمٌ إضافىٌّ لا يوجد الاّ بين شيئين مشبّهٍ ومشبه بهِ بخلاف الاستعارة ، فإنها لا تفتقر الى شىءٍ من ذلك ، بل تُفْهِمُ مطلقةً من غير إشارة الى آخر وراء الاستعارة ، ولهذا فإنك تجد فرْقاً بين قولنا : زيد الأسد ، وبين قولك جاءنى الأسد ، فى كون الأول ينجذب الى التشبيهِ لأنهُ يشير اليهِ ، والثانى استعارة مع اتّفاقهما جميعاً فى إضمار أداة التشبيهِ ، فهذا هو الذى يفتقر الى التفرقة بينهُ وبين الاستعارة ، فأما ما كان من الاستعارة لا يفهم منهُ التشبيهُ فلا يحتاج الى التفرقة بحال . كقوله تعالى « فذرْهُمْ فى خوْضِهِمْ يلْعَبون » وقوله تعالى « إنّا لمّا طغَى الماءُ » « وذرهم فى طغيانهم يعمهون »

(الحكم السادس)

(فى التفرقة بين الاستعارة المجرَّدة ، والموشحة)

اُعلم أنا نريد بتجريد الاستعارة هو ان نذكر اللفظ المستعار ونقرِن بهِ ما يلائم المستعار لهُ كقولك : رأيت أسداً

يتكلم ، ولقيت بحراً يضحك ، وهـذا يخالف الاستعارة الموشحة ، فإنك تذكر اللفظ المستعار وتقرن به ما يلائم المستعار نفسهُ فتقول : رأيتُ أسداً دامىَ الأنياب ، طويل البرائن ، فحاصل التفرقة بينهما أن كلّ ما كان ملائماً للمستعار له فهو التجريد ، وما كان ملائماً للمستعار نفسهُ من الأحكام فهو التوشيح ، فبما ذكرناهُ تدركُ التفرقة بينهما

(الحكم السابع)

(فى التفرقة بين الاستعارة المحققة و بين الخيالية)

اعلم أن كل ما كان من الاستعارات لا يُفهم منه معنى التشبيه لا على قُرْبٍ ولا بُعْدٍ كقوله

أثمرَتْ أغصانُ راحَتِهِ * لجُناةِ الحُسْنِ عُنَّابَا

فما هذا حالُه من الاستعارات محقّق لا يُفهم منهُ معنى التشبيه بحال ، ولو ذهبتَ تقدّر التشبيه أخرجتهُ عن حقيقة البلاغة، وسَلَبْتَ عنهُ ثوب جمالها ،فأمّا ما كان من الاستعارات يفهم منهُ معنى التشبيه الذى لا يدرك فى الوجود ويكون متصوراً فى الخيال ، فهذهِ هى الاستعارةُ الخيالية ، وهـذا كقوله تعالى « بل يداهُ مبسوطتان » وجميعُ آيات التشبيه

كله من باب الاستعارات الخيالية ، فحاصلُ التفرقة آئلٌ الى أن كل ما كان من الاستعارات لا يفهم منهُ معنى التشبيه فهى الاستعارة المحقّقة ، وما كان منها يُدْرك فيهِ التشبيه على جهة التقدير فهى الخيالية ، وما كان يدرك فيه التشبيه على جهة التحقيق ، فهو الاستعارة المشبهة ، وقد قرّرنا هـذه الأمثلة فلا مطْمع فى الإعادة لها ، وفيما ذكرناهُ كفاية فى أحكام الاستعارة ، ولْنختم هذه القاعدة بالكلام فى ذكر الاستعارة الأصلية ، والتبعية ، وجملةُ الأمر أن كلَ ما كانت الاستعارةُ فيهِ باعتبار أمرهِ فى نفسهِ فهو المعبّر عنهُ بالأصلية ، وما كانت الاستعارة فيهِ باعتبار حال غيره ، فهو المعبّر عنهُ بالتبعية ، فالأول هو ما كان من الاستعارة متعلقاً بأسماء الأجناس فهو بالاصالة ، وأكثرُ ما يرد فيهِ كما أوضحنا أمثلتهُ فى الاستعارات وكلّ ما كان وارداً فى الأفعال ، والحروف ، فهو من الاستعارات التبعية ، لأنها إنما وردت فى الأفعال باعتبار مصادرها ، وإنما وردتْ فى الحروف باعتبار متعلّقاتها ، فمثالُ الأفعال : قولك : تُخْبرُنى حالُك بأنك عائب علىّ ، وحالك ينْطقُ لى بأنك مفارقى ، ومثـال الحروف قولُه تعالى « لعلّـكُمْ تفْلحُونَ » فموضوعُها للترجى ، وليس ههنا ترجٍ

وقوله تعالى « لِيَكونَ لهم عَدُوًّا وَحَزَنًا » فاللام للتعليل ، وليس ههنا تعليلٌ ولكنها ترد على جهة الاستعارة لمعان أُخَر ، والاستعارةُ فيها إنما وردَتْ باعتبار غيرها كما أوضحناهُ ، وهكذا الأمرُ فى سائر الأفعال ، والحروف ، فإنها إنما ترد فيها الاستعارةُ إذا جاءت مخالفة لموضوعاتها الأصلية ، فإنها على جهةِ الاستعارة من غيرها والله أعلم بالصواب

﴿ القاعدة الثانية ﴾

(من قواعد المجاز فى ذكر التشبيهِ وحقائقه)

هذه قاعدةٌ واسعةُ النِّطاق ممتدّةُ الحواشى ، فسيحةُ الخَطْوِ ، ولكنها غامضةُ المُدْرَك ، مُتَوَعّرَةُ المَسْلك ، دقيقة المَجْرَى عَزِيزَةُ الجَدْوى ، وإنما قدّمنا عليها الكلام فى الاستعارة ، لاتفاق علماءِ البيان على عدّها قاعدةً من قواعد المجاز ، ولا خلافَ بين علماءِ البيان فى أن التشبيه من أودية البلاغة ، وإنما وقع النزاعُ هل يُعَدُّ من أودية المجاز أم لا ، فالذى عليهِ النُّظار من علماءِ البلاغة وأهل التحقيق من علماءِ البيان أنهُ غير معدود فى المجاز ، وهو رأىُ الشيخ ناصر بن أبى المكارم المُطَرِّزى فى شرحهِ للحريريات ، وعن ابن الأثير أنهُ

معدودٌ من جملة المجاز ، ويمكن الانتصار لهُ على المطرّزى بأمرين ، أما أوّلاً فلأنهُ عدّ الكنايةَ من أودية المجاز ، والتشبيهُ أقْرَبُ منها إليهِ ، وأما ثانياً فلأن مضمر الأداة من التشبيهِ معدود فى الاستعارة ، وقد اعترف بها ، فإذَنْ لا وجه لإنكار التشبيهِ أن يكون معدوداً من أودية المجاز ، والعجبُ منهُ فى قبول الكناية وعدّها من المجازات ، وإنكار ما ذكرناهُ من التشبيهِ ، مع أن الكناية دالّة على موضوعها الأصلىّ فى اللغة ، كما سنقررهُ عند الكلام فيها بمشيئة الله تعالى

واُعلم أنا قبل الخوض فى أسرار التشبيهِ وذكر حقائقهِ ، نقدّم التنبيه على أمور أربعة تكون كالتمهيد والتوطئة لما نريد ذكرهُ من ذلك

﴿ التنبيهُ الأول ﴾

(فى بيان ماهية التشبيه)

أما لفظُهُ فهو مصدرٌ من قولهم شبّهتهُ بكذا ، إذا جمعت بينهما بوصفٍ جامعٍ ، وأما فى مصطلح علماء البيان فنذكر لهُ تعريفات ثلاثة وفيها كفاية

(التعريف الأول)

ذكرهُ المطرّزىّ ، وحاصلُ كلامهِ فى ماهيتهِ هو الدلالة على اشتراك شيئين فى وصفٍ هو من أوصاف الشىء فى نفسهِ ، هذه ألفاظهُ ، وهذا فاسدٌ لأمرين ، أما أولاً ، فلأنهُ إن أراد بالدلالة حقيقتَها ، فالشىء لا يدلُّ على نفسهِ ، ومن حق الدليل أن يكون مغايراً لمدلولهِ ، وإنْ أراد بلفظ الدّلالة أن من عرف الحدّ عرف لامحالة المحدود ، فهـذا جيّدٌ ، لـكن لفظ الدّلالة يُوهم الخطأَ من جهة المغايرة ، فيجب اطّراحُها ، وأما ثانياً فلأنهُ لم يفصل بين التشبيهِ الوارد على جهة الاستعارة كقولك جاءنى الأسد ، ورأيت بحراً ، وبين التشبيهِ الصريح كقولنا : زيد كالأسـد ، وعمرو كالسيف ، وغير ذلك وكلاهما معدود من باب التشبيهِ ، والغرضُ ههنا هو المظْهَرُ الأداة فكان من حقهِ فصلُهُ عما ذكرناهُ بذكر الأدلة ، لأنهُ هو المقصود بذكر هذه القاعدة

(التعريف الثانى)

ذكرهُ الشيخ عبدُ الكريم السّماكىّ ، وحاصلُ مقالتهِ أنهُ ركنٌ من أركان البلاغة ، لإخراج الخفىّ الى الجَلِىّ

وإدنائهِ البعيدَ من القريب ، هذا ما ذكرهُ فى كتابهِ التبيان ، وهو فاسدٌ أيضاً لأمرين ، أما أولاً فلأنّ ما قالهُ إنما هو إشارة الى فائدتهِ ومقصودهِ ، وليس فيهِ بيان ماهيتهِ فى ذاتهِ ، كمن يقول فى ماهية الأسد ، هو الحيوان الذى تُخاف سطْوتُهُ ولهُ هيبةٌ فى النفوس ، فكما أن هذا غير موصّل الى ماهيّة الأسد ، فكذا ما قالهُ ، ولأنهُ لم يفصلْ بين مضمر الأداة ، ومظهر الأداة ، وحقيقة أحدهما مخالفةٌ لحقيقة الآخر ولأنّ ذكر الأداة جزءٌ من مفهوم هذه القاعدة التى تصدّينا لكشفها و بيانها ، فلا بدّ من ذكر الأداة ، وظهر مما حققناهُ ضعف ما قالا

(التعريف الثالث)

وهو المختارُ أنْ يقال هو الجمعُ بين الشيئين ، أو الأشياء بمعنى مّا بواسطة الكاف ونحوها ، فقولنا (هو الجمع بين الشيئين) يدخل فيهِ التشبيهُ المفرد كقولك : زيد كالأسد ، (أو الأشياء) ليدخل فيهِ التشبيهُ المركب على أوصافهِ ومراتبهِ كما سنقررهُ ونصفُ حالهُ ونمثّلهُ ، وقولنا (بمعنى ما) عامٌ لجميع الأوصاف كلها العقلية والحسية ، المفردة والمركبة وقولنا

(بواسطة الكاف) يُخرج العطف لأنهُ جمعٌ بين الشيئين ، أو الأشياءِ لكن بغير الكاف ، ويُخرج عنهُ مضمرُ الأداة كقولنا : زيد أسد ، فإنهُ ليس من التشبيهِ الذى أردناهُ فى هذه القاعدة ، وإنما هو معدودٌ فى الاستعارة كما قررناهُ من قبلُ ، فهكذا يكون تعريفهُ بما ذكرناهُ ، ولقد حامَ مَنْ أسلفنا ذكرهُ فى تعريف حقيقة التشبيهِ حوْلَ ما قررناهُ ، فما وقَع ، وصأصأَ [1] فما فَقَّحَ ، ومنْ حَقّ من أراد تعريف ماهية من الماهيات أن يُورد فى حَدِّهِ أخصّ أوصافها وأن يصونها عن النّقُوضِ

﴿ دقيقة ﴾

اُعلم أنا قد جعلنا هذه القاعدة للتشبيه فصدّرناها بلقَبِه، وحكينا عن المطرّزى إنكار كونهِ معدوداً من المجازات وإنْ عُدّ من أنواع البلاغة ، والى هذا ذهب الشيخ عبد الكريم صاحب التبيان ، وغالبُ الظنّ بل نعلم قطعاً أن كل ما كان من التشبيهِ مضمر الأداة كقولنا : زيد الأسد ، ولقينى

(١) هذا من قولهم . صأصأ الجرو . اذا التمس النظر قبل أن يفتح عينيه . وفقّح . بتشديد القاف . اذا فتح عينيه . وضرب ذلك مثلاً لمن طلب شيئاً ولم ينله

الأسد ، وعمرٌو الشمسُ فى ضيائهِ ، والقمرُ فى نورهِ ، والبحرُ فى كرمهِ ، الى غير ذلك من التشبيهات المضمرة فإنهما لايخالفان فى كون ما هذا حالهُ معدوداً فى المجاز ، وإن كان من التشبيهِ ، لأن ظاهرهُ الاستعارة وإن كان المشبهُ بهِ فى طيّهِ ، فلهذا وجب عدُّهُ فى المجاز ، وإنما يتوجهُ خلافهُما فيما كان من التشبيهات مُظْهِر الأداة ، كقولنا : هو كالبحر كرماً ، وكالقمر نوراً ، وكالبدر تماماً وكمالاً ، فما كان بهذه الصورة ففيهِ مذهبان

(المذهب الأول) أنهُ معدود من جملة المجازات ، وهذا الذى يشير اليهِ كلام ابن الأثير ، وحجّته على ذلك أن قولنا : زيد أسد إذا كان معدوداً فى المجاز باتفاق بين علماء البيان ، فيجب فى قولنا : زيد كالأسد شجاعة ، أن يُعَدَّ فى المجاز أيضاً ، إذْ لا تفرقة بينهما إلاّ من جهة ظهور الأداة ، وظهورُها إن لم يزدهُ قوّة ودخولاً فى المجاز لم يكن مُخرجاً لهُ عن المجاز ، ولأن التمثيل إذا كان معدوداً فى المجاز فى نحو قولنا : فلان يقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرى ، يقال للمتحيّر فى أمرهِ فهكذا حال التشبيهِ أيضاً

(المذهب الثانى) إنكار كونهِ معدوداً فى المجاز ، كما حكيناهُ عن المطرّزىّ وعبد الكريم ، وغيرهما ، وحجّتهم

على ما قالوا : أنّ المجاز استعمالُ اللفظ فى غير موضوعهِ الأصلىّ وقولنا . زيدٌ كالأسد ، مستعمل فى موضوعهِ فى الأصل ، فلهذا لم يكن معدوداً فى المجاز ، فهذا تقرير الكلام فى المذهبين جميعاً ، والمختارُ عندنا كونهُ معدوداً فى علوم البلاغة ، لما فيهِ من الدّقة واللطافة ، ولما يكتسبُ بهِ اللفظُ من الرّونق والرشاقة ، ولاشتمالهِ على إخراج الخفىّ الى الجلىّ ، وإدنائهِ البعيدَ من القريب ، فأمّا كونهُ معدوداً فى المجاز أو غير معدودٍ ، فالامرُ فيهِ قريبٌ بعد كونهِ من أبلغ قواعد البلاغة ، وليس يتعلق بهِ كبيرُ فائدة ، ورُبمّا كان الخلاف فى ذلك لفظياً فعدلنا عنهُ

﴿ التنبيهُ الثانى ﴾

(فى بيان الصفة الجامعة بين المشبهِ والمشبه به)

اُعلم أنّ كلَّ مَنْ أراد تشبيه شىءٍ بغيرهِ ، فلا بدّ من اجتماعهما فى وصفٍ يكون دالاً على الاجتماع وعلَماً دالاً على المبالغة ، ولا بدّ من أن يكون المشبهُ بهِ أعلا حالاً من المشبهِ ، لتحصل المبالغة هناك ، وتختلف تلك الأوصافُ الجامعة ويحصرُها أقسام ستة

(القسم الاول)

(الأوصاف المحسوسة)

وهى بالإضافة الى الحواسّ التى هى طريق الإدراك خمسة ، نفصلّها بمعونة الله تعالى

(المُدرك الاول)

الاشتراكُ فى الصفة المبصَرة ، ومثالهُ قوله تعالى « وعندهُمْ قاصِراتُ الطرْف عِينٌ كأنّهن بَيْضٌ مكنُون » فالجامعُ هو البياضُ ، وقوله تعالى « كأنّهن الياقوتُ والمرْجانُ » فالجامعُ الحمرةُ ، ونحو تشبيهِ الخدّ بالورد فى البياض المُشْرب بالحمرة ، والشعر بالليل فى سوادهِ ، وكقول بعضهم

وكأنّ أجْرام السماء لوامِعاً * دُرَرٌ نُثِرْن على بِساطٍ أزرقِ

فشبه أديم السماء فى صفاء زُرْقتهِ ، وبياض النجوم ، بدُرر منثورة على بساط أزرق ، وكقول بعضهم فى وصف ما يجتمع من الأزهار فى الزُّرقة والبياض والحمرة

ولا زَوَرْديّةٍ تزْهو بزُرْقتها * بين الرّياضِ على حمْرِ اليواقيت
كأنّها فوق قاماتٍ ضَعُفْن بها
أوائلُ النارِ فى أَطراف كبْريت

ولأمير المؤمنين فى هذا اليدُ البيضاء حيث قال فى خلقة الطاووس (١) ومَخْرجُ عنقه كالإبريق ، ومغْرزُها الى حيث بَطنهِ كصبْغ الوسمة اليمانية ، والوسمة (بكسر السين) نبْت أسودُ يقال لهُ العِظْلِمُ) أو كحريرةٍ ملبَسة مرآة ذاتَ صقَال ، وكأنهُ مُتلفّع بمِعْجرٍ أسْحَم ، ومع فتق أُذُنهِ خطٌّ كمُستدَقّ القلم ، (٢) فهو كالأزاهير المبثُوثةِ . وقال . فى جناحهِ اذا نشرهُ من طيّهِ وَسما بهِ مُطلاّ على رأسهِ كأنهُ قِلعُ دارىّ عَنجَهُ نُوتيُّهُ (والنوتىُّ هو المَلاّح) فإن ضاهيتهُ بالملابس فهو كمُوشّى الحلل ، وإن شاكلتهُ بالحلىّ فهو كفصوصٍ ذات ألوان ، فانظر الى هذه التشبيهات المدركة بالبصر ، ما أدقّها وما أوقعها فى التشبيهِ وأرقّها ، تكاد لدقّتها تسحر الألباب ، ويعجزُ عن حصر معانيها فى البلاغة منطق الخطاب

---

(١) قبل هذا : وله فى موضع العرف قنزعة خضراء موشاة . فضمير مغرزها . عائد الى القنزعة

(٢) أسقط من كلامه ما لا بدّ من ذكره وهو : كمستدق القلم فى لون الأقحوان . أبيض يقق . فهو ببياضه فى سواد ما هنالك يأتلق . وقل صبغ الا وقد أخذ منه بقسط . وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه . فهو كالأزاهير الخ

(المُدرك الثانى)

فى الاشتراك فى الكيفية المسموعة ، وهذا نحو تشبيه صوت الخلخال ، بصوت الصَّنْج كما قال (كأن صوت الصَّنْج فى مُصَلْصَلِهْ) وتشبيه أواخر المَيْس بأصوات الفراريج قال

كأنّ أصواتَ منْ إيغالهنّ بنا
أواخرِ المَيْسِ إنقاضُ الفراريج

ونحو تشبيه الأسلحة فى وقعها بالصواعق وتشبيه الأصوات الطيبة فى قراءة القرآن بالمزامير

(المدرك الثالث)

فى الاشتراك فى الكيفية المذوقة ، وهذا نحو تشبيهُ الفواكه الحلوة بالعسل ، والريق بالخمر قال

كأنّ المُدامَ وصَوْبَ الغمام * وريحَ الخزَامَى وذَوْبَ العَسَلْ
يعَلُّ بهِ بَرْدُ أنيابِها * اذا النجمُ وسْط السماء اعتدلْ

(المدرك الرابع)

فى الاشتراك فى الكيفية المشمومة ، وهذا نحو تشبيه النَّكْهَة بالعنبر ، وتشبيه شَمّ الرّيحان بالكافور والمسك ،

ومثلُ تشبيه الرياحين المجتمعة فى الريح ، بالغالية ، لكونها مجموعة من أنواعٍ طيبةٍ ،ونحوُ تشبيه الأخلاق الكريمة بالعطر

(المدرك الخامس)

فى الاشتراك فى الكيفية الملموسة ، وهذا نحوُ تشبيه الجسم بالحرير ، وحسن الشمائل بالديباج قال

لها بَشَرٌ مثلُ الحريرِ ومنطقٌ
رَخيمُ الحَوَاشى لا هُرَاءٌ ولا نَزْرُ

﴿ القسم الثانى ﴾

(فى الاوصاف التابعة للمحسوسات ، وذلك أمور ثلاثة)

أوّلها الأشكال ، وليس يخلو حالها ، إما أن تكون على جهة الاستقامة ، وهذا نحو تشبيهِ حسن القامة بالرماح فى الطول ، وبخُوط البان ، فى حسن التكسر والتثنّى ، وإن كان على جهة الاستدارة ، فمثلُ تشبيهِ القطعة من العجين بالكُرَة ، ونحو تشبيهِ الأمر المُعْضِل بالحلْقة المبهمة ، فى أنهُ لا يُهتدى لصوابهِ ، وثانيها الاشتراك فى المقادير ، وهذا نحوُ تشبيهِ عظيم الخلْق بالجمل ، والفيل ، ونحو تشبيهِ من يُسند اليهِ مُعظمُ

الأمور بالجبل ، وتشبيهِ من يَستقيمُ فى أمرهِ بالقِدْح ، والمِيلِ ، وثالثها الاشتراكُ فى الرّخاوة ، والصّلابة ، واللين ، كتشبيهِ الشيءِ الصلُب بالحديد ، والأحجار ، ونحو تشبيهِ الشيءِ الرّخو بالحرير ، والقطن ، الى غير ذلك وإنما ألحقنا هذه الأمور بالحسيّات ، لأنها مختصة بها ، وأكثر ما تكون فى الأجسام كما مثلناهُ

﴿ القسم الثالث ﴾

(فى الاوصاف العقلية)

وهذا نحوُ تشبيههم المرضَ الشديد بالموت ، ونحوُ تشبيههم العافيةَ بالملك ، والقناعةَ بالمال ، والفقرَ بالكفر ، والسفرَ بالعذاب ، والسؤالَ للخلق بالموت فى أكثر الحوائج والضلالَ عن الحق ، بالعمى ، والاهتداءَ الى الخير بالإبصار ، وكما شبّهوا الجود بالمطر ، والوابلِ ، ومثلوا الأنامل بالشآبيب من الغيث ، ومثّلوا العَدْوَ الشديد بالطيران ، وكقوله تعالى « ومَن يُشرِكْ باللهِ فكأنما خَرَّ منَ السماءِ فتخطفُه الطيرُ أَوْ تَهْوى بهِ الرّيحُ فى مكانٍ سحيقٍ » مثل حال من تلبّس بالشركِ واعتقدهُ وشرح بهِ صدرهُ ، بمنزلة من سقط من السماءِ فقطّعتهُ الطيرُ ، أو أبعدتهُ الريحُ فى أبعد ما يكون وأقصاهُ ،

شبّه الشرك فى بُعْدهِ ، وتلاشيهِ ، وبطلانهِ ، وزوالهِ ، بهذه الأمور التى هى النهاية فى البُعد والبطلان

﴿ القسم الرابع ﴾

(فى الأوصاف الوجدانية من النفس)

وهذا نحو تشبيههم العلم بالحياة ، والجهل بالموت ، ومنهُ قوله تعالى . فى الاستعارة على جهة التشبيهِ « أومَن كان ميتاً فأحييناهُ وجعلنا لهُ نوراً يمشى بهِ فى الناس كمَنْ مَثَلهُ فى الظّلمات » فيجوز فيما هذا حالهُ ، أن يُراد بهِ العلم ، والجهل فى الحياة ، والموت ، ونحو تشبيههم الجوع بالنار ، والعطش باللهَب وتسعُّر النار ، وتشبيهِ الأشواق ، والغيظ ، والأسف والغضب ، بالنار فى تلظّيها وتلهُّبها الى غير ذلك من الأمور الموجودة من جهة النفس

﴿ القسم الخامس ﴾

(فى الأمور الخيالية)

وهذا نحو أن يتخيل شبَحاً من بعيدٍ ، فيظنهُ إنساناً ، فإذا تخيّلهُ ضئيلاً ، شبّههُ بالقلم ، وإن تخيلهُ جسيماً ، شبّههُ بالفيل والجمل ، وهكذا إذا رأى حيواناً ، فإذا تخيلهُ أسداً ،

شبّههُ بالبَرْق لسرعة جريِهِ ، وإذا تخيّلهُ شاةً ، شبّهها بالبَكْرة لعِظمها ونخامةِ جسمها ، وهكذا القول فى سائر الأمور الخيالية ، فإنّ التشبيه على قدر ما يُرى عن الخيال

﴿ القسم السادس ﴾

(فى الامور الوهمية)

وهذا نحو أن يتوهم الواحد منّا فراقَ ما يألفـهُ فيشبهه بتقطيع الجسم ووَخزِ الشِفَارِ ونحو أن يتوهم انقطاع إحسانٍ واصلٍ اليهِ من جهة الغير بزوال الروح ، وانقطاع الأباهر ، الى غير ذلك من الأمور الوهمية . والتفرقةُ بين الأمور الخيالية والأمور الموهومة هو أن الخيال أكثرُ ما يكون فى الأمور المحسوسة ، فأمّا الأمور الوهميـة فإنما تكون فى المحسوس وغير المحسوس مما يكون حاصلاً فى التوهم وداخلاً فيهِ

﴿ التنبيه الثالث ﴾

(فى بيان ثمرة التشبيه وفائدتهِ)

اعلم أنك إذا أردت تشبيهَ الشيء بغيرهِ فإنما تقصد بهِ تقريرَ المشبهِ فى النفس ، بصورة المشبهِ بهِ ، أو بمعناهُ . فيستفاد من ذلك البلاغة فيما قصد بهِ من التشبيهِ على جميع

وجوهه من مدح ، أو ذمّ ، أو ترغيب ، أو ترهيب ، أو كبر ، أو صغر ، أو غير ذلك من الوجوه التى يقصد بها التشبيه وتُراد للايجاز أيضاً والاختصار فى اللفظ من تعديد الأوصاف الشبهيّة ، وتُراد للبيان والإيضاح أيضاً ، فهذه مقاصدُ ثلاثة نفصلها بمعونة الله تعالى

(المقصد الاول)

فى إفادته للبلاغة ، وهذا كقوله تعالى « ولهُ الجَوَارى المُنْشآتُ فى البَحْرِ كالأعْلام » فشبّه السُّفُنَ الجارية على ظهر البحر بالجبال ، فى كِبَرها وفخامة أمرها على جهة المبالغة فى ذلك ، وهكذا القول فى جميع تصرّفات التشبيه ، فإنهُ لا ينفكُّ عن إفادة البلاغة ، وإلاّ لم يكن تشبيهاً ، لأن إفادتهُ للبلاغة هو مقصدهُ الأعظم ، وبابهُ الأوسع ، ولهذا فإنك لا تكاد تجد تشبيهاً خالياً عن مقصود البلاغة على حال ، وكلما كان الإغراقُ فى التشبيه والإبعادُ فيه وكونهُ مُتعذّرَ الوقوع والحصول ، كان أدخلَ فى البلاغة ، وأوقعَ فيها ، وهذا نحوُ تشبيه نور الله تعالى بنور المصباح فى المشكاة ، سواء قلنا : إن المشبه هو نورُ الله تعالى كما هو الظاهر من الآية ، أو هو نور الرسول صلى

الله عليهِ وسلم ، فالمقصودُ هو البلاغة فى ذلك ، وكما قال بعضهم فى وصف الخمر

وكأنّها وكأنّ حاملَ كأسها
إذْ قامَ يجلُوهَا على النُّدماءِ
شمسُ الضحى رقصَتْ فنَقَّطَ وجْهَها
بَدْرُ الدجى بِكواكبِ الجَوْزَاءِ

فانظر الى ما أبدعهُ فى المبالغة بهذا التشبيهِ ، حيث شبّه الساقى بالبدر ، وشبه الخمر بالشمس ، وشبه حَبَبَها بالكواكب اغراقاً فى ذلك ، ومبالغةً فيهِ ، وكما قال بعض الشعراء فى وصف الشقائق على أعوادها إذا حركتها الريح فتارة تستقيم ، وتارة تعوجّ قال

وكأنّ مُحْمَرَّ الشقيـ ... ق إِذا تَصَوّبَ أو تَصَعّد
أعْلامُ ياقُوتٍ نُشِرْ ... نَ على رماحٍ منْ زَبَرْجَدْ

وكما ورد فى الحديث عن الرسول صلى الله عليهِ وسلم أنهُ قال .« المؤمنُ كالسُنْبُلَة ، تَعْوَجُّ أحياناً ، وتَقومُ أُخرى » أرادَ بذلك أنهُ لايخلو فى تصرفهِ عن أن يكون مستقيماً على الدين فذلك حال الإستقامة ، أو يكون مقارفاً للذنب ، فتلك حالة الاعوجاجِ وقوله صلى الله عليهِ وسلم « المؤمنُ كخَامَةِ الزّرعِ »

أراد أنه غافلٌ عن أكثر المداخل ، مشغولٌ بما هو فيهِ من أمر الدين عن التفطن للأمور كالزّرعة بين الزرع الكثيف ، فإنه إذا غلُظ عليها لم تكن بارزةً للريح والشمس فتحصل لها الصّلابة ، فتراهُ فى جميع مجاريهِ لابدّ من إفادتهِ للبلاغة ومراعاتها فيهِ

(المقصد الثانى)

فى إفادتهِ للايجاز وهذا ظاهرٌ ، فإنك إذا قلتَ زيد كالأسد ، فإن الغرض تشبيههُ بالأسد فى شهامة النفس ، وقوة البطش ، وجَراءةِ الإقدام ، والقدرةِ على الافتراس ، وغير ذلك من الصفات الفاخرة ، فقد استغنيت بذكر لفظ الأسد عن أن تقول : زيد شَهْمٌ شجاعٌ قويّ البطش جرىء الجَنَان قادر على الاعتداء ، فهذا هو الذى نُريدهُ بالإيجاز ، ومن الاختصار العجيب والإيجاز البليغ فى التشبيهِ قوله تعالى «إنما مثَلُ الحياةِ الدّنيا كماءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السماءِ فاختَلَطَ بهِ نباتُ الأرْضِ فأصبَحَ هشيماً تذْروه الرّياحُ» فانظر الى ما اشتملت عليهِ هذه الآية من أنواع التشبيهات . أشياءَ بأشياءَ فى معانٍ وأوصاف بحيث لو فُصّلت لاحتاجت الى شرح كبير ،

مع اختصاصها بجزالة اللفظ ، وبراعة النظم ، وبلاغة المعانى وحسن السياق ، ومن الإيجاز قول البحترى

تَبَسُّمٌ وقُطُوبٌ فى نَدًى ووغًى
كالرَّعْدِ والبَرْقِ تحْتَ العارضِ البَرِدِ

فما هذا حالهُ من جيِّد التشبيهِ وغريبهِ الموجز غايةٌ فى الإيجاز ، وكما قال أبو نوّاس فى صفة الخمر

وإذا علاها المـاءُ ألبسها * حبباً شبيهَ خَلاخلِ الحِجلِ
حتى اذا سكَنتْ جوامِحُها * كَتبتْ بمثْلِ أكارعِ النَّمْلِ

وكقول أبي نواس فى تشبيهِ الحببَ أيضاً

فاذا ما اعترضتْهُ العيْـ ـنُ من حيثُ استدَارا
خِلتَهُ فى جنبَاتِ الـ ـكأسِ واواتٍ صغارا

فهذه التشبيهاتُ كلُّها فى غاية الإيجاز والاختصار كما ترى

(المقصد الثالث)

(فى إفادتهِ للبيان والايضاح)

وهذه أيضاً هى فائدة التشبيهِ الكُبرى ، فإنهُ يُخْرِجُ المبهم الى الإيضاح والملتبس الى البيان ، ويكسوهُ حلّة الظهور بعد خفائهِ ، والبُرُوز بعد استتارهِ وهذا كقوله تعالى

« مَثَلُهم كمَثَلِ الذى استوْقَدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حوْلَهُ ذهب الله بنورهم » الآية ، وقوله تعالى « أو كصيّبٍ من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ كلما أضاء لهمْ » الآية فهاتان الآيتان واردتان مثالاً وتشبيهاً بحال أهل النفاق . وإيضاحاً وبياناً لأمرهم فيما ظهر لهم من النور التامّ بالرسول صلى الله عليهِ ، وإعراضهم عنهُ ، فشبه حالهم فى ذلك بالمستوقد للنار ، وبالصيب الذى فيه الرعد والبرق ، كشفاً لحالهم فى النفاق ، وإظهاراً لأمرهم فيهِ ، فنظام هذه الآية وسياقها دالٌّ على نهاية الإيضاح بالتشبيهِ وإظهار حالهم بهِ ، وهكذا اذا قلت زيد يفيضُ فيضَ البحر ، ويُقدِمُ إقداماً كالأسد ، فإنك بذكر هذا التشبيهِ قد أوضحتَ أمره فى الكرم والشجاعة ، وكشفتَ ذلك بالإيضاح كشفاً لا غاية له ولا مزيد عليهِ ، ومنه قوله صلى الله عليهِ وسلم « كُنْ فى الدُّنيا كأنّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ » يعنى فى قطع العلائق ، وخفّة الحال ، فإن الغريب لا عُلْقَةَ له فى بلاد الغربة ، وابن السبيل لا لُبْثَ له الاّ مقدار العبور وقطع المسافة ، فهذا المعنى قد أظهره التشبيه نهاية الظهور وأوضح حاله كما تراه ، ومنه قول أمير المؤمنين كرّم

الله وجهه « كُنْ فى الفتنةِ كابنِ اللَّبون ، لاظهرٌ فيُركَبُ ولا ضِرعٌ فيُحلَب » أراد أن الفتن اذا تلبّس الإِنسان بها ووقع فى غمرتها ، كان أدعى للهلاك وأقربَ الى تورُّط النفوس ، وإِذا كان لا علْقةَ لهُ بها ، فربما كان ذلك أدعى للسلامة وأقرب الى الخلاص عنها ، وهذه المعانى قد أشعر بها التشبيهُ ودلّ عليها ، ومن واضح التشبيهِ قول أبى نواس فى ذمّ الدُّنيا وتقبيحها

اذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشّفتْ
لهُ عن عدُوٍّ فى ثيابِ صديقِ

فهذا من التشبيه الواضح المضمر الأُداة فلهذا أوردناه ههنا ، ومن أعجب ما يُورد مثالاً فى وضوح التشبيه قول البحترى

يمشُون فى زَغفٍ كأنّ متُونَها
فى كلّ معْرَكةٍ متُونُ نِهاءِ
بيضٍ يَسيلُ على الكماةِ فضُولُها
سيلَ السَّراب بقفْرَةٍ بيْداءِ
فاذا الأَسنةُ خالطَتْها خلتَها
فيها خيالَ كواكبٍ فى ماءِ

وقوله أيضاً

وتراهُ في ظُلَمِ الوَغى فتخالُه
قمراً يكرُّ على الرِّجال بكوكبِ

فقد ظهر بما أوردناهُ من هذه الأمثلة وضوحُ ما ادّعيناه من كون التشبيه مختصاً بالايضاح والبيان لما قصد بهِ

﴿ التنبيه الرابع ﴾

(في بيان مراتب التشبيهات في الظهور والخفاء والقرب والبعد والزيادة والنقصان وغير ذلك من أحوالها التي تعرض لها

اعلم أن الشيءَ المشبه بهِ كلمّا كان أبْعَدَ عن الوقوع كان التشبيهُ المستخرج منهُ أَغْرَبَ ، ويكون في المبالغة أدخل وأعجب ، فمثال القريب تشبيهُ السيوف بالأمواج ، وتشبيهُ أطراف الأسنة بالكواكب ، وتشبيهُ الرجال بالأسود ومن قريب التشبيهِ وأحسنه ما قالهُ عليُّ بن جَبَلَةَ

إذا ما تردَّى لأمةَ الحرْبِ أُرْعِدَتْ
حشَا الأَرض واستَدمى (١) الرماحُ الشَوارعُ
وأسفَرَ تحتَ النَّقْعِ حتى كأنهُ
صباحٌ مشى في ظلمةِ الليلِ ساطعُ

(١) من قولهم استدمى الرجل . طأطأ رأسهُ يقطر منهُ الدم

ومنهُ قول أبي تمام

خلطَ الشجاعةَ بالحياءِ فأصبحا

كالحُسْنِ شِيبَ لمُغْرَمٍ بِدلالَ

ومثالُ التشبيهِ البعيد تشبيهُ الفحمِ اذا كان فيهِ جَمْرٌ ببحرٍ من المسك موجهُ ذَهَبٌ ، ونحو تشبيهِ الشقائق بأعلامٍ من ياقوتٍ على رماحٍ من زَبَرْجَد ، ونحو تسبيهِ الدماءِ بنهرٍ من ياقوتٍ أحمر ، فهذا وأمثالهُ من المعدود في البعيد ، لكونهِ غير متوهم الوقوع بحال ، فإن البحر من المسك لا يُوجد ولكنه متصور وهكذا ، فإن أعلام الياقوت على رماح الزبرجد غيرُ موجودة ،ولهذا فإنهُ لمّا كان غير موجود كان أدخل في التشبيه وأعجب لكونه غير واقع ولهذا كان قول من قال

وكأنّ أجرام السماء لوامعاً

دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساطٍ أزْرَقِ

أدخل في الإعجاب وأغرب من قول ذي الرّمة في شعره (كأنّها فضةٌ قد مسَّها ذَهَبُ) لمّا كان الأولُ غير واقع ، لأن البساط الأزرق عليهِ دُرَرٌ منثورة لايكاد يُوجد ، بخلاف الفضة المموّهة بالذهب ، فانها توجد كثيراً ، فأمّا التشبيهات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، فإنها

كلها قريبة ، وما ذاك الا ّ لأنها أدخل فى التحقيق ، وأقرب الى التيقن ممّا لا يكاد يقع ، فلهذا كانت مختصة بهما كقوله تعالى « أو كظُلُمات فى بَحْرٍ لُجِّيّ » وقوله تعالى « كمثل الحمار » « فمثَلُهُ كمَثَلِ الكَلْبِ » الى غير ذلك عن الأمور الممكنة الوقوع ، ومثالُ الواضح من التشبيه ما قاله علىّ بن جبَلة فى وصف الخمر

تَرَى فوْقها نَمَشاً للمزاجِ تقَارَبُ لا تتّصلْنَ اتّصالا

كوجْهِ العرُوسِ اذا خَطَّطَتْ على كلّ ناحيةٍ منهُ خَالاَ

ومن أَوضحه قولُ مسلم بن الوليد يصف رجلاً بالشجاعة

يلْقَى المنية فى أمثال عُـدَّتِها

كالسّيْلِ يقْذِفُ جلْمُوداً بجُلْمُودِ

فهذا وأمثاله من الأمور الواضحة فى المقصود منها فى التشبيه ، وهكذا جميع التشبيهات فى القرآن العظيم ، فإنها واضحةٌ جليّةٌ ، ومثالُ التشبيهات الخفيّة ، ونريد بخفائها أنّ الأمور المحسوسة الظاهرة مستمَدّة من الأمور الخفيـة فى المعانى وهذا كقول بعض الشعراء

وكأنّ النجوم بين دُجَاهَا * سُنَنٌ لاح بينهنّ ابْتدَاعُ

فشبّه النجوم فى ظُلمة الظلام مع نورها ، بالسّنَن الواضحة التى هى كالأنوار توسَّطَ بينها بِدَعٌ ، كسواد الليل فى ظلمتها ، فالسنةُ فى هُداها كالنور، والبدعةُ فى جهلها بمنزلة الظلمة ، ومن هذا قول بعضهم

كأن انصِياعَ البدر من تحْت غيْمِهِ

نجاءٌ من البأْساءِ بَعْدَ وقُوعِ

فشبه المحسوس بالمعقول ، ومثّلَ البدر الذى ينحسر عنهُ الظلامُ ، بالمتخلّصِ من البأْساءِ بعد وقوعها عليهِ ، وما ذاك الاّ لأن هذه المعانى وضحت وضوحاً وقرُبت من النفوس قرْباً فأُلحْقت بالأمور المحسوسة فى وضوحها وتحققّها ، ومن الأمثلة ما حكاهُ اللهُ تعالى عن مُستحلِّى الرّبا حيث قالوا « إِنمَّا البيعُ مثْلُ الرِّبَا » وكان القياس فى قولهم : إِنما الرّبا مثل البيع ، فى تحليلِهِ إِغراقاً منهم فى المبالغة ، وذهاباً الى أن الرّبا فى باب الحلّ أدخل من البيع وأقوى حالاً ، وهذا من أنواع التشبيه يُلَقَّبُ بالمعكوس ، ولهذا يقال : صُبْحٌ كغُرَّة الفرس ، ويُقال فى عكسهِ أيضاً غُرَّةٌ كالصبح، وسيأتى تقريرهُ بمعونة الله تعالى

﴿ التنبيه الخامس ﴾

(في اكتساب وجهِ التشبيهِ)

اُعلم أنّ كلّ من أراد تشبيه شيءٍ بغيرهِ فلا بدّ من أن يجمع بينهما بوصفٍ مّا كما قررناهُ من قبلُ ، فعليهِ أن يسعى فى طلب الوجهِ الجامع بينهما ، فمن طلب أن يمثّلَ حركةً أو هيئة بغيرهما ، فعليهِ أن يطلب أمراً يتفقان فيهِ ، كما فعَل ذلك ابن المعتزّ فى قوله

وكأنّ البرْق مُصْحَفُ قَارٍ * فانطباقاً مرّةً وانْفِتَاحاً

فلم ينظُر الى جميع أوصاف البرق كلها ومعانيهِ ، ولكنهُ أراد تشبيه هيئة البرق وحركة لمَعَانهِ بالمصحف ، يفتحهُ القارىء مرة ويطْبقُهُ أُخرى ، فيكون جامعاً بين الأمرين المختلفين ما ذكرنا من الجامع

﴿ دقيقة ﴾

ومِمَّا يكون مناسباً لما أوردناهُ فى كونهِ جامعاً بين المختلفات هوأن يُجعل الشيءُ سبباً لضدّه كما يقال أحْسَنَ الىّ من حيثُ قَصَدَ الإساءة ، ونفعني من حيثُ أراد الإضرار ،

وكانت نجاتى من حيثُ قصدَ إهلاكى ، ومن هـذا قول بعض الشعراء

أعتقنِى سوء ما صنعتَ من الرّ
قّ فيا بردَها على كبدِى
فصرتُ حرًّا بالسُّوءِ منكَ وما
أحسنَ سوءٌ قبلِى إلى أحدِ

وما ذاك الاّ من أجل تخيّل الجامع فى الأمور المختلفة المتضادّة . كما قررناهُ فهذا ما أردنا ذكرهُ من ذكر التنبيهات فى صدر هذه القاعدة لتكون توطئة وتمهيداً لما نريد ذكرهُ من أسرار التشبيه وحقائقهِ ، فإذا تمهّد ذلك فلنذكر أقسام التشبيه ، ثم نردفهُ بذكر الأمثلة ، ثم نذكر كيفية التشبيه ، ثم نذكر أحكامه فهذه مطالب أربعة نفصلها بعونة الله تعالى

المطلب الأول

(في بيان أقسام التشبيهِ)

اعلم أن التشبيه له طرق كثيرة ، وتنقسم الى أنحاء منتشرةٍ باعتبارات مختلفة ، ولكنا نقتصر من ذلك على تقسيمات أربعة هى وافية بالمطلوب ومندرج تحتها شعبٌ كثيرة

(التقسيم الأول)

باعتبار ذاتهِ الى مفرد ومركب، ونعنى بالمفرد ما كان التشبيه فيهِ مقصوراً على تشبيه صورة بصورة من غير زيادة ، أو صورةٍ بمعنًى ، ونعنى بالمركب ما كان التشبيه فيهِ تشبيها لأمر بأمرين أو بأكثر من ذلك كما نورده ، أو تشبيهاً لأمرين بأمرين أو بأكثر كما ستراهُ موضّحاً فى الامثلة بمعونة الله تعالى ، فإذَنْ هذا التقسيم مشتمل على ضروبٍ أربعة

الضرب الأول منها تشبيه المفرد بالمفرد وهذا كقوله تعالى « فإذا انْشَقَّتِ السماءُ فكانَتْ وَرْدَةً كالدِّهَانِ » شبّهها بالدّهان لحُمْرتها ، وهو الجلد الأحمرُ وكقوله تعالى « تَهْتَزُّ كأنّها جَانٌّ » وقوله تعالى « كعَصْفٍ مأكُول » الى غير ذلك من التشبيهات المفردة الواردة فى القرآن وقوله صلى الله عليه وسلم « مَثَلُ المؤمنِ الذى يقرأ القرآنَ ، كمثل الأُتْرُجَّة ، طَعْمُهَا طيّبٌ وريحُها طيّبٌ ، ومَثَلُ المؤمن الذى لا يَقْرَأُ القرآن ، كمثل التَّمْرَةِ ، طعمُها طيّبٌ ولا ريحَ لها ، ومثَلُ المنافِق الذى لا يقرأُ القرآن كمثل الحَنْظَلَةِ ، طعمُها مُرٌّ ولا ريحَ لها ، ومَثَلُ المنافق الذى يقرأُ القرآن ، كمَثَل الرَّيْحَانَةِ ، ريحُها طيّبٌ ولا

طعمَ لها ، ومنهُ قولهم زيد كالأسد ، وعمرو كالبحر ، وقولُ أمير المؤمنين كرّم الله وجههُ فى الشّقْشقيّةِ ، فَصاحبُها كراكب الصَّعْبَةِ ، إِنْ أشْنَقَ لهَا خَرَمَ ، وإِنْ أسْلَسَ لها تقَحَّم ، وقوله فى مخاطبة طلحةَ والزُّبير ، واللهِ لا أكونُ كالضَّبُع ، تنَامُ على طُول اللَّدْمِ حتى يصلَ اليها طالِبُها

ومن التشبيه الفائق قولُ امرىء القيس

كأنّ عيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خبائنَا
وأرْحلِنَا الجَزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ

وقول زُهير

بكَرْنَ بُكُوراً واستَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ
فَهُنَّ بِوادِى الرَّسّ كاليَدِ للفَمِ

ولقد أجادَ زُهير فى هذا التشبيه وأبدع فيه ، ومنهُ قول ذى الرُّمة

قِفِ العيسَ فى أَطْلَالِ ميَّةَ فاسْأَلِ
رُسُوماً كأَخْلَاقِ الرّدَاءِ المُسَلْسَلِ

ومثلهُ قول أبى تمام

خَرْقاءُ تَلْعَبُ بالعُقول مِزَاجُها * كتلعُّبِ الأفْعَالِ بالأَسْمَاءِ

وكقول ابن المعتز فى وصف العنب

حتى اذا حَرُّ آبٍ جاشَ مِرْجَلُهُ
بفَائِرٍ منْ هَجيرِ الشمسِ مُستَعِرِ

ظَلَّتْ عنَاقيدُه يَخْرُجْنَ من وَرَق
كما احتَبَى الزَّنْجُ فى خُضْرٍ مِنَ الأُزُرِ

وكما قال بعض الشعراء

كأَنّ الثُرَيّا والصّباحُ يَكُدُّهَا
مصَابيحُ رهبان دَنَتْ لخُمُودِ

وكما قال بعض الاذكياء

والصبح يتْلُو المشترى وكأَنهُ
عُرْيَانُ يمْشِى خلْفَهُ بسِرَاجِ

ومن ذلك قول بشار

كأَنّ الناسَ حين تَغيبُ عنهم
نَبَاتُ الأَرضِ أَخطَأَهُ القِطَارُ

ومن بديع التشبيه قول امرىء القيس

وكَشْحٍ لَطِيفٍ كالجَدِيل مُخَصَّر
وساقٍ كأُنْبُوبِ السَّقِيِّ المُذَلَّلِ

وتَعْطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأَنَّهُ
أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أَومَسَاوِيكُ إِسْحِلِ
مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غيرُ مُفَاضَةٍ
تَرَائِبُهَا مصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

فانظر الى ما اشتملت عليهِ هذه الأبيات من بديع التشبيه وغريبهِ ، ومن هذا قول بعضهم فى تشبيه الفحم والجمر

كأنّما النارُ فى تَلَهُّبِها * والفَحْمُ مِن فَوْقِها يُغَطِّيهَا
زَنْجِيَّةٌ قَبَضَتْ أَنَامِلُهَا * منْ فوقِ نَارَنْجَةٍ لِتُخْفِيهَا

ومن جيّدِ التشبيه ورائقهِ ما قالهُ بعض الادباء وهو البحترى

دَنَوْتَ تواضُعًا وعلَوْتَ قَدْرًا
فشَانَاكَ انْخفاضٌ وارتفاعُ
كذاكَ الشمسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسامَى
ويدْنُو الضوْءُ منها والشُّعَاعُ

ولنكتف بهذا القدر فى المفردات

الضرب الثانى فى تشبيه المركب بالمركب ، وما هذا حالُه يردُ على أوجه أربعة ، أولُها تشبيهُ شيئين بشيئين كقوله تعالى

« وَمثَلُ كَلمة خَبيثَةٍ كشجَرَةٍ خبيثَةٍ » فقد مثّل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة ، وقد قرّرنا من قبلُ أنا نريد بالتشبيه المركّب ذلك ، ونحو قوله تعالى « مثَلَ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثُمَّ لم يحمِلوها كمثَل الحِمَارِ يحْمِلُ أَسفَاراً » وقوله تعالى « ومثَلُ الّذينَ كفرُوا كمثَلِ الذى ينْعِقُ بمـا لا يَسمَعُ إلاّ دُعَاءً ونِداءً » فمثّل الكفّار فى إعْراضهم عن الحق والهدى وعدم الاصغاء الى ما جاء بهِ الرسول برجلٍ يتَكلمُ بما لا يَفهَمُ منزلةَ نَعيقِ البهائم ، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم « مثَلُ الرجل الذى لا يُتِمُّ صلاتَه كمثَل الحَامِلِ حملَتْ حتى إذا دَنا نِفاسُها ، أملَصتْ فلاَ ذاتُ حَملٍ ولا ذاتُ وَلَد » ومن هذا قوله صلى الله عليهِ وسلم فى مثال المؤمنِ حاملِ القرآن ، كمثَل الأُتْرُجةِ ، ومثال المنافقِ الذي لا يحملُ القرآنَ كمثل الحنْظلة ، وسائرُ تلك الأحاديث التى أسلفناها تمثيلاً للمفرد بالمفرد وهى ههنا صالحة للتمثيل المركب بالمركب فى شيئين بشيئين ، فإن كان بالإضافة الى الموصوف فقط ، فهو من باب المفرد بالمفرد ، وإنْ كان بالإضافة الى الموصوف مع صفتهِ ، فهو من باب المركّب بالمركّب ، والامرُ فيه قريبٌ ، ومن الشعر قول امرئ القيس

كأَنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابسا
لَدَى وكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالى

وقول بشار

كأَنَّ مُثارَ النقعِ فوقَ رؤُوسنا
وأَسيافَنَا ليلٌ تهاوى كواكبُهُ

وثانيها تشبيه ثلاثة بثلاثة وهذا كقول بعضهم

لَيْلٌ وبدْرٌ وغُصْنٌ شَعْرٌ ووجْهٌ وقَدُّ
خَمْرٌ ودُرٌّ ووَرْدٌ رِيقٌ وَثَغْرٌ وَخَدُّ

فهذا عدَدْناه من التشبيه، وإِن لم تظهرْ فيهِ الأداة، لأنهُ فى معنى التشبيه، وإِن كانت أَداتُهُ مضمرةً، لأن ظهورها يكون مقدّرا

وثالثها تشبيه أربعة بأربعة وهذا كقول امرئ القيس

له أَيْطَلاَ ظَبيٍ وسَاقَا نَعامَةٍ
وإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وتقْرِيبُ تَتفُلِ

وكقول أبى نواس

تَبْـكِى فتُذْرِى الدُّرَّ مِنْ نَرْجسٍ
وتَمْسَحُ الوَرْدَ بِعُنَّابِ

فشبّه الدمع بالدر، لبياضهِ، والعين بالنرجس، لما فيهِ من

اجتماع السواد والبياض ، وشبّه الوجه بالورد ، وشبّه الأنامل بالعناب ، فهذه تشبيهات أربعة كما أشرنا اليهِ وكما قال بعضهم

فزحزحتْ شفقاً غشّى سنَا قمر
وساقطتْ لؤلؤاً من خاتمٍ عطِر

فشبّه الخمار بالشفق ، لحمرته ، وشبّه الوجه بالقمر ، وشبّه ثناياها باللؤلؤ ، وشبّه فمها بالخاتم

ورابعها تشبيه خمسة بخمسة وهذا كقول الوأواء الدمشقي

فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتْ
ورْداً وعضّتْ على العنّاب بالبْردِ

فجميعُ ما أوردناهُ فى هذا الضرب ، إنما هو فى تشبيه المركب بالمركب

(الضرب الثالث فى تشبيه المفردِ بالمركب)

ولْنضرب له مثالين يدلاّن عليهِ ،

(المثالُ الأول فى المظهر الأداة)

وهذا كقوله تعالى « اللهُ نورُ السموات والأرض .مثَل نوره كمِشكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ فى زُجاجةٍ الزُّجاجةُ كأنّها كوكبٌ دُرّىٌ يُوقَد من شجرةٍ مُباركةٍ زيتونةٍ لاشرْقيّةٍ

ولا غَرْبيَّة » فهـذه الأمورُ المعدودة كلها أشباهٌ لنور الله ، إمّا على أن المراد بهِ ذات الله تعالى ، أو يُراد بهِ الرسول صلى الله عليـهِ وآلهِ ، وكقوله تعالى « مثل الذين كفروا بربّهم أعمالُهُم كرَمادٍ اشتدَّتْ بهِ الريحُ في يومٍ عاصفٍ » وكقول أبى تمام يمدح قصيدةً له

خُذْهَا مُثقَّفَةَ القوافى رَبُّها * بسوابغِ النعماء غيرُ كَنُودِ
كالدُّرّ والمَرْجَانِ أُلّفَ نظمُها * كالشُّذْرِ فى عُنقِ الفَتاةِ الرُّودِ

وكما قال البحترى فى وصف السيف

وكأنَّما سُودُ النِّمال وحُمْرُها
دَبَّتْ بأيْدٍ فى قَرَاهُ وَأَرْجُـلِ

فشبّه فِرِنْدَ السيف ، بدبيبِ النمل ، حُمرِها وسُودِها ، وهذا مما يُشْهَدُ له فيه بالإجادة والإنافة فى البلاغة والزيادة

(المثال الثانى فى مضمر الاداة)

وهـذا كقوله صلى الله عليه وسـلم « الْعَزْلُ هو الوَأْدُ الْخَفِيّ » وهذا من التشبيه الذى فاق فى رشاقتهِ، وراق فى جَوْدَةِ نظمه وبلاغته ، والْوَأْدُ هو ما كانت العربُ تفعلهُ من دفنِ البناتِ وهنّ أحياءٌ ، خوفاً من العار بركوب الفاحشة ،

فجعل العَزْل كالوأد، وعبر عنهُ بهذه العبارة التى تغُضُّ لها العيون طَرْفَهَا، ولا يَنتهى الوصفُ اليها، فيكون تَرْكُ وَصفِها كوصفِها، ومن هـذا قول أمير المؤمنين فى وصف العِتْرة، عليهم السـلام « فَرِدُوهُمْ وِرْدَ الهِيمِ العِطاش » فهـذا من الكلام لا يدرك فى البلاغة منتهاه، ولا يُحرَز بغاية غَوْرُه وأَدْنَاه

ومن غريب ماوجدته فى هذا الضرب كلامٌ لابن الأثير فى وصف القـلم، « جُدِعَ أَنْفُه فصارَ فى اليدِ قصيراً » يشير بذلك الى ما كان من حديث قَصيرٍ، مع الزَّبَّاء وفَتْـكه بها، وكَيْدِه العظيم لهـا « وأُرْهِفَ صَدْرُه فصَار فى المَضَاءِ عَضْباً شَهِيراً » أراد كالسيف فى مَضائهِ « وقُمِّصَ لباسَ السّواد، وهو شِعَارُ الخطباء فنطَقَ بفَصْل الخِطاب، ونكّسَ رأسَه وهو صورةُ الاذْلال، فاخْتَال فى مشْيه من الإِعْجاب » فأقول لقد نطق بفصـل الخطاب ابنُ الأثير، وصار على بليغ التشبيه والاستعارة كالأمير، وهذا الضرب أَعنى تشبيه المفرد بالمركب كثيرُ الدَّوْرِ، واسع الجَرْى، وما ذاك الا من أجل المبالغة فى المشبّه نفسه فاتسعوا فيهِ بتشبيهات كثيرة

(الضرب الرابع فى تشبيه المركب بالمفرد)

وما هذا حالهُ فهو على النُّدُور والقِلّة، وإنما كان الأمرُ فيهِ كما قلناهُ من القلَّة، لأنهُ لا مبالغةَ فى تشبيه الأشياء المتعدّدة بشئ واحد، فلا جرَمَ كان قليل الاستعمال، ثم هو فى قلّة جريه على وجهين، الوجه الأول تشبيه شيئين مشتركين فى أمرٍ معنوىّ بشيء واحدٍ، ومثالهُ ما قالهُ أبو تمام فى وصف الربيع

يا صاحِبَيَّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُمَا
تَرَيَا وُجُوهَ الأَرضِ كيفَ تَصَوَّرُ
تَرَيَا نهاراً مُشْمِساً قدْ شَابَهُ
زَهْرُ الرُّبَا فكأنما هو مُقْمِرُ

فشبّه النهار المشمس مع الزهر الأبيض وقد اشتركا فى البياض والحسن، بضوء القمر، وهو تشبيهٌ بالغٌ يَقْضِي منهُ العَجَبُ، ويُماثلُ فى نظمهِ وصفائهِ إكْسيرَ الذهب

الوجه الثانى تشبيه شيئين ليس بينهما جامعٌ ولا رابطةٌ تشملهما وهذا كقول أبى الطيب المتنبى

تُشْرِقُ أعْرَاضُهُم وأَوْجههُم * كأنها فى نفوسهم شِيَمُ

فشبه إشراق الأعراض والوجوه بإشراق الشيم ، وهى الخلائقُ الطيّبة ، فإشراقُ الوجوه بيـاضها ، وإشراقُ الأعراض بشرفها وطيبها ، وليس بينهما جامع كما ترى

(التقسيمُ الثانى)

(باعتبار حكمه الى قبيح وحسن)

أعلم أن من التشبيه ما يروقُ منظَرهُ ويُحمَدُ أثرُه ، وهذا هو الأكثر فى التشبيهات ، فإنها جاريةٌ على الرّشاقة فى معظم مجاريها ، فلهذا تكون محمودةً حسنةً ، وربّما لم يكن بين المشبّه والمشبّه به وجهٌ ، أو حصل هناك جامعٌ بينهما ، لكنهُ بعُد ، فلهذا كانت قبيحةً مذمومةً ، فهذان ضربان

الضربُ الأول فيما يكون بعيداً ، فيذمّ ويُستقبح ، وإنما قدّمنا الكلام على ما يكون مذموماً ، لأجل قلّتهِ ونُدُوره ، وأكثرُها جارٍ على اللطافة والرقة

ثم هو على وجهين فى قبحهِ ، الوجه الأول منهما ما كان مُظهر الأداة ، فمن ذلك قول أبى نواس فى وصفهِ الخمر

كأنّ يَواقيتاً رَوَاكِدُ حَوْلها

وزُرْقَ سنانيرٍ تُدِيرُ عيُونَها

فما هذا حالُه من التشبيه مع ما فيهِ من البُعْدِ والرَّكَّة ، فقد اشتمل على نوع غثَاثةٍ وسُخْفٍ في لفظةٍ وبشاعةٍ ، ومن العَجب أنهُ في هذه القصيدة قد قرَنهُ بالفائق الرائق ، والبديع النادر ، الذي أجاد فيهِ وأحْسَنَ وهو قوله

كأَنَّا حلُولٌ بين أَكْنَاف رَوْضَةٍ
إِذا ما سلَبناها مع الليل طينَها

يعني إِذا فضّوا خِتَامَ الدِّنَانِ الخمريّة عن أفواهها ، فكأَنهم في روضةٍ من الرّياض لما يحصل في نُفوسهم عند ذاك من الارتياح والطّرب ، فانظر كيف قرن بين خَرَزِهِ ، وَدُرِّه ، لا بلْ بين بَعَره وعنْبَرِه ، ومما أساء فيه من التشبيه قوله

وإِذا ما الماء واقعها   أَظْهرت شَكْلاً مِن الغزَلِ
لؤلؤاتٍ ينحدرن بها   كانحدار الذّرّ من جبَلِ

فشبّه حبَبَ الخمر في انحداره بنملٍ صغارٍ ينحدرن من جبَلٍ ، فأين هذا من قوله في صفة الخمر

كأَنَّ صغْرَى وكُبْرَى من فواقِعها
حَصْباءُ دُرٍّ على أَرضٍ من الذهب

ولقد أكثر من الخمريّات حتى أتى فيها بما يُخْجِل

الأذهان ، ومما يُنْزِلُ قدْرَه فى الإيمان ، ومن بعيدِ التشبيه ما قاله الفرزوق

يمْشُون فى حلَق الحديد كما مشَتْ
جُرْبُ الجمال بها الكُحَيْلُ المشعل

فشبّه الرجال فى دُروع الزّرَدِ ، بالجمال الجُرْب ، وهذا من التشبيه البعيد لأنهُ إن أراد السواد فلا مقاربَة بينهما فى اللون ، فإنّ لون الحديد أبيضُ ، ومع ما فيهِ من البُعْد ، ففيهِ ايضاً سُخْفٌ وغثَاثَةٌ ، ومن بعيد التشبيه ما أُثِرَ عن أبى الطيب المتنبي

وجرَى على الوَرَق النَّجيعُ القانى
فكأَنّه النَّارَنْجُ فى الأغصانِ

فما هذا حالُه من التشبيه ، قد أنكره أهل هذه الصناعة ، ووسَمُوه بالنزول والشناعة ، ومن ردىء التشبيه ما قالهُ فى بعض القصائد السيّفيّة

شرَفٌ ينْطَحُ النجومَ بِرَوْقيْه ٭ وعِزٌّ يُقَلْقِلُ الأجْبالاَ

فذكرُ الرّوق ليس جيّدا فى المديح ، وكذا لفظ المناطحة ليس فصيحاً ولا دالاّ على البلاغة ، ومن العجب أنهُ قال فى مطلع هذه القصيدة ما يرُوقُ الناظر، ويَشُوقُ القلبَ والخاطر

ذِى المعَالِى فلْيَعْلُونْ مَنْ تَعَالَى

هكَذا هكَذا وإِلاَّ فَلاَلاَ

فالتفاوتُ ما بين الشيئين يدركهُ كلُّ من له ذوق سليم ، وطبعٌ فى الفصاحة مستقيم ، فلقد جمع فى هـذا بين وِرْدَة ، وسعْدَانَة ، لا بل بين بعرةٍ ومرْجَانةٍ ، ومن البَشع المُستنكر فى التشبيه ما قاله بعض الشعراء

ملا حَاجبَيْكَ الشَّيْبُ حتى كأنهُ

ظباءٌ جرى منها سَنِيحٌ وبَارِحُ

وهكذا ورد قولُ آخر فى صفة السِّهام

كساهَا رطِيبَ الرَّصْفِ فاعْتَدلتْ له

قِدَاحٌ كأعناقِ الظِّباء الغَوارِق

فما هذا حالُه لا ملاءمة بين المشبه والمشبه بهِ ، وهما فى غاية البعد

الوجه الثانى ما كان مُضمر الأداة فمن ذلك ما قاله أبو تمام يمدح رجلاً

---

(١) الرصف . مصدر رصف السهم . شدّ على مدْخَل سِنْخَ النصل فى القِدْح بالرِّصاف . وهو وَتَرٌ من عَصَب

وتقاسمَ الناسُ السخاءَ مُجزَّأً
فذهبْتَ أنت برأسِهِ وسنامِهِ
وتركْتَ للناس الإِهابَ وما بَقَى
منْ فرْثِهِ وعرُوقِهِ وعِظامِهِ

فأمّا البيتُ الأول فهوْنٌ فيه وليس وراءهُ كبيرُ معنى ولا بليغهُ ، فإن حاصله أنك ذهبْتَ بالأعلا من السخاء وتركت للناس الأدنى ، والبيتُ الثانى أَرَكُّ وأنزَلُ فى البلاغة ، ومن ذلك ما قاله أيضاً فى غير هذا الموضع

لا تَسقِنى ماءَ المَلام فإنّنى * صَبٌّ قد استعذبْتُ ماءَ بكائى

فما هذا حالُه ليس فاحشاً ولا بليغاً ، وإنما هو متوسطٌ كما قال ابن الأثير ، وهو كما قال ، فإنهُ وإِن نزَل فيما أوردهُ من التشبيه فليس خالياً عن بلاغة فى معناه وجزالة فى لفظه

ويحكى أن رجلاً لمّا سمع هذا البيت لأبى تمام بعث اليهِ بقارُورَة ، وقال هَبْ لى شيئاً من ماء الملام فقال له أبوتمام ابعثْ لِى بريشةٍ من جناحِ الذُّلّ ، حتى أبعَثَ لك ماء الملام ، ليس مرادُ أبى تمّام المماثلة بينهُ وبين التشبيه فى قوله تعالى « واخفضْ لهما جَناحَ الذلّ من الرّحمة » فإن بينهما بوْناً لا تُدْركُ غايتُه ، وبُعْداً لا تُقْطعُ مسافتُه ، وإنما أراد أنّ الاستعارة جاريةٌ فى الماء

obeikandi.com

لجريها فى الجناح ، وهذا مقصدٌ جيّد لا غبار على أبى تمّام فيه
الضرب الثانى ما حَسُنَ فى الصّورة من التشبيه ، وهذا
بابٌ عظيم ، قد اتّسع فيه كلام البُلغاء وأتوا فيه بكل حسَنٍ
بديعٍ ، وتهالكوا فى دقّة المعانى ، ولطائف التشبيه، فمن ذلك
ما قال امرؤ القيس فى صفة الفرس

عَلى الذَّيْلِ جيّاشٍ كأنّ اهتِزَامَهُ
إِذا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ

وقوله

دَرِيرٌ كخُذْرُوفِ الوَليدِ أَمَرَّهُ
تَتَابُعُ كفّيْه بخيْطٍ مُوَصَّلِ

ومن ذلك ما قاله ابن دُرِيد فى صفة الفرس أيضاً

كأنّما الجَوْزاءُ فى أَرْسَاغِهِ والنجمُ فى جَبْهَته إِذَا بَدَا

وقال فى صفة ماء خَال

كأنّما الرِّيشُ على أَرْجَائِهِ
زُرْقُ نِصَالٍ أُرْهِفَتْ لِتُمْتَهَا

ومن ذلك ماقاله ابو الطيب المتنبى فى سيف الدّولة وابنه

أَما تَرَى ما أَرَاهُ أَيّها المَلِكُ
كأَنّنَا فى سَماءٍ مالهَا حُبُكُ

الفرْقدُ ابنُكَ والمصبـاحُ صاحِبُه
وأنت بدْرُ الدُّجَى والمجلسُ الفَلَكُ

وقال يمدح سيف الدولة

أرَى كلَّ ذِى مَلْكٍ إليكَ مَصيرُهُ
كأنّكَ بحرٌ والملوكُ جداوِلُ

وقال فيه أيضاً

ولا مَلْكَ الاَّ أنتَ والملكُ فَضْلَةٌ
كأنكَ نَصْلٌ فيـهِ وهْو قِرَابُ

ومن رقيق التشبيه وبديعه ما قاله الصابى فى صفة الخمر

كأنّ المُديرَ لهـا باليمـين
إذا طافَ بالكأسِ أو باليَسَار
تَدَرَّعَ ثوْبًا مِن اليـاسَمين
له فَرْدُكُمٍّ من الجُلَّنَار

فشبه حُمرة كمّيه عند حمله للكأس من لونها ، بلابسٍ قميصاً من الياسمين إحدى كُمّيه من الجُلنار، وهذا تشبيه حسنٌ بالغٌ ، ومن أبياته التى يشبه فيها مجلس اللهو بالمعركة قال

كأن المَجامِرَ خيلٌ جرَتْ (١)
وقد ثَارَ للندّ فيها غُبَارْ
(٢) دَبادِبَة من طِوَال القِيَان
والنَّايُ بُوقٌ لَهُ مُستَعارْ
ومجلسنا حَوْمَةٌ أُرْهِجَتْ
لزَحف النّدامى إليهَا بِدَارْ

ولنقتصر على هذا القدر من محاسن التشبيه ففيه غُنْيَةٌ وكفاية لمقدار غرضنا ، وستكون لنا فيه عَوْدَةٌ عند ذكر الامثلة بمعونة الله تعالى

(التقسيم الثالث)

(باعتبار صورتهِ وتأْليفهِ الى الطرد والعكس)

اُعلم أنّ أرْبابَ علوم البلاغة متّفقون على أنّ المجاز أبلغُ من الحقيقة فى تأدية المعنى ، وعلى أن الاستعارة أقوى من التصريح ، وأن الكنايةَ أدخل فى إفادة المعانى من تلك الصرائح الموضوعة ، وذلك لأن دلالة هذه الأمور على ما تدلّ

---

(١) هذا البيت بعد هذين البيتين بأربعة ابيات (٢) قبله وهو المطلع

لَالْقَى همومى فى جحْفَلٍ لها من مقَامِيَ فيه قرار

عليهِ ، إنما كان دلالةً باللازم والتابع ، ولا شكّ أن الدلالة على الشيء بلازمهِ أكشفُ لحاله ، وأبين لظهورهِ ، وأقوى تمكُّناً فى النفس من غير ما ليس بهذه الصفة ، فأمّا التشبيهُ ، فإنّما يكون ورُودُه على جهة المبالغة فيما تعلق بهِ ، وهذا هو المطّردُ فى جريهِ ، وقد يَردُ على خلاف ذلك ، فإذَنْ له مرتبتان نوضحهما بمشيئة الله تعالى

﴿ المرتبة الأولى ﴾

(فى بيان التشبيه المطرد)

اعلم أن المبالغة فى التشبيه لا يمكن حصولُها إلاّ إذا كان المشبّهُ بهِ أدخلَ فى المعنى الجامع بينهما ، إمّا بالكِبَرِ كقوله تعالى « ولهُ الجَوارى المنْشَآتُ فى البحر كالاعلام » فمثّلها بالجبال لَمّا كانت الجبال أكبرَ من السُّفُن ، وهكذا القول فى السواد ، والبياض ، والحمد ، والذمّ ، والإيضاح والبيان ، الى غير ذلك من الأوصاف الجارية فى التشبيه ، وآيةُ ذلك وعلامتُه أنهُ لا بدّ من أن تكون لفظةُ (أفْعَلِ التفضيلِ) جاريةً فى التشبيه وهذا يدلّ على ما قلناه من اعتبار زيادة المشبّه بهِ على المشبّه فى تلك الصفة الجامعة بينهما ، فإن لم يكن

الأمرُ على ما قلناهُ من الزيادة كان التشبيه ناقصاً وكان معيباً، ولم يكن دالاّ على البلاغة ، وهكذا الحال إذا كانا حاصلين على جهة الاستواء فلا مبالغة فى ذلك ، فإذَنْ لا بدّ من اعتبار الزيادة كما أشرنا اليهِ ، وهو فى ذلك على أربعة أوجهُ (أوّلها) تشبيهُ صورةٍ بصورةٍ كقوله تعالى « كالفَرَاشِ المبْثُوثِ » شبّه الناس يوم القيامة فى الضّعفِ والْهَوانِ بالفراش ، لما فيهِ من الدّقّة ، ، وضعف الحال ، وقوله تعالى « وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنْفُوشِ » شبّه الجبال مع اختصاصها بالصّلابة والقوّة ، بأضعف ما يكون وأرْخَاهُ ، وهو الصّوف لأنهُ ألين ما يكون عند نفشهِ ، وما ذاك الاّ لإظهار باهر القدرة ، مبالغةً فى الرّدّ على مَنْ أنكر المَعاد الأُخْرَوىّ ، وتكذيباً لمن حَاكَ فى صدره استبعادُ ذلك ، (وثانيها) تشبيه معنىً بمعنىً كقولك : زيدٌ كالأسد فى شجاعتهِ ، وكالأحْنَفِ فى حلمه ، وكإِيَاسٍ فى ذَكائهِ ، وكحائمٍ فى جُوده ، وكعَنْتَرَة فى شجاعته ، الى غير ذلك من التشبيهات المعنوية (وثالثها) تشبيهُ معنىً بصورة ، وهذا كقوله تعالى « والّذين كفروا أعمالُهم كرَمَادٍ اشتدّت به الريحُ وقوله تعالى « والذين كفروا أعمالُهم كَسَرَابٍ بقِيعَةٍ » مثّلها فى تلاشيها وبُطلانها بأمرين أسْرَعَ

ما يكون فى الزوال ، وأعظمَ شئ فى البطلان ، وهما الرّمادُ مع شدّة العَصف ، والترابُ فى الصّحارى ، فإنهما عن قريب وكأنهما ما كانا ، وما هذا حالهُ من التشبيه كثيرُ الدَّوْرِ والجَرْى ، ويختص بالبلاغة ، لما فيهِ من إلحاق غير المحسوس بالمحسوس ، وإجرائهِ مُجْرَاهُ (ورابعها) تشبيهُ صورةٍ بمعنى وهذا كقول ابى تمام

وفتكْتَ بالمال الجزيلِ و بالعِدَا
فَتْكَ الصّبابَة بالمُحِبِّ المُغْرَم

فشبّه فتْكه بالمال ، و بالعدا ، وذلك من الصورة المرئية ، بفَتْك الصّبابة ، وذلك أمرٌ معنوىٌّ ليس محسوساً ، وهذا من لطيف التشبيهات وأرَقّها وأدْخَلها فى البلاغة ، وأدقّها ، ووجهُ البلاغة فيهِ ، هو إلحاقُ المعانى بالأمور المحسوسة المدركة فى الظهور والجَلاء ، فيصيرُ فى الحقيقة كأنهُ تشبيه محسوس بمحسوس ، وفى هذا نهاية المبالغة ومنهُ قول بعض المُغْرمين

ولقد ذكرتكِ والظَّلامُ كأنّهُ
يومُ النوى وفؤادُ من لم يَعْشَقِ

وكقول بعضهم

كأنَّ ابيضَاضَ البَدْرِ من تحْتِ غيْمِهِ
نجاةٌ من البأْسَاءِ بعْدَ وُقُوعِ

وكقول بعض الأدباء

فانهَضْ بنَارٍ الى فَحْمٍ كأنهما
في العينِ ظُلْمٌ وإِنصافٌ قد اتّفقا

وكما قال بعض الطلّاب

رُبَّ لَيْلٍ كأَنّه أملِي فيـ لكَ وقد رُحْتُ عنك بالحرْمانِ

وأنشد ابنُ الخطيب قولَ الصّاحِبِ الكافى حين أهدى عِطْرًا الى القاضى أبى الحسن

أيُّها القاضِى الذى نَفْسى لَهُ
فى قُرْبِ عَهْدِ لقائِهِ مُشْتَاقَهْ
أهْدَيْتُ عِطْرًا مثلَ طِيبِ ثِيَابِهِ
فكأنما أُهْدِى له أَخْلاَقَهْ

وقد يُقال : إِسلاَمٌ كنور الشمس ، وجهلٌ كظلمة الليل ، وحُجّةٌ كضوء القمر ، وكلَّ ما أوردناهُ على اتساعِهِ ووضوح أمرِهِ جارٍ على الاطّراد فى تشبيه الأدنى بالأعلا ، والأقل بالأكثر ، والفاضل بالافضل ، والحقير بالأحقر ، كما قرناهُ ومنهُ قولِ امرئ القيس فى صفة الفرس

كأَنَّ سرَاتَهُ لَدَى البيتِ قائماً

مَدَاكُ عرُوسٍ أوْصلاَيَةُ حَنْظَلِ

وقال ابنُ دُرَيْدٍ فى صفة السيف

كأَنَّ بين عَيْرِهِ وغَرْبِهِ

مُفْتَأَداً تَأَكَّلَتْ فيهِ الجُذَا

وقول عمْرو بن كُلْثوم يصف امرأة

وثَدْياً مِثْلَ حُقِّ الْعَاجِ رَخْصاً

حَصَاناً منْ أكُفِّ اللامِسِينَا

ونحراً مِثْلَ ضَوءِ البَدْرِ وافى

بأسْعَدِهِ أُنَاساً مُدْجِنِينَا

وقوله فى صفة الخمر

مُشَعْشَعَةً كأَنَّ الحُصَّ فيها

إِذا مَا المَاءُ خالَطَها سَخِينَا

والحُصُّ، الوَرْسُ، لأنها إِذا مُزِجت بالماء رقَّتْ بصُفْرَةٍ فاقِعَةٍ

(المرتبة الثانية)

(فى بيان التشبيه المنعكس)

اعلم أن هذا النوع من التشبيه ، يَرِدُ على العكس والندور ، وبابُه الواسع هو الاطّراد كما أشرنا اليهِ ، وإنما لُقِبَ بالمنعكس ، لِمَا كان جارياً على خلاف العادة والإلْف فى مجارى التشبيه ، وقد يُقال له غلبةُ الفروع على الأصول ، وكلُّ هـذه الألقاب دالّةٌ على خروجهِ عن القياس المطرد ، والمَهْيَعِ المُسْتَمِرّ ، وله موقعٌ عظيم فى إفادة البلاغة ، وقد ذكره ابن الأثير فى كتابهِ المثل السائر وقرّرهُ ابن جنّى فى كتاب الخصائص ، والشرطُ فى استعماله أن لا يرد الاَّ فيما كان مُتَعَارَفًا ، حتى تظهر فيهِ صورةُ الانعكاس ، كما سنقرّره فى أمثلتهِ ، لأنهُ لو ورد فى غير التعارف لكان قبيحاً ، لأن مطّرَد العادة فى البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلا ، فاذا جاء على خلاف ذلك فهو معكوس ، ومن الأمثلة الواردة فيـهِ قول ذى الرّمّة

ورملٍ كأرْدَافِ العَذَارَى قَطَعْتُهُ
إِذا لَبِسَتْهُ المُظْلِماتُ الحَنَادِسُ

فانظر الى ما فعله ذو الرّمة ، كيف جعلَ الأصلَ فرعاً ، والفرع أصلاً ، وذلك أن العادة جارية بتشبيه أعجاز النساء ، بكُثْبان الأَنْقاء ، فعكَسَ ذو الرّمة القضية ، فشبّه كُثْبان الأَنْقاء بأعجاز النساء ، وإنما قصد بذلك المبالغة فى أن هذا المعنى قد صار ثابتاً للنساء بحيث لا يَتَمارَى فيهِ أحَدٌ ، فلا جرَمَ كان أصلاً فى التقرير ، وغيرُه فرعاً له ، وقد تابعهُ البُحترى على هذا فى قوله

فى طلْعَةِ البدْرِ شيءٌ من محاسنِها

وللقَضيب نَصيبٌ من تَثَنّيها

فالعادةُ جاريةٌ على جهة الاطّراد فى تشبيه الوجوه الحسنة بالبدور ، فعكَسَ البحترىّ هذه القضية ، وشبّه البدر بها ، مبالغة فى الأمر ، وتعظيماً لشأنها ، ومن هذا القبيل ما قاله عبدُ الله بن المعتزّ فى قصيدته المشهورة التي مطلعُها ، (سقَى الجزيرةَ ذاتَ الظّلِ والشجرِ) فقال منها

ولاَحَ ضوْءُ هلالٍ كادَ يَفْضَحُنَا

مِثْلُ القُلاَمَةِ إِذْ قُصَّتْ من الظُّفُرِ

فالجارى فى الاطّراد ، هو تشبيهُ القُلامة من الظّفُر بالهلال فى نحولها ، وتقوّسِها ، واعوجاجها ، فعكس ابنُ المعتزّ

ذلك ، وشبّه الهلال بالقُلامة ، مبالغةً ودخولاً وإغراقاً من جهتهِ فى التشبيه كما هو دَأْبُهُ وهِجّيرَاهُ ، وعادتُهُ المألوفةُ فى الخَمْرِيّات وغيرها ، فحاصلُ الأمر فيما ذكرناه من تشبيه العكس ، أنّ جريَهُ إنما يكون فيما قد أُلِفَ وعُرِف حالهُ ، فلهذا لم يلتبس حالهُ ، فأمّا ما لا يُعرف حالهُ ولا يؤْلَف فلا يجرى فيهِ ، فإن جرى فعلى القلّة والندور ، ويكون من التشبيه المهجور الذى قد بَعُد عن البلاغة ، ونأَى بعض النأى عن استعمال الفصحاء

(التقسيم الرابع)

باعتبار أداته الى ما تكون أداةُ التشبيه ظاهرةً ، وهى الكاف ، وكأنّ والى ما تكون مُضمرةً فيه ، وكلٌ واحد منهما معدودٌ من التشبيه ، فهذان ضربان نذكر ما يتوجّه فى كل ضرْب منهما

(الضرب الأول ما تكون الأداة فيهِ مضمرة)

اُعلم أنا قد أسلفنا فيما مرّ أن كلّ ما كان من التشبيه مضمر الأداة ، فهل يُعَدُّ من الاستعارة ، أو يكون معدوداً من أنواع التشبيه ، وذكرنا خلاف علماء البيان فيه ، وحققنا

أن المختارَ فيهِ أن كلّ ما كان تقديرُ التشبيه يُخرجهُ عن حدّ البلاغة وجب عدُّه من باب الاستعارة، وكلّ ما كان تقديرُ التشبيهِ لا يُخرجه عن حدْ البلاغة، فهو من التشبيه، فلا وجه لتكريره، ونحنُ الآن نذكرُ كلَّ صورةٍ من صُوَر التشبيه المضمر الأداة، ونُرْدِفُها بمثالها من المفرد، والمركب، ونُطبّقُ أحدهما على الآخر، فيحصلُ الأمران جميعاً فى كلّ صورة من صُوَره المذكورة بمعونة الله تعالى

(الصورة الأولى)

ما يقع موقعَ المبتدإِ والخبر المفردين كقولك: زيد الأسد، والأسد زيدٌ، وزيدٌ أسد، وقد يأتى على جهة الفاعل كقولك: جاءنى الأسد، وكلمنى الأسد، وقد يأتى على جهة المفعول كقولك: رأَيت الأسد: ولقيت البحر، فما هذا حالهُ من الاستعارة التى لا تظهر فيها أَداة التشبيه يعرف ببديهة النظر على قُرْبٍ من غير حاجة الى تأمّلٍ ونظر، ولهذا تقول فيه زيد كالأسد، وكالأسد زيد، ولا تحتاج الى تكلّفٍ وإِضْمار

(الصورة الثانية)

أن يقع موقعَ المبتدإِ ويكون الخبر مُضافاً ، ومضافاً اليهِ ، ومثاله قوله عليه السلام « الكَمْأَةُ جُدَرِىُّ الأرض » وكقولك : إِقْدَامُهُ إِقدامُ الأسد ، وفَيْضُهُ بجوده فَيْضُ البحر ، والكمأةُ ضَرْبٌ من النبات ، إِذ اخرج فى الأرض ، أفسدها ، ونقَصَ زَرْعُها ، وهـذا هو مُراد الرسول بقوله « جدرىّ الأرض » أراد أنهـا مُفسدة الأرض ، كما يُفسد الجُدرىّ البدَنَ ، وهى نبْتٌ يؤكَلُ ، وهو باردٌ مولِّدٌ للبلْغَم ، ويُقال أَكْمَأَتِ الأرضُ ، إِذا أنبتت الكمأةَ ؛ وتكَمَّأْتُ إِذا أكلْتَ الكَمْأَةَ

(الصورة الثالثة)

أن يقع موقع المبتدإِ والخبر من جهة تركيبهما جميعاً فتُرَكِّبُ المبتدأ بالإِضافة وتركّب الخبر مثل ذلك ، فتركيب الإِضافة حاصلٌ فيهما جميعاً ، بخلاف الصورة الثانية ، فإِنّ التركيب إِنما وقع بالاضافة فى الخبر لا غيرُ ، ومثالُ هذا الحديثُ الواردُ عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما رواهُ ابن

عُمَر رضى الله عنهُ حين قال لهُ مُعَاذُ بن جبَل « أَنُؤَاخَذ بما نَتَكَلَّمُ ، فقال : وهلْ يَكُبُّ الناسَ على مناخِرِهمْ فى النارِ الاّ حصَائِدُ أَلسنتِهم » فالتقديرُ على هذا يكون: كلامُ الألسنة كحصائد المَنَاجِل، وحَصْدُ المِنجل جَزُّه، والمِنْجَلُ حديدة حادّة يُقَلّمُ بها البَيْطارُ حافرَ الفرس ، فعلى هذا حصيدة اللسان طَرَفُه

(الصورة الرابعة)

ما يرد على جهة الفعل والفاعل ، ومثالُه قولهُ تعالى « والذين تَبَوَّؤُا الدّارَ والإيمان » والتقدير على هذا فى ظهور التشبيه ، أن يقال : إنهم فى الحقيقة لمّا تمكّنوا فى الإيمان واطْمَأَنّوا أفْئِدةً به ، كأنهم فى التقدير اتّخذوه مبَاءَةً وَمسْكَناً ، كما يَتّخذُ الانسانُ داره وبيتَهُ الذى يسكن فيه ويكاد فى هذه الاستعارة يضعُفُ تقدير أداة التشبيه كما سنقرر مراتب التشبيه فى الظهور والإخفاء بمعونة الله تعالى

(الصورة الخامسة)

أن يكون واقعاً موقعَ المثَل المضروب ، وهذا كقول الفرزدق يهجو جريرا

ما ضَرَّ تَغْلِبَ وائلٍ أَهَجَوْتَها
أمْ بُلْتَ حيثُ تَنَاطَحَ البَحْران

فشبّه هجاءَ جرير، تغلب وائل، ببوْله فى مجتمع البحرين، فما عسى أن يؤثر فيهما شيئاً، فهكذا هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثّر أصلاً، فيكاد التشبيه فى ما هـذا حاله لا يظهر الاّ بتقديرٍ وتلطّفٍ واحتيالٍ فى إبرازه، فإذا تمهّدت هذه القاعدة فلنذكر مراتب التشبيه فى هذه الصورة، ثم نُرْدِفُه بموقعها فى المفرد والمركب فهذان طرفان نحقّق ما فيهما بمعونة الله تعالى

(الطرف الأول)

(فى بيان مراتب التشبيه فى هذه الصورة)

اُعلم أن التشبيه المضمر الأداة أبلغُ وأوجزُ من التشـبيه الذى ظهرت أداتُه، أمّا كونُه أبلغَ فلأنك إذا قلت: زيد الأسدُ، فقد جعلتهُ نفسَ هذه الحقيقة من غير واسطةٍ، بخلاف قولك زيد كالأسد، فليس يفيد الاّ مطلق المشابهة لا غيرُ، وأمّا كونُه أوْجزَ، فلأن أداة التشبيه محذوفةٌ منهُ، فلهذا كان أخْصَرَ من جهة لفظه، وعن هذا قال المحققون من أهل هذه الصناعة: إن الاستعارة أبلغ من

التشبيه لِمَا ذكرناهُ ، ولا خلافَ فى عدّ الاستعارة من باب المجاز بخلاف التشبيه، فإنه مختلفٌ فى عده كما أسلفناه ، ولأن الاستعارات فى القرآن أكثر من التشبيهات ، ومن أجل هذا عظُمَتْ بلاغتهُ ، وارتفعتْ فصاحتُه ، فنقول : التشبيه المضمر الأداة هو فى الظاهر يعد من باب الاستعارة ، لكن التشبيه مضمرٌ فيهِ ، ويتفاوت درجةً فى ظهور الأداة وإضمارها ، وفى حصول المشبّه به وعدم حصوله ، فمنها ما هو ظاهرٌ متيَسّرٌ تقديرُه على سهولة ، ومنها ما يتعذّر تقديرُ المشبّه بهِ ، وإنما يتلطّفُ فى تقديره بنوع من الاحتيال والتلطّف ، ومنها ما هو متوسط بين الدّرجتين ، فهذه دَرَجٌ ثلاثٌ بالإضافة الى تقدير المشبّه فى الإضمار والإظهار نفصّلُها بعونة الله ولطفه

الدرجة الأولى ما يكون المشبّه بهِ ظاهرَ التقدير لا يحتاج فى تقديره الى تكلّف ، بل يتيسّر تقديرُه على قُرْبٍ ، وهذا كقولنا : زيد الأسد ، فإنّ التقدير فيه زيد كالاسد على سهولة من غير إضمار ولا خروجٍ عن قاعدة ، وهكذا قوله صلى الله عليهِ وسلم « البدعة شرَكُ الشرْك » لان التقدير البدعة كالشّرَك للشرْك ، يريد مصايد له وأُحبُولات ، ومنهُ قولُ أمير المؤمنين كرّم الله وجههُ فى صفة التقوى «هى دَوَاءُ دَاءِ

قلوبكم ، وبصرُ عمىَ أفئدتكم » وقال فى الإسلام « هوينا بيعُ غَزُرَتْ عيونُها ، ومصابيحُ شَبَّتْ نيرانُها ، ومنارُ اقتدى به سُفّارُه ، ومناهلُ رَوِىَ بِهَا وارِدُها » وقال فى القرآن « هو نورٌ لا تُطْفَأُ مصابيحُه ، وشُعاعٌ لا يخبُو توَقُّدُه ، وبحرٌ لا يُدركُ قعرُه » فهذه الاستعارات كلها من التشبيه المضمر الأداة تظهر فيها أداة التشبيه على أسهل حال ، وأقرب منال ، كما مثلناه فى الصورة الأولى

الدرجة الثانية فى غاية البعد من الأولى وهى الصورة الرابعة والخامسة وهى أدقُّ الصور فى تقدير التشبيه فيها ، فلا يُتفَطّن للتشبيه فيهما الاّ باستخراج وتأمّلٍ وفكرٍ بالغ ، يدرك بنوعٍ من التلطّف والاحتيال كما سنوضحهُ ، وما ذاك الاّ لأجل توغُّلها فى حسن الاستعارة وإغْراقها فيها ، وهذا يدلك على مصداق ما قالهُ أهل البراعة من أهل هذه الصناعة ، من أن التشبيه كلما ازداد خفاءً ازدادت الاستعارة حسناً ورشاقةً ، يشيرون به الى ما ذكرناه ، ومثالهُ قولهُ تعالى « والّذين تبوّءُوا الدار والإيمان » فهذه الاستعارة من أعجب الاستعارات وأدقها ، ووجهُ دخولها فى الحُسْن ، هو أنّهم لتمكنهم فى الإيمان وإشْراب قلوبهم محبّتَه ، والتصاقِه

بلحومهم ودمائهم، صار كالمبَآءة لهم والمسكن الذى يتوطنونه، ومع هذا يصعُب تقديرُ التشبيه ، ونهايةُ الأمر فيه أن يقال : إنهُ صار كالمَبَآءة، وعند تقدير ماذكرناه من التشبيه يضعف أمر الاستعارة ، وينزلُ قدرُها ، ويركّ أمرُها وحالُها

وأمّا بيتُ الفرزدق الذى أنشدناه وهو قولهُ (ما ضرّ تغلب وائل) فهذا البيت من الأبيات التى علا قدرُها فى البلاغة وأقرَّ لها الناسُ بالحسْن فى الاستعارة ، وما ذاك الاّ لاغْرَاقها فى الاستعارة والدخول فيها ، فتقديرُ التشبيه فيها يُخرجها عن مكانها الرفيع ، ومحلّها المَنيع ، ونهايةُ الأمر فى تقدير التشبيه فيها ، أن يقال : إن هجاءك لهذه القبيلة لا يؤثر كما أنّ بولَكَ فى مجتمعَ البحرين لا يُجْدى ولا يكون نافِعًا ، وأنتَ إذا قدّرت التشبيه فيما ذكرناه ، فقد عزلتَ هذه الاستعارة عن سلطانها ، ووضعْتَها عن حُلولها فى رفيع مكانها ، ومن هذا قولهُ تعالى « واخفض لهما جناحَ الذّل من الرّحمة » فإنّ تقدير التشبيه يُخرجه عن رَوْنق الاستعارة ، ويسلبُه منها ثوْب الإمارة ومن هذا قول الفرزدق أيضاً

قوَارِصُ تأْتِينِى فيحْتَقِرونها
وقد يَمْلأُ القَطْرُ الإناءَ فيفْعَمُ

شبّه ما يأتيه من الشتائم والأذايا بهذه القوارص التى تؤذى الجسمَ من البعوض ، والنمل ، والبَقّ ، فتقديرُ التشبيه فيما هذا حالُه يَدِقُّ كما ذكرناه فى غيره ومنهُ قول البحترى أيضاً فى التعزية بولد

تعَزَّ فإن السيفَ يَمْضِى وان وَهَتْ
حمائلهُ عنهُ وخلاَّهُ قائمهُ

فما هذه صورتُه فهو من فنّ الاستعارة ، وإنما يُقدَّر التشبيه فيهِ بلُطْفٍ واحتيال ، فهاتان الصورتان الأحق بهما أنهما من باب الاستعارة كليهما ، ولا حاجة بنا الى جعلهما من باب التشبيه ، فمن صيّرهما منهُ فإنّما هو متكلّف فيما جاء بهِ

الدرجة الثالثة للصورة الثانية والثالثة ، فإنها متوسّطة بين الدرجتين ، فلا هى تقرُب من التشبيه كالصورة الأولى ، ولا هى بعيدة من التشبيه كالرابعة والخامسة ، والمثالُ فيها قوله صلى الله عليهِ وسلم « الكمْأَةُ جُدَرِىُّ الأرض » وقول أمير المؤمنين كرم الله وجههُ فى صفة الدّين والإسلام « فهو عند الله وثيقُ الأركان ، رفيع البنيان ، مُنير البرهان ، مُشرق المنار ، عزيزُ السلطان » فأنتَ إذا أردت إظهار التشبيه فيما هذا حاله قلت فى الخبر النبوىّ الكمأة للأرض كالجُدرى ، وهكذا

تقول فى كلام أمير المؤمنين أركانه كأوثق ما يكون من الأركان ، وبُنيانه كأرفع ما يكون من الأبنية ، وبرهانُه كأنور ما يكون ، الى غير ذلك من التقدير ، ومن هذا قول البحترى

غمامُ سحابٍ لا يَغِبُّ لهُ حيًا
ومِسْعَرُ حَرْبٍ لا يَضِيعُ لهُ وَتْرُ

فإذا قدّرت فى هذا أداة التشبيه فانك تقول : سماحٌ كالغمام ، وحربٌ هُولها كالمِسْعر ، وهو مُوقدُ النار ، وكقول أبى تمام

أىُّ مرْعَى عِينٍ ووادِى نَسيبٍ
لَحِبَتْهُ الأيامُ فى مَلْحُوبِ

ومرادُ أبى تمام أن يصف هذا الموضع بأنهُ كان حَسَنًا فأذالت الأيام حسنهُ وأنهُ كان يُنسّب بهِ فى الاشعار لطيبهِ ، فإذا قدّرنا أداة التشبيه فإنا نقول : مكانٌ كأنهُ مرعًى للعين ، وكأنهُ كان للنسيب منزلاً ومألفًا ، فهكذا يُصنع بما هذا حالهُ ، فينحلّ من مجموع ما ذكرناه ههنا أنْ كلّ ما كان من التشبيه المضمر الأداة ، فإن تقدير أداة التشبيه إمّا أن يكون فى غاية القوّة كالدرجة الأولى ، وإمّا أن يكون فى نهاية الصعوبة

والضعف كالدرجة الرابعة والخامسة ، وإمّا أن يكون متوسّطاً كالدرجة الثانية والثالثة ، ولا مزيدَ على ما أوردناه من هـذا التقرير ، وعلى الناظر إعمالُ نظَره فى كلّ صورة ترد عليهِ فيما يتعذّر من ظهور أداة التشبيه ، وما لا يتعذّر والله اعلم

(الطرف الثانى)

(فى بيان مواقع الإفراد والتركيب)

اُعلم أنا قد أسلفنا أن التشبيه المضمر الأداة لا ينفكُّ عن تلك الصور الخمس ، وهى منطبقة على الإفراد والتركيب ، ونحنُ الآن نوردُ كيفية انطباقها على المفرد والمركب فنقول : أمّا الصورةُ الأولى فهى واردة فى تشبيهِ المفرد بالمفرد ومثاله قولنا : زيد الأسد ، وزيد البحر ، ومن هـذا قوله تعالى « وجعلنا الليل لِبَاساً » وقوله تعالى « هنّ لباسٌ لـكم وأنتم لباسٌ لهنّ » وقوله تعالى « نساؤكم حَرْثٌ لـكم » فقوله فى ذكر اللباس من الاستعارات التى استَبدَّ بها القرآنُ ولم تأتِ فى غيرهِ فى كلام منظوم ولا منثور ، وهى من عجائب الاستعارة ودقيقهـا ، وقوله « نساؤُكم حرث » من الاستعارات البديعة أيضاً ، ومنهُ قوله تعالى « نسلَخُ منهُ النهار » فشبه انقطاع الليل

من النهـار بمنزلة سلخ الأديم عن المسلوخ ، لشدّة التحامهِ وصعوبة خروجهِ ، وانقطاعهِ بالـكلية ، كما مثلناهُ وهذا التشبيه فى غاية المناسـبة والملائمة لمـا هو لهُ ، ومن ذلك ما قالهُ أبو الطيب المتنبي

وإِذا اهتزّ للندى كانـ بحراً
واذا اهتزّ للوغى كان نصْلا
وإِذا الارض أظلمتْ كان شمساً
وإِذا الارضُ أمْحلَتْ كان وَبْلا

ومنهُ قولهُ أيضاً فى هذا المثال

خرَجْنَ من النّقْعِ فى عارِض
ومِنْ عرَقِ الرَكْضِ فى وَابِلِ
فلمـا نَشِفْنَ لَقِينَ السّيَاطَ
بمثلِ صفَـا الْبَلَدِ المَاحلِ

وأمّا الصورة الثانيةُ فإِنما ترد فى التشبيهِ المفرد بالمركب ، ومثاله قوله صلى الله عليـهِ وسلم « الـكمْأَةُ جُدَرىّ الأرض » ومنهُ قول البحترى (غمامُ سحاب) وقول أبى تمام (أىّ مرعى عين) وقد أسلفناهُ ، وهـكذا ما حكيناهُ عن أمير المؤمنين ، فإِنهُ من باب تشبيهِ المفرد بالمركب ، وهو كثيرُ الدَّوْر ، وأما

الصورة الثالثة فمثالها قوله صلى الله عليهِ وسلم فى حديث مُعاذ (وهل يكُبُّ الناس على مناخرهم فى النار الا حصائد ألسنتهم) كأنهُ قال كلامُ الناس كحصائد المناجل ، ومن علامة هـذه الصورة التى هى تشبيه المفرد بالمركب ، أنهُ لا يكون المشبه بهِ مذكوراً ، بل المذكور صفتهُ ، وهو الحصْدُ ، فيكون تقديرهُ ، الألسنة فى كلامها كالمناجل المحُصدَة فيكون على هذا تشبيه مفرد بمركب ، وأما الصورة الرابعة والخامسة فإنما يردان فى تشبيهِ المركب بالمركب ، فأمّا الرابعة فمثّلناها بقولهِ تعالى (والذين تبوّؤا الدار والايمان) كأنهُ قال المؤمنون فيما تلَبّسُوا بهِ من الإيمـان وتمكّنوا فيـهِ كمن اتّخذَ داراً وتبوّأها مسكناً ، فقد ظهر لك بما ذكرناهُ صورة التركيب فيهما جميعاً ، ومن هذا قول أبى تمام

نطقتْ مُقلَةُ الفتَى الملْهُوفِ
فتَشكّتْ بفَيْضِ دمعٍ ذَرُوفِ

وإذا أردنا إظهار تركيبهِ قلنا : دمعُ العين الباكية فى حالها ، كاللسان الناطق ، وأمّا الخامسة فمثّلناها بقول الفرزدق (ما ضرّ تغلب وائل) البيت وبقول البحترى (تعزّ فإن السيف) البيت وبقول الفرزدق أيضاً (قوارص

تأتينى) ومتى أردت إظهار التركيب فى هذا فانك تقول : هجاؤك فى حق هذه القبيلة ، بمنزلة بَوْلةٍ مجتمعة فى ملتقى البحرين ، وهكذا قوله فى القوارص ، كأنهُ قال : القوارصُ المجتمعةُ فى تأثيرها فى الألم والأذية ، مشبهة بالقطر القليل الذى يجتمع فيملأ الاناء ونحو قوله (تعزّ) فإنّ تقدير ظهور التركيب فيهِ أن يقال : أنت فيما أصابك مِن فقْدِ مَن فقدتهُ ، بمنزلة السيف الماضى وإن انقطعتْ حمائله وخلاّه قائمه ، فقد ظهر بما حققناه ههنا انطباق الصور الخمس على أقسام المفرد والمركب ، وأن كل صورة منطبقة على قسم من المفرد والمركب من غير مخالفة فى ذلك وباللهِ التوفيق

« الضرب الثانى ماتكون الاداة فيهِ ظاهرة »

اُعلم أنّ ما هذا حاله ، فمُضْطَرَبُ البلاغة فيه واسعٌ ، ومَيْدانُها لديهِ فسيحٌ ، وممّا أغْرقَ فى الاعجاب والبَداعة وأذْهشَ الألباب من أهل هذه الصناعة قولُه تعالى « ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فكأنما خرَّ من السماءِ فتَخْطَفُهُ الطيرُ أَوْ تَهْوى به الرّيحُ فى مكانٍ سَحِقٍ » وقوله تعالى « أَومَنْ كان مَيْتاً فأحيَيْناهُ وجعلْنا لهُ نُوراً يَمْشِى بهِ فى النّاسِ كمَنْ مَثَلُه فى

الظُّلُمات ليس بخارجٍ مِنها » وقوله تعالى « مَثَلُ ما يُنْفِقُون في هذه الحياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قومٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهم فأَهْلَكَتْه » فهذا وأمثالُه من التشبيهات المركبة الفائقة التي أغرقَتْ في الفصاحة ، ورسخَتْ أُصُولُها في البلاغة ومن هذا قولُ أمير المؤمنين في وصف الفِتَن « أقْبلتِ الفتن كالليل المُظْلِم ، والبحرِ المُلْتَطِم ، لا تَقُومُ لها قائمة ولا تُرَدُّ لها رَايَةٌ » فشبّهها بالليل لما يكون فيها من ظُلَم الجهل ، وشبّهها بالبحر لما فيها من شدّة اضطراب الآراء واختلاف الأهواء وقوله في تحريض أصحابه على القتال « ولقَدْ شَفَى وحَاوِحَ صَدْرِي أنْ رأيتُكُمْ بأَخرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كما حَازُوكُمْ وتُزَايِلُونهمْ عن مواقعِهم كما أزالُوكم حَسْاً بالنّبال ، وشَجْراً بالرّماح ، تَرْكَبُ أُولاهم أُخْرَاهم ، كالإبِلِ المَطْرُودَةِ ، تُرْمَى عن حياضها ، وتُذَادُ عن موارِدِها » وكمْ له من التشبيهات التي فاقَ فيها على البُلغاء ، ولم يزاحمهُ أحدٌ من مصاقع الخُطباء ، ومن جيّد التشبيه ما قاله البحتري

خُلُقٌ منهمُ تردّدَ فيهم
وَلِيَتْهُ عصابةٌ عن عِصابَهْ

كالحُسَامِ الجُرَازِ يبْقَى على الدّهْ
رِ ويُفْنِى فى كلّ حينٍ قِرابَهْ

ومن ذلك ما قاله بعض الشعراء

تراهمْ ينظرون الى المعالى
كما نظَرت الى الشَّيْبِ المِلاحُ
يُحِدّونَ العيون إلىَّ شَزْراً
كأنىّ فى عيونهم السماح

وكقول أبى تمام يهجو إِنساناً

كم نعمةٍ لله كانتْ عندَه * فكأنها فى غُرْبَةٍ وإِسَارِ
كُسِيَتْ سبَائِبَ لؤْمِهِ فتضاءلت
كتَضاؤُل الحسْناء فى الأَطْمَار

فهذا ما أردنا ذكرهُ فى تقسيم التشبيه وبيان ضروبِهِ وأنواعهِ

المطلب الثانى

(فى بيان الأَمثلة الواردة فى التشبيه)

اُعلم أن التشبيه هو بحرُ البلاغة وأبو عُذْرَتِها ، وسِرُّها ولُبَابُها ، وإِنسان مُقْلَتِها ، ونورد من أمثلته أنواعاً خمسة

(النوع الأول)

من الآى القرآنية وهذا كقوله تعالى فى الحيوانات « كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بيتاً وإنّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ » وقوله تعالى « كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً » وقوله تعالى « كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عليهِ يَلْهَثْ » الآية وقوله تعالى « إِنّ اللهَ لا يَسْتَحيِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مّا ، بَعُوضَةً فما فوقَهَا » وفى غير الحيوانات كقوله تعالى « كَمَثَلِ صَفْوانٍ عليه تُرابٌ » وقوله تعالى « كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌ » وقوله تعالى « أو كَصَيِّبٍ من السّماء » وقوله تعالى « أو كظُلُماتٍ فى بحْرٍ لُجّيٍّ » وقوله تعالى « كماءٍ أَنْزلناهُ من السماء » وقوله تعالى « كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بهِ الريحُ » وقوله تعالى « كسَرَابٍ بقيعةٍ » وفى العقلاء كقوله تعالى « واضْرِبْ لهم مثلاً رَجُلَيْنِ » وقوله تعالى « ضربَ اللهُ مَثَلاً عبْداً مملُوكاً » وقوله تعالى « واضْرِبْ لهم مثلاً أصحابَ القَرْيةِ » وقوله تعالى « ضَرَبَ اللهُ مثَلاً رجُلاً فيهِ شُرَكَاءُ مُتَشاكِسُونَ » فهذا وأمثاله إِنما ورد فى التشبيهات المفردة وأمّا المركبةُ فقد مثّلناها فى التقسيم فأغنى عن إِيرادها ، ومن هذا قوله تعالى « مثَلُ الذين يُنْفقون أموالَهم فى سبيل اللهِ كَمَثَلِ

حَبّةٍ أَنْبَتَتْ سبعَ سَنَابِلَ فى كلّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ » وقوله تعالى « مثَلُ ما يُنفقون فى هذه الحياة الدّنيا كَمثل رِيحٍ فيها صِرٌّ أصَابَتْ حرْثَ قومٍ ظَلَمُوا أنفسهم فأُهلكَتْهُ » فجميعُ ما أوردناهُ ههنا من الأَمثلة المفردة والمركبة، وفى القرآن الكريم أمثال كثيرة ، وهى غيرُ خارجة عمّا ذكرناه فى الإِفراد والتركيب فى مُظهر الأَداة ، فامَّا ما كان من التشبيهات الرائقة مما أُضمر فيهِ أداةَ التشبيهِ فهو كثير الدَّوْرِ والاستعمال فى التنزيل ، وما ذاك الا لرشاقتهِ وحسن موْقعهِ ولطافتهِ ، وهذا كقوله تعالى « واشتعل الرأْسُ شيباً » ونحو قوله تعالى « وآيةٌ لهمُ الأَرضُ الميْتَةُ أحيَيْنَاها » وقوله تعالى « نِساؤكمْ حَرْثٌ لكمْ فأْتُوا حَرْثكُمْ أَنَّى شئتُمْ » وقوله تعالى « وفُتحَتِ السماء فكانتْ أبْوَاباً وَسيِّرَتِ الجبالُ فكانَتْ سرَاباً » وقوله تعالى « وجعَلْنَا على قلوبهمْ أَكِنّةً أَنْ يفقَهُوهُ » وقوله تعالى « ولا تعزِمُوا عُقْدَةَ النّكاح حتّى يبلُغَ الكتابُ أجلَهُ » وقوله تعالى « وجعلنا من بين أيْديهمْ سدًّا ومِنْ خلْفِهِمْ سدًّا » ومن هذا النوع آيات التشبيهِ كلّها كقوله تعالى « بل يداهُ مبسُوطتَانِ » وقوله تعالى « تَجْرى بأعْيُنِنَا » وقوله « ويَبْقى وجهُ ربّك » وقوله تعالى والسموات مَطْويّاتٌ

بيمينهِ » وما كان من ذلك دالاً بظاهرهِ على الجهة كقوله تعالى « وجاءَ ربُّك » وقوله « استوى على العرش » وقوله تعالى « وهُو اللهُ فى السمَواتِ وفى الارض » ولهذا فإن المشبّهة لما ضاقت حواصلُهم عن إساغة هذه الأسرار ، وأغشَى أبصارهم نورُ هذه اللطائف ، وقصرُت أعناقُهم عن التطلّع الى محاسنها ، وقعُوا فى متاهَاتٍ عظيمةٍ ، وارْتبَكُوا فى مَحارَاتٍ وخيمةٍ ، وأوقعوا نفوسهم فى مَهاوٍ ومَهالك ، لأجل اعتقادهم لظواهرها ، فمِن ثمَّ انسلخوا عن الدّين وهم لا يشعرون فنعوذ بالله من الخذْلان ، وجهلٍ يؤدّى الى خُسران ، ولو لم يكن لهذا العلم من الشرف إلاّ أن كلّ مَن عرف حقائقه واستولى على معانيهِ ، وأحْرز دقائقه ، فإنهُ يسلم لامحالةَ من اقتحام وَرْطِ التشبيهِ ، والتضمُّخ برذائلهِ ، لكان هذا من أعظم المناقب ، وأعلى المراتب ، وأسنى الرغائب ، مع ما حاز من شريف الخصال ، ورفيع القدر والمنال ، ولهذا فإنك ترى الشيخ العالم النحرير محمودَ بنَ عُمَرَ الزمخشرىّ ، ما فاق فى تفسيرهِ على كلّ تفسير الاّ لتقرير أساسه عليهِ ، واستنادهِ فيما أتى من الحقائق والغوامض اليهِ

(النوع الثانى)

(من الأخبار النبوية)

فأمّا التشبيهاتُ المفردة فهى كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم. كأن الموت فيها على غير ما كُتِبْ، وكأن الحقّ فيها على غير ما وَجَبْ، وكأن الذى تُشيّعُ من الأموات سَفْرٌ، عما قليلٍ إلينا راجعون وقوله. كأنّا مخلدون بعدهم، وقوله صلى الله عليهِ وسلم: العلمُ الذى لا يُنْفَقُ منه صاحبهُ كالكنْزِ الذى لا يُنْفَقُ منهُ وقوله عليهِ السلام. مَثَلُ أهل بيتى كسفينة نوح، مَنْ رَكِبَها نجا، ومن تخلّف عنها غَرِقَ وهَوَى وقوله صلى الله عليهِ وسلم: أصحابِى كالنجُومِ، بأيّهم اقْتديتمُ اهتديتم وقوله صلى الله عليهِ وسلم. المؤمنون كالبُنْيان يشُدُّ بعضهُ بعضاً وقوله عليهِ السلام: المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى عُضوٌ منهُ تداعَى سائرُ أعضائهِ بالسَّهرِ والحُمّى وقوله: الحياءُ من الإيمان، كالرأس من الجسد وقوله صلى الله عليهِ وسلم: الناس كأسنان المُشطِ فى الاستواءِ وقوله صلى الله عليهِ وسلم: مَثَلُ المنافق كالشّاةِ العائرة بين الغنَمَين وقوله مَثَلُ هذهِ الصلواتِ الخمسِ كمثل نهْرٍ جارٍ على باب أحدكم ينغَمِسُ فيهِ كلّ يوم

خمس مرات ، ما عسى أن يبقى عليه من الدرن وقوله صلى الله عليه وسلم: أمتي كالمطر، لا يدرى أوله خير أم آخره وقوله عليه السلام: التائب من الذنب كمن لا ذنب له وفى الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر فكأن وجهه قطعة قمر وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل رمضان كان أجود من الريح العاصف وفى حديث آخر كالريح العاصف وقوله عليه السلام فكأنكم بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل ، وأما التشبيهات المركبة فهى كثيرة فى كلامه عليه السلام كقوله : إنه لم يبق من الدنيا إلا كإناخة راكب أو صر حالب ، لأن التقدير فيما هذا حاله الا كراكب أناخ راحلته أو صر حالب ، والصر ، وضع الخيط على ثدى الناقة لئلا يرضعها ولدها ، والمراد لم يبق من الدنيا فى القلة الا مقدار صرة ، لأنه عن قريب ينقضه للحلب وكقوله عليه السلام . فكأن قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ، وتقرير وجه التشبيه أنه شبه وضوح الأمر فى الآخرة وتحقيق الحال فيها ، بشىء كان مغطى فكشف قناعه ، فظهر حاله ، وبان أمره ، واتضحت حقيقته ، وأكثر ما ذكرناه فى أحاديث التشبيهات المفردة يمكن إيرادها فى

المركبة وهذا كقوله . مثل الصلاةِ كمثل نهرٍ جارٍ ، فإن هـذا يمكن أن يكون من المركبة ، لأن التركيبَ قد قررناهُ من قبلُ أنّ كلّ ما كان من وصفين أو أكثر من ذلك ، فهو مركبٌ ، فأنتَ اذا تصفّحت ماورد من الأحاديث ، وجدتَ أكثرها مركباً ، وأمّا التشبيهاتُ التى أُضمر فيها أداةُ التشبيهِ فهى واسعةٌ أيضاً وهـذا كقوله عليـهِ السلام : إنّ مَن فى الدنيا ضيفٌ وما فى يدهِ عاريّةٌ ، والضيفُ مرتحلٌ ، والعاريّةُ مرْدُودَةٌ ، فالإضمارُ لأداة التشبيهِ فى هذا سهلٌ متيسّرٌ من غير تكلّف كأنهُ قال . الناسُ كالضيف فى الدنيا لسرعة انتقالهم ، وما فى أيديهم من الأموال عارية ، وعن قريبٍ تُرَدّ العاريّة ، ويأخذُها مالـكها ، ولا يكاد يخفى التشبيه على مَن لهُ أدنى ذوقٍ وفطانةٍ وكقوله عليهِ السلام . الدنيا دارُ الْتوَاءٍ ، لا دارُ انْتوَاءٍ ، ومنزل ترَحٍ ، لا منزلُ فرحٍ ، فأداة التشبيهِ يمكن إظهارها من غير تكلف ، ولا تعسّرٍ كما ترى ، وقد يخفى تقديرُ أداة التشبيهِ بعض خفاء فيحتاجُ الى مزيد تفطّن ومزيد خِبْرَةٍ ودقّة نظر ، ومن هذا قوله عليـهِ الصلاة والسلام . ما سكَن حبٌّ الدنيا قلبَ عبدٍ الا الْتَاطَ منها بثلاثٍ ، شغلٌ لا ينفكُّ عناؤهُ ، وفقرٌ لا يُدْرِكُ غِنَاهُ ، وأملٌ لا يُنالُ

منتهاهُ ، فانظر الى ما اشتمل عليهِ هذا الكلام من بالغ الحكمة وعظيم الزجر ونافع الوعظ ، ونتطفّل على تقرير التشبيهِ فيهِ بنوع احتيال وتلطّف ، كأ نهُ قال . إِذا تمكن حبّ الدنيا من قلب العبد فكأ نهُ كالحالّ الساكن فيهِ . ثم إِذا كان ساكناً فيهِ فهذه الخصال الثلاث كالمُتَاطَة المختلطة لعِظَم شغفهم بها وتمكّنها من سُويداءِ قلوبهم وقوله . مادام رَسَنُهُ مُرْخى ، وحبْلهُ على غاربهِ مُلْقًى ، فهذا وأمثاله مما يدِقّ تقرير الأداة فيهِ الا بنوع تقدير كما أسلفنا تقريره

(النوع الثالث)

من كلام أمير المؤمنين كرّم الله وجهه ، فمن التشبيهات الظاهرة التى أخذت من البلاغة بحظٍّ وافرٍ ، وخُصّتْ بالقِدْح القَامِر قوله فى أثناء الوعظ « وضَعْ فخرَك ، واُحْطُطْ كِبْرَكَ ، واذكُرْ قبْرَك ، فإنّ عليهِ ممرّك ، وكما تَدِينُ تُدان ، وكما تزرعُ تحصُد ، وما قدَّمْتَهُ اليوم تقْدَمُ عليه غداً فامْهدْ لقدمِك ، وقدِّمْ ليومِك »

فتأمّل أيُّها الناظرُ موقع قوله ، كما تدين تدان وكما تزرع تحصد ، ما أغْرقَه فى معانى التشبيه ، وما أكْثَرَ رسُوخَه فى

مواقع التنبيه ، وكقوله فى خِلْقة الخُفَّاش واشتمالها على العجائب من الحكمة « وجعل لها أجنحةً من لحمها تعرُجُ بها عند الحاجة الى الطيَران ، كأنها شظايا الآذان ، غيرَ ذوات ريشٍ ولا قصَب ، الاّ أنك ترى موضع العروق بيّنةً أعلاماً ، لها جناحان لمَّا يرِقَّا فينشقّا ، ولمّا يغلُظا فيثقُلا » وكما قال فى صفة الفتْنة « تمَدُّ فى مدارِج خفيّة ، وتؤُولُ الى فظاعة جليّة ، شبابُها كشباب الغُلام ، وآثارها كآثار السِّلام ، يهْرب منها الأكيْاسُ ، ويُدْبِرُها الأرْجاس وكقوله فى وصف الجاهل « إنْ دُعِيَ الى حرْثِ الدنيا عمِلَ ، وإنْ دُعِيَ الى حرْثِ الآخرةِ كسِل ، كأن ما عمِل لهُ واجبٌ عليهِ ، وكأنَّ ما ونَى فيهِ ساقطٌ عنهُ » وقوله عليه السلام « سيأتى على الناس زمانٌ يُكفأُ فيهِ الإسلامُ ، كما يُكفأُ الإناء » فما أبلغَ موقعَ هذه الكلمة مع اشتمالها على نظامٍ عجيبٍ ، وتأليفٍ بديعٍ ، ومعناه أنهُ ينقلب ظهراً لبطْن فى انعكاس حاله وانقلاب أمرهِ

فأَمَّا التشبيهات المركبة فهى كثيرةٌ فى كلامه كقوله عليه السلام فى وصف الأولياء « عظُمَ الخالقُ فى أنفُسهم ، فصغُرَ ما دُونه فى أعيُنهم ، فهم والجنة كمَنْ قد رآها ، فهم فيها

مُنَعَّمُون ، وهم والنارُ كمنْ قد رآها ، فهم فيها معذَّبون »
وقوله فى وصف المَنيّة « واعلموا أنّ مَلاحِظَ المنيّة نحوكم رانيةٌ ، وكأنكم بمخالبها وقد نَشبتْ فيكمْ ، وقد دَهمتْكمْ فيها مفْظِعاتُ الأمور ، ومُضْلِعاتُ المحذور ، فقطّعوا علائقَ الدنيا ، واسْتَظْهِرُوا بزاد التقوى

وأقول « إن هذا الكلام ليأخذُ بمجامع القلوب الى رَفْض الدنيا لو كان لهُ قبولٌ ، أو صادفتْهُ آذانٌ ، أوْ وعتْهُ عقولٌ » وقوله عليهِ السلام في خطاب لمعاوية يُوبّخُهُ فيهِ « فياعجباً للدهر إذ صِرْتَ تقْرَنُ بى من لم يَسْعَ بقدَمى ولم يكن لهُ كسابقتِى التى لا يُدْلى بها أحد مثلى ، إلاّ أنْ يدَّعِىَ مُدّعٍ مالا أعْرفُه ، ولا أظنّ أنّ اللهَ يعْرفُهُ ، فالحمدُ لله على كلّ حال ، وقال فى مخاطبة أهل البصرة « واللهِ لئنْ ألجأتُمُونى الى المسير إليكم ، لأُوقعَنّ بكم وقعةً لا يكون يومُ الجَمَل اليها الاّ كلُعْقَةِ لاعقٍ » وقال فى خطابٍ آخرَ لمعاوية « فكأنىّ بك وقد رأيْتُك تَضجُّ من الحرب إذا عضتْكَ ضَجيجَ الجمال بالأثقال ، وكأنى بجماعتِك يدْعونى جزَعاً من الضرب المتتابِع ، والقضاء الواقِع ، ومصارع بعْدَ مصارع ، الى كتاب الله وهى كافرةٌ جاحدةٌ ، أو مُتابِعةٌ حائدةٌ »

فأما التشبيهاتُ التى أضمرت فيها أداةُ التشبيهِ فهى فى كلامهِ أوسعُ مما ظهرت فيهِ الأداة، وقد ذكرنا من قبلُ أنّ التشبيه مهْما خفىَ أمرُه فهو أَدْخَلُ فى حسن الاستعارة، فمن ذلك قولُه عليهِ السلام «رحم اللهُ امرءًا ألْجمَ نفسَهُ بلجامهـا، وزَمَّها بزِمَامِها، فأمْسَكها بلِجَامِها عن معاصى اللهِ وقَادَها بزِمامِها الى طاعة الله»

فالتشبيهُ فى مثل هـذا يمكن تقديرُه، لأنك إذا أظهرت أداة التشبيه لم يخرُج الكلام عن فصاحته، ومما تظهر فيه أداةُ التشبيه على قرْب وسهولة، قوله فى صفة الأرض «فجعلَها لخلْقه مِهَادًا، وبَسطَها لهم فِراشـاً، فوقَ بحْرٍ لُجّىٍّ رَاكدٍ لا يَجْرى» كأنه قال كالمهادِ، والفراشِ، ومما يصعُبُ فيه تقدير أداة التشبيه فيكون استعارةً محضةً قوله عليه السلام فى التقوى أَيْقِظُوا بها نوْمَكم، واقْطَعُوا بهـا يومَكم، وأَشعِروا بها قلوبكم، وارْحَضُوا بها ذُنُوبَكم، وداوُوا بها الأسْقام، وبادرُوا بها الحِمَام، ألاَ وصُونُوها، وتَصوَّنُوا بها» فهذه استعاراتٌ حسـنةٌ، ومعانٍ دقيقة، اذا قدّرَت فيها أداة التشبيه، خرج الكلام عن رونقه، وتبدّل عن دباجَته، وقال فى أَهل البدع هم أساسُ الفُسوق، وأحلاَسُ العقُوق،

اتّخذهم إبليسُ مَطَايَا ضلال ، وتَراجمَةً ينطقُ على ألسنتهم ، فجعلَهُم مَرْمَى نبلِه ، وموْطئَ قدَمِه ، وما خَذَ يده » وقال فى صفة الدنيا ، « حالُها انتقال ، ووطأتُها زَلزَال ، وعزُّها ذُل ، وجدُّها هزْلٌ ، وعلْوُها سفْلٌ ، دارُ حرْبٍ وسلَبٍ ، ونَهْبٍ وعطَبٍ ، أهلُها على ساقٍ وسِيَاقٍ ، ولَحَاقٍ وفِرَاقٍ » وقال فى كلام آخر « فأطْفِئُوا ما كَمَنَ فى قلوبكم من نيران العَصَبيّة ، وأَحْقَادِ ثأر الجاهليّة ، واعتمدُوا وضْعَ التذلّل على رءوسكم ، وإلقاء التعزُّز تحت أقدامكم ، وخَلْعَ التكبّر عن أعناقكم ، واتّخذوا التواضع مَسلَحَةً بينكم وبين عدوّكم ، إبليسَ وجنودِه ، فإن له من كلّ أمةٍ جنوداً وأعواناً ، ورَجْلاً وفُرساناً »

ومَنْ خَبَرَ كلامَه ومارَسَ أُسلُوبَه ونظامَه ، تحقّق لا محالَةَ أنهُ قمرُ البلاغةِ المتوسطُ فى هالَتِها ، والطِّرازُ الباهى فى أَكُمّ غِلالتِها

(النوع الرابع)

(فيما ورد من التشبيه فى كلام البلغاء)

فمن ذلك كلامُ قَبِيصةَ بن نُعَيم ، لمّا قدمَ على امرئ القيس فى أشياخ من بنى أسـد ، يسألونهُ العفْوَ عن دم أبيه حُجْرٍ ، فقال له قَبيصَةُ : إنك فى المحَلّ والقَدْرِ من المعرفة

بتصريف الدهر ، وما تُحْدِثه أيّامُه ، وتَتَنقّلُ به أحواله بحيث لا تحتاج الى تذكير من واعظ ، ولا تَبْصِيرٍ من مُجَرّب ، ولك من سُؤْدُد مَنْصِبك ، وشَرف أعْراقِك ، وكَرم أصلك فى العرب ، مُحتَملٌ يَحتَملُ ما حُمّلَ مِنْ إقالة العَثْرة ، ورُجوعٍ عن الهَفْوة ، ولا تتجاوَزُ الهِمَمُ الى غايةٍ إلاّ رجعت اليك ، فوجَدَتْ عندك مِنْ فضيلة الرأى ، وبَصيرة الفهم ، وكَرَمِ الصفح ، ما يَطُول رَغَبَاتِها ويستغرقُ طَلَبَاتِها ، وقد كان الذى كان من الخَطْب الجليل الذى عمّتْ رَزِيئتهُ نزاراً واليَمَن ، ولم يخصُص بذلك كِندةَ دُونَنا ، للشرف البارع كان لحُجْر ، ولو كان يُفَدّى هالكٌ بالأنفس الباقية بعده ، لما بَخِلتْ كَرائمُنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيلٌ لا يَرجعُ أُخْرَاه على أُولاه ، ولا يلحق أَقْصاه أدْناه ، فأَحْمَدُ الحالاتِ أن تعرفَ الواجب عليك فى إِحدى خلال ثلاث ، إمّا أَن اخْترْتَ من بنى أسد أَشْرَفها بيْتاً ، وأَعْلاها فى بناء المكرُمات صوْتاً ، فقُدْناه إليك بنِسْعِه ، تَذْهبُ مع شفَرَاتِ حُسَامك قصرَتُه ، فنقول . رجلٌ امْتُحِن بهُلْكِ عزيزٍ ، فلم تُسْتَلَّ سخيمتُه الاّ بتمكينهِ من الانتقام . أو فداءٌ بما يَرُوحُ على بنى أسدٍ من نَعَمِها ، فهى أُلُوفٌ تجاوز الحِسْبَة

فكان ذلك فداءً رجعتْ بهِ القُضُبُ الى أجفانها ، وإمّا أن تُوادِعَنا الى أنْ تضعَ الحواملُ فنُسْدِلَ الأُزُر، ونَعقدُ الخُمُرَ فوق الرايات ، قال فبكى امرؤ القيس ساعةً ، ثم رفع رأسه فقال : لقد علمت العربُ أنه لا كُفْءَ لحُجْرٍ فى دمٍ ، وإنى لن أعتَاضَ بهِ جملاً ولا ناقةً ، فأكتسبَ بذلك سُبَّةَ الأبَد ، وفتَّ العضُد ، وأمَّا النَّظِرَةُ فقد أوجبْتُها للأجنة فى بطون أُمّهاتها ، ولن أكون لعطَبها سبباً ، وستعرفون طلائعَ كِندةَ بعد ذلك ، تحْملُ فى القلوب حَنقاً ، وفوق الأسنّة علقاً

إذا جالَت الحربُ فى مأْزِق

تُصافِحُ فيها المنايا النفوسا

أتُقيمون ، أمْ تنصرفون ، قالوا بل ننصرف بأسوء الاختيار وأبْلَى الاجتْرار لمكروهٍ وأذيَّة، وحرْبٍ وبليّة ، ثم نهضوا عنهُ ، وقبيصةُ يتمثل

لَعلّك أَنْ تستوخمَ الورْدَ إنْ غدتْ

كتائبُنا فى مأزِق الحرْبِ تَمْطُرُ

فقال امرؤ القيس . لا واللهِ ، بل أَستعذِبُه ، فرُوَيْداً تَنْفَرِجْ لك دُجَاها عن فرسان كِندة ،وكتائب حمْير، ولقد

كان ذكرُ غير هذا بى أولى إذ كنتَ نازلاً برَبْعِى ولكنَّكَ قلتَ فأجبتُ ، فقال لهُ قبيصة ما نتوقعْ أكثرَ من المعاتبة والإعتاب

فعليك إعمال فكرك فى هذا الكلام ، ما أوْقَعَهُ فى إصابة المعانى وأسلس ألفاظَهُ ، ومن ذلك ما قالهُ ابن الاثير فإنهُ أبدع فى نظم المنثور ، وأحسن فى تأليف العقود من الدّرر والشذُور ، ومن عجيب كلامهِ أنهُ يكاد يُعوّلُ فى نظم كلامهِ على كتاب الله تعالى فيجعله كالأساس للبناء ، قال فى وصف القلم وقد أوحى الله الى قلمهِ ما أوحى ، والى النّحْل ، غيرَ أنها تأوى الى المكان الوَعْر ، وهو يأوى إلى البيان السّهْل ، ومن شأنهِ أن يجتَنَى من ثمَراتٍ ذات أرواح لا ذات أكمام ، ويخرُج من نفثَاتهِ شرابٌ مختلفٌ طعمُهُ فيهِ شفاءٌ للأفهام ، وأينَ ما تُبِينه كثَافةُ الخشب ، مما تُبِينُهُ لطَافةُ المعنَى ، ولا تستوى نضَارَةُ هذا الثمر ، وهذا الثمر ، ولا طيبُ هذا المَجنِىّ ، وهذا المَجنِىّ ، وقد أُرخِصَ ما يكثُرُ وجودُه ، فيَذهبُ فى لهَوات الأفواه ، وأُغلِىَ ما يعزُّ وجوده ، فيبقَى خالداً على ألسنة الرُّواة

فانظر كيف جعل الآية أصلاً وقاعدةً لمغزاه ، ومهاداً في لفظه ومعناه ، وقال في وصف كاتب وهو إذا دجا ليلُ قلمه ، وطلعتْ فيه نجومُ كلمِهِ ، لم يقعد لها شيطان بلاغةٍ مقعداً ، الاّ وجدَ له شهاباً مُرصدا ، فأسرارُها مصونةٌ عن كلّ خاطف ، مطويّةٌ عن كلّ قائف ، فقرّر ما ذكره على ما ذكره في سورة الجن ، ثم قال[١] له بنتُ فكر ماتمخّضتْ بمعنًى الاّ نُتِجَتْه من غير ما تُهْمله ، ثم أتتْ به قومها تحمله ، ولم نُعْرِضْ على ملاءٍ من البُلغاء الاّ ألقوْا أقلامهم أيُّهمْ يستعيرُه لا أيُّهم يكفُله ، فشيّدَ ما ذكره على هاتين الآيتين ، الأولى في سورة الجنّ ، والثانية في سورة مريم ، ومن ثَمَّ كان ارتفاعُ قدره ، واستتْمامُ نور بدره ، ومن ذلك ما ذكره الشيخ العابد يحيي بن بناته في خطبة له ، وهو ممّن يُشارُ اليه بالأكفّ في البلاغة ، وله في أساليبها اليد البيضاء ، قال أولئك الذين أفلوا فنجمْتُم ، ورحلوا فأقمْتُم ، وأبادَهُم الموتُ كما عامتُم ، وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم كما زعمتم ، كلاّ والله ما أُشْخصوا لتقرُّوا ، ولا نُغّصوا لتسرُّوا ولا بدّ أن تمرُّوا حيثُ مرُّوا ، فلا تُفتَنُوا بخُدَع

(١) عبارة ابن الأثير . ومن ذلك ما ذكرتهُ في وصف كاتب أيضاً فقلت لهُ بنت فكر الخ

الدنيا ولا تَغترُّوا ، ياءيُّها الناس ، أَسيمُوا القلوبَ فى رياض الحِكَم ، وأَدِيمُوا البحث عن ابيضاض اللِّمَمْ ، واطيلُوا الاعتبار بانتقاص النِّعَم ، وأَجيلُوا الأفكارَ فى انقراض الأُمَم

فانظر الى موقع قوله تعالى « أولئك الذين » وقوله « يأيّها الناس » من كلامهِ لمّا كانا من آى القرآن ، كيف تميّزا تَمْييزَ الإِبْرِيزْ ، عن القَزْدِير ، وصارا مع غيرهما من الكلام كالرصاص بالإِضافة الى الإِكسِير ، وقد ساق ابن الجَوْزىّ على هذا المساق الذى حكيناهُ عن ابن الأثير فى جعل الآيات طُرَراً فى كلامهِ ، قال فى خطبة:(١) يامَعْدُوداً مع أهل البصر وهوفى العمْيان ، يامحسوباً مع أهل المشيب وهوفى الصبيان ، يُسافرُ بالهوى ، ولا ينزل الاّ بجار مَنْ خانَ خلَّ الهوى ، فان الهوى هوان ، أَلَمْ يأْنِ للّذِينَ آمنوا أن تخْشَعَ قلوبُهم لذكر الله ، أَلَمْ يأْنِ ، سارَ الصّالحون وتوقّفْت ، وجدّ التائبون وسوّفْت ، ما يُقْعِدُكَ عن الطريق وقد عرَفْت ، هيْهات ، لقد استحكم هذا النسيان ، ألَم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، ألم يأْنِ ، وكم لهُ على هذا الأسلوب من النثر العجيب ، والإِغراق فى النظم البديع ، ولقد رأيتُ له مائةَ فصلٍ على

---

(١) ليته حذف هذا

مائة آية من كتاب الله على هـذا الأسلوب ، وقال فى الحريريّات : أَيُّها السّادِرُ فى غُلَوائه ، السَّادِلُ ثوبَ خُيلائه ، الجامحُ فى جهالاتِه ، الجانحُ الى خُزَعبلاته ، إلامَ تستمرُّ على غيِّك ، وتستمرئ مرعى بغيك ، وحتّامَ تتناهى فى زَهوِك ، ولا تنتهى عن لهوك ، تُبارِزُ بمعصيتك ، مالكَ ناصيتك ، وتجترئُ بقُبْحِ سيرتك ، على عالمِ سريرتك ، وتتوارى عن قريبك ، وأنتَ بمرأى رقيبك ، وتستخفِى عن مملوكك ، ولا تخفى خافيةٌ على مليكك ، أتظنُّ أنْ ستنفعكَ حالُك ، إذا آنَ ارتحالُك ، ويُغنِى عنك مالُك ، حين تُوبقُكَ أعمالُك ، أوْ يُغنِى عنك ندمُك ، إذا زلَّتْ قدمُك ، ثم قال طالما أيقظكَ الدهرُ فتناعست ، وجذبك الوعظُ فتقاعست ، وحصحصَ لك الحقُّ فتماريْت ، وأذكرك الموتُ فتناسيْت ، وأمكنكَ أنْ تُؤاسِىَ فما آسيْت ، تأمرُ بالعرفِ وتنتهكُ حماه ، وتنهى عن المنكر ولا تتحاماه ، وتزحزحُ عن الظلم ثمّ تغشاه ، وتخشى الناس والله أحقُّ أنْ تخشاه

ولقد ختم كلامه بأحسن ختام ، حيث جعل الآية منتهًى له ، فتمّ أيّ تمام ، وفيما ذكرناه كفاية فى مقدار

عرضنا من التنبيه على مواقع البلاغة فى كلام الفصحاء مثل واصلٍ ، والجاحظ ، وغيرهما ، ممّن له فيها الحظّ الوافر ، ويحكى عن « واصل » وكان من المُفْلِقِين فى طلاقة اللسان وذَلاقتِهِ ، أنّ رجلاً قال له : يمتحنه بالفصاحة وقد عرف أنّ فى لسانه لُثْغَةً فى مَخْرج الراء قُلْ : رَجُلٌ رَكِبَ فرَسَه وجرّ رُمْحَهُ ، فقال له : غلامٌ اعتلى جَوادَه ، وسَحَبَ ذابلَه ، فما أجاب به أفصحُ وأسلَسُ ممــا امتُحِنَ . بنطقه ، وما ذاك الا لأجل الطلاقه فى اللسان ، والبراعة فى جَوْدَة الذكاء والفطنة

(النوع الخامس)

فيما ورد من التشــبيه من المنظوم فمن ذلك ما قاله امرؤ القيس

كأنــّ ثَبِيراً فى عَرَانِينِ وَبْلِه
كبــيرُ أُنَاسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ

وقال

كأنّ ذُرَى رأسِ المُجَيمِرِ غُدْوَةً
من السّيْلِ والغُثّاء فَلْــكَةُ مِغزَلِ

وقال عمرو بن كلثوم

وما منع الضغائن مثل ضرب * ترى منه السواعد كالقلينا

والقلة . خشبة صغيرة قدر ذراع ، يضرب بها وقال

اذا ما رحن يمشين الهوينى * كما اضطربت متون الشاربينا

وقال لبيد

ولها هباب فى الزمام كأنها
صهباء راح مع الجنوب جهامها

وقال ذو الرمة

كحلاء فى برج صفراء فى دعج
كأنها فضة قد مسها ذهب

والبرج . النماء والزيادة (١) ، وقيل إن هذه اللفظة نبطية ، وليست فصيحة ، وقال آخر

سود ذوائبها بيض ترائبها
محض ضرائبها صيغت من الكرم

وقال البحترى

ذات حسن لو استزادت من الحسـ
ـن اليه لما اصابت مزيدا

(١) هذا خطأ فاحش . وانما البرج . سعة بياض العين

فهي كالشمس بهجةً والقضيب الـ
ـلدْنِ قدًّا والرِئمِ طرْفاً وجيداً

وقال آخر

تردَّدَ في خُلُقَيْ سُؤْدُدٍ
سماحاً مُرجًّى ويأساً مَهِيباً
فكالسيفِ إن جئْته صارخاً
وكالبحرِ إن جئْتَه مُستثيباً

وكقول أبي تمام

جُمِعَتْ لنا فِرَقُ الأماني منكمُ
بأبَرَّ منْ رُوحِ الحياة وأوصلِ
فصَنيعةٌ في يومها وصنيعةٌ
قد أحْوَلَتْ وصنيعةٌ لم تُحْوِلِ
كالمُزْنِ منْ ماء الرَّبَاب فمُقْبلٌ
متنظَّرٌ ومُخَيِّمٌ متَهلِّلُ (١)

ومن جيد التشبيه قول إبراهيم بن العباس

لنا إبلٌ كُومٌ يَضيقُ بها الفَضَا
ويَغْبَرُّ عنها أرضها وسماؤُها

---

(١) هذا إقواء من جرّ الى رفع

فمِنْ دُونِها أنْ تُستباحَ دِماؤُنا

ومِنْ دُونِنا أنْ يستَبَاحَ دِماؤُها

حِمىً وقِرًى فالموتُ دُون مَرَامِها

وأيسَرُ خَطْبٍ يوم حُقّ فَنَاؤُها

وقال أبو تمام

وما هُوَ إلاَّ الوَحْيُ أو حَدُّ مُرْهَف

يُقيمُ ظُبَاهُ أَخْدَعَىْ كُلِّ مائِلِ

فهـذا دواءُ الدَّاء من كلِّ عالِمٍ

وهـذا دواءُ الدَّاء مِنْ كلِّ جاهلِ

وهكذا ورد قوله

وكان لهم غَيْثاً وعلماً لُمْعْدِمٍ

فيسأَلُه أو باحِثٍ فيُسَائِلُهْ

ومن ذلك قول أبى نُوَاس

تَرْجُو وتخْشَى حالتَيْكَ الوَرَى كأَنَّكَ الجَنَّةُ والنَّارُ

ولْيكنْ هذا القدر كافياً فى إيراد الأمثلة ففيهِ كفاية لمقدار غرضنا فى التشبيه المضمر الأداة ، والمظهر الأداة كما فصّلناه من قبلُ

المطلب الثالث

(فى كيفية التشبيه)

اعلم أن التشبيهَ لكثرة وقوعه فى الكلام ، وتوسُّع أهل البلاغة فى طرقه يكاد أن تكون كيفية وقوعه غير منحصرة لما ذكرناه من الاتّساع ، ولكنا نشير من ذلك الى كيفيات خمس بمعونة الله تعالى

(الكيفية الأولى)

هو أن الغرض بالتشبيه ومقصودَه ، إنما هو الإبانة والايضاح ، ثم إمّا أن يكونَ بياناً لحكم مجهول ، أو يكون بياناً لمقداره ، فهذان وجهان ، الوجه الأول أن يكون بياناً لحكم مجهول ، وهذا نحو أن يكون المدَّعى يدّعى ما لا يُتصوّرُ ثبوتُه ولا يُعقل إمكانُه ، فيأتى بالتشبيه لبيان إمكانه وهذا كقول بعضهم

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهمْ
فإنّ المسكَ بعضُ دَمِ الغزالِ

فإن الشاعر أراد أن يقول : إن الممدوح فاق الأنام بحيث

لم يبق بينه وبينهم مشابهةٌ ومقاربةٌ ، بل صار جنساً برأسهِ وأصلاً فى نفسه ، وهذا فى الظاهر كالممتنع ، فإنه يبعد فى العقل أن تتناهى بعض آحاد النوع أو شىءٍ من مفرداته فى الفضائل الخاصة والمناقب العالية الى حدٍّ يصير كأنهُ ليس من ذلك النوع، فلما أطلق ذلك عقّبه بقوله (فإن المسك بعض دم الغزال) محتجاً به على تصحيح دعواه ، وعلى إمكان ما قاله ، وعلى أنه ليس محالا ، وبيانُه هو أن المسك قد خرج لامحالةَ عن صفة الدم وحقيقته ، حتى لا يقال هو منه ، ولا يُعَدُّ من جنسه، ولا يوجدُ فيه شىء من الصفات الشريفة التى للمسك ، فلأجل هذا سيق التشبيه من أجل هذه الفائدة

الوجه الثانى أن يكون بياناً لمقداره ، وهـذا نحو أن يحاول نفى الفائدة عن فعل بعض الناس ، وأن يدّعى فيه أنه لايحصُل منـه على طائل فيقول فيه : فلانٌ كالقابض على الماء ، ويَخُطُّ فى الهواء ، فالتشبيهُ فيما هذا حالُه لم يكن مسُوقاً لبيان الإمكان ، بل إنما سيق لمعرفة المقدار ، لأن الفعل في نفسه بالإضافة الى ما يُفيده على مراتبَ مختلفة فى الافراط ، والتفريط ، والتوسيط ، فاذا مُثّلَ ماذكرناه من المحسوس عُرِفَ قدْرُه ، ولهـذا قد يُقَال : حجّةٌ واضحةٌ

كالشمس ، وجهلٌ أظلم من الليل ، ومِدَادٌ كحدَقَةِ الغُراب ، الى مثل ذلك مما ذكرناه

(الكيفية الثانية)

هو أن المتشابهين من الاشياء متى كانت المباعدة بينهما أتمَّ ، كان التشبيه أعجبَ ، والسببُ فى ذلك هو أن المباينة متى كانت أدخل بينهما كان التشابه أشدَّ إعجاباً فى النفوس ، وأقوَى تمكّناً فيها ، لأن أكثر مَبْنَى الطّباع على أن الشىء اذا تُصُوّرَ ظهورُه من مكان يبعُدُ ظهوره منه ، ازداد شغَفُ النفْسِ به ، وكثُر تعلّقُها به ، فما يتعذّرُ وجودُه أعجبُ مما يتسهّلُ وجودُه ، ولهذا فإن تشبيه الشقائق فى حُمْرتها وخضرة أعوادها ، بأعلام الياقوت المنصوبة على رماح من زبرجد ، فى غاية الحسن ، لما كان لا يَكادُ يُوجَدُ ، وهكذا قوله (مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ) وكذا تشبيهُ الكواكب فى سمائها ، ببساطٍ أزْرقَ فوقه دُرَرٌ منثورةٌ ، ودونه فى الرتبة تشبيهُ الثريّا بعنقود الكرم ، واللجام المفضّض والوشاح المفصّل كما قال امرؤ القيس

إذا ما الثُّرَيّا فى السماءِ تعرَّضَتْ
تَعَرُّضَ أثْنَاءِ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ

ودونه فى التشبيه مشابهةُ العين بالنرجس فى قوله (فأمْطرتْ لؤلؤاً من نرجس)

فمراتب التشبيه متفاوتةٌ كما أشرنا اليه ، وكلما ازداد البُعْدُ ازداد التشبيه رقّةً وصفاءً

(الكيفية الثالثة)

ان المعانى العقلية وإن كانت ثابتةً مقطوعاً بها متيقنةً ، خلا أنّ التمسّكَ بالمحسوسات والتعويلَ عليها فى المشابهة أولى وأحق ، لكونها تفيد زيادة قوّةٍ ومزيد إيضاح ، وإنما كان الأمرُ كما قلنا لأوجه ثلاثة

أمّا أولاً فلما يحصل بها من الوثاقة واطمئنان النفس اليها ، وانشراح الصدر بها ، وقد أشار الله الى ماقلناه بقوله تعالى « قَالَ بَلَى ولكنْ ليَطْمَئِنَّ قلبى » وأمّا ثانياً فلأنك اذا كنت بجانب نَهرٍ وأنت تريد أن تخبر بأنّ فعل صاحبك لا ثمرةَ له ولا يحصل منه على فائدة ، فوضعت كفّك فى الماء ورفعتَها ، وقلت: انظُر الى كفى، هل حصل فيه شئ من الماء ،

فهكذا أنت فيما تفعله وتعالجُه، كان فى ذلك ضربٌ من التأثير والقوّة والتأكيد أكثرَ مما فى النطق والقول، وما ذاك الاّ من أجل تعقّله بالإدراك، وأمّا ثالثًا فلأنك لو أردت ضَرْب مثال فى تبايُن الشيئين وتنافيهما،فأشرت الى الماء والنار فقلت: هل هذان يجتمعان، فإنك تجد فى نفسك لتمثّلك من التأثير ما لا تجده اذا أخبرتَ عن ذلك بالقول، فقلت هل يجتمع الماء والنار كما قال بعضهم

ومُكلِّفُ الأيام ضدَّ طبَاعِها
متطلّبٌ فى الماء جَذْوَةَ نارِ

ومِصداقُ ما ذكرناه ههنا هوأنك تجد فى قوله

ويومٍ كظلّ الرُّمْحِ قَصّرَ طُولَه
دَمُ الزّقِ عنّا واصْطِفاقُ المَزَاهِرِ

ما لا تجده فى نحو قوله

فى ليلِ صُول تناهَى العَرْضُ والطُّولُ
كأنما ليلُه بالليلِ موصولُ

من مزيد القوّة والتأكيد، وما ذاك الاّ لأن الأول مبنيٌّ على الإدراك دون الآخر مع أن الأول فى المبالغة

دون الثانى ، فإن ظلّ الرمح مُثنَاهِ واتصال ليل صُولٍ بالليل لا نهاية له ، ولكن الوجه فى قوّته ما ذكرناه فيه

(الكيفية الرابعة)

هو أن العادة جاريةٌ والأساليب مطّردةٌ فى تشبيه الأدنى بالأعلى والأقلّ بالأكثر ، والفاضل بالأفضل ، وقد يقصد البليغُ فى نظمه ونثره على جهة التخييل أن يُوهِمَ فى الشئ القاصر عن نظيره أنه زائد عليه ، وعند هذا ينعكس الأمر فيُجعل الأصلُ فرعاً ، ويُشبّه الزائد بالناقص ويجعل الفرع لأجل المبالغة أعلا شأناً من الأصل ، فيرفعه الى رتبة الأصل كما قال بعض الشعراء

وبدَا الصّباحُ كأن غُرّتهُ * وجهُ الخليفةِ حين يُمْتَدَحُ

فهذا على أنه جعل وجهَ الخليفة كأنهُ أعرف وأشهرُ وأتمُّ وأكملُ فى النور والضياء من الصباح ، فلما اعتقد هذا وعزم عليهِ ساغ له جعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلاً وكما قال ابن المعتزّ

وكأنما الشمسُ المنيرةُ دِينَا * رٌ جلّتْه حدائدُ الضرّاب

فهذا وأمثاله وإن عظُم التفاوت فيه لكن الذى حسُن منه هو أنهُ لم يقصد قصرَ التشبيه على مجرّد الإنارة ، وإنما أراد تشبيه مستدير يتلألأ ويلمع ، ثم خصوصَ حسْن اللون الموجود فى الدينار المتخلص من حَمْى السَّبْك ، فأما مقدارُ النور والشعاع العظيم فكأنهُ لم يتعرّض لهُ بحال

(الكيفية الخامسة)

اعلم أن التشبيه كما يقع فى المفرد فهو واقعٌ فى المركب ، فإذا قصدت إيقاعَ التشبيه بالمفرد ، فانما تقصد الى نفس تلك الحقيقة المجرّدة مع قطع النظر الى غيرها ، وإذا قصدت التشبيه بالمركب ، فإنما يؤُولُ الأمر فيه الى تشبيه مفردات بمفردات ، فلا جَرَمَ حصل التركيب لا محالة ، فأمّا تشبيهُ المفرد بالمفرد ، فمثاله فى الحركة ، فإذا أوقعتَ التشبيه فأنت تجرّدُها من كل وصفٍ يقارنها مما يخالفُ حقيقتها كما قال ابن المعتزّ فى صفة البرق

وكأنّ البرق مصحفُ قَارٍ * فانطباقاً مرّةً وانفتاحاً

فلم يقع التشبيه فى جميع أوصاف البرق ومعانيه ، ولكن نظر الى مجرّد الحركة فى الانبساط والانقباض ، وقد قصر

تشبيهه على نفس الحركة ، ثم إنه قدّرَ فى نفسه لينظر أىُّ أوصاف الحركة أخصُّ فوجَدَ ذلك فى فعل القارىء بأوراق المصحف من فتحها مرّةً ، وإطباقها أُخرى ، فَأَمّا تشبيه المركب بالمركب ، فإنه يجمع أوصافاً مختلفة ، كالشكل واللون والإضاءة والحركة ، ومثاله ماقاله بعضهم

(والشمسُ كالمرْآةِ فى كفّ الأشلّ)

فإن هذا التشبيه يُريك مع الاستدارة والإشراق الحركةَ التى تراها للشمس إذا تأمّلتها ، وذلك أن الشمس لها حركةٌ متلألئةٌ دائمةٌ ، ولنورها بسبب ذلك تموّجٌ واضطرابٌ ولا يحصل هذا التشبيه الاّ بمرآة فى كفّ أشلّ ، لأن حركتها تدوم وتتصل ويكون لهـا سرعة وتموج ، وتلك حالةُ الشمس فإنك ترى شعاعها كأنه يَهُمُّ أن ينبسط ، وأجود من هذا التشبيه فى اجتماع هذه الأمور قول المهلب الوزير

الشمسُ من مشرقها قد بدَتْ مُشْرِقَةً ليس لهـا حاجبُ
كأنّها بُوتَقَةٌ أُحْمِيَتْ * يَجُولُ فيها ذهبٌ ذائِبُ

ولنقتصر على هذا القدر من الكيفيّات ففيه كفاية فيما نريده بمعونة الله تعالى

المطلب الرابع

(فى ذكر أحكام التشبيه وهى كثيرة ، ولكنا نورد
ما تمسُّ الحاجة اليه)

(الحكم الاول)

هو أنه لا بدّ من رعاية جهة التشبيه ، ويجب أن لا يتعدى فى التشبيه عن الجهة المقصودة ، والاّ وقع الخطأُ لا محالة ، ومثالُه قوله صلى الله عليه « الكمأةُ جُدَرىٌّ الأرض » فالغرضُ من كلامه عليه السلام فى تشبيه الكمأة بالجدرى ، هو أنها مفسدة لها كما أن الجُدرى يفسد الوجه والبدن ، وليس المقصودُ من التشبيه هو الاتصال ، فانّ مثلَ هذا لا فائدة فيه ولا ثمرة تحته ، فإن الاتصال غرضٌ حقيرٌ لا يُقصد التشبيه لأجله ، وكما يقال : النحوُ فى الكلام كالملح فى الطعام فإن المقصود من هذا التشبيه هو أن الكلام لا يُجدى ولا يكون فيه نفعٌ الاّ بمراعاة الاحكام النحوية ، كما أن الطعام لا ينفع ما لم يصلح بالملح ، وليس المقصودُ ما ظنّه بعضهم من أنّ وجه التشبيه هو أن القليل من النحو مُغْنٍ ، والكثير مفسدٌ ، كما أن القليل من الملح مُصْلحٌ للطعام ، وكثيرَه

مفسدٌ له فهذا باطل ، لأن الزيادة والنقصان فى مجارى الأحكام النحوية فى الكلام باطلٌ ، وبيانُه هو أنّا إذا قلنا : إنّ زيدا قائمٌ ، وكان زيد قائماً فلا بدّ من رفع أحد الاسمين ونصبه ، فهذا إذا وُجدَ فقد حصل القانون النحوىّ ، وتمتنع الزيادةُ عليه ، وإن لم يحصل فقد زال قانون النحو ، ولا فائدة فيه لأنه خارجٌ ، فإذَنْ لا وجه لدخول الزيادة والنقصان فى النحو كما لخصناه ، وعلى هذا يكونُ تشبيه النحو بالملح ليس كما اعتقده ، وإنما هو من جهة الإصلاح كما أشرنا اليه ، فتقرَّرَ بما حققناه أن التشبيه قد يكون من جهةٍ ويُظَنُّ أنهُ من جهةٍ أخرى ، وعند هذا يقع الغلط ، وهكذا الحال فى قوله عليه السلام « المؤمن كالسُّنْبلة ، يعوَجُّ أحيانا ويقوم أخرى » فجهةُ التشبيه هو أنه أراد أنّ المؤمن يُواقِعُ الذنبَ فيتوبُ منهُ ، ويسترجعُ مرّةً بعد أخرى ، والكافر كالأَرْزَةِ ،[1] يعنى أنه إذا هفَا فى الذنب لم يتذكرْ ولم يسترجع ، فهو كالأرزة ، إذا انْجَعَفتْ لم تقم أبدا . ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يتوب الاّ عند الموت بحيث لا يقوم ، ولا تنفعه التوبة

---

(١) بسكون الراء . شجرة معروفة بالشام تسمى عندنا الصنوبر . من أجل ثمره

(كالأرزة) اذا انجعفت لا يُرْجَى لهـا استقامة بحال فما خالف هذه الجهات فى التشبيه يكون خطأ بلا مِرْيةٍ

(الحكم الثانى)

هو أن الأمر الذى يقع به التشبيه منقسمٌ الى ما يمكن إفرادُ أحد أجزائه بالذكر ، والى ما يتعذّرُ ذلك فيـه ، فمثالُ الأول قولُه تعالى « مثَلُ الّذينَ حُمِّلُوا التوراةَ ثمّ لمْ يحْملوها كمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسفاراً » فإنْ شئتَ جعلتَ التشبيـه مُطلقَ الحمار فى الغباوة والجهل والبلادة وسقوط النفوس عن كريم الخصال ، وشريف الفعال ، وهذه حالةُ اليهود ، وإنْ شئت جعلته مركباً، وهو أنه ليس الغرض إفرادَ الحمار بالتشبيه، ولـكن الغرض تشبيهُ حالهم فى كونهـم حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها حَمْلَ مثلها فى امتثال أوامرها ونواهيها ، كمثل الحمار فى حملِه للأسفار ، فمُثِّلُوا فى السُّخْفِ بحال الحمار الحامل فوق ظهره ، جُعلَ مَثَلاً لما كُلِّفُوه من الأحكام الشرعية و (أسفاراً) جُعِلَ مَثَلاً لنفاسةِ المحمول ، وعدمِ انتفاع الحامل به ، فصار حاصلُ الأمر أنهم مشبّهون بالحمار الحامل فوق ظهره كُتُبـاً لا يدرى حالَها ، ولا ينتفعُ بها ، ومن هذا قول بشّار

وكأنّ أجْرَامَ السماءِ لوامِعاً * دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِسَاطٍ أَزْرَقِ

فإنْ شئتَ جعلتَه من المفرد فقلتَ : كأنّ النجوم فى ضوئها درَرٌ ، وكأنّ السماء فى زُرْقتها بساطٌ أزرق ، فهذا مَقُولٌ على انفراده ، وإن شئتَ جعلتَه من باب المركب فقلت : لم يكن التشبيه بمطلق الدّرر ، ولا بمطلق البساطِ ، وإنما الغرضُ النجومُ فى ضوئها وتلألُئها إلى زُرقة أديم السماء ، كبساط أزرقَ نُثِرَتْ عليه دُرَرٌ صافيةٌ ، ونظيرُ هذا القسم ،عِقْدٌ من دُرٍّ وياقوتٍ ، فهو اذا فُصِّلَ واحدةً واحدةً ، فهو على حظٍّ من الإعجاب ، وهو إذا نُظِمَ فى سلْكٍ واحدٍ ، فهو على حظٍّ وافرٍ من الزّينة والحسن والنّضارة ، ومثالُ الثانى وهو ما يتعذّر فيه الإفراد ، قولُه تعالى « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبيثةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ » فان المقصود تشبيهُ كلمةٍ موصوفةٍ بالخُبْث بشجرة موصوفة بالخُبْث أيضاً ، فلو سلَبْتَ الكلمةَ صفةَ الخبْث قائلاً . ومثلُ كلمة كشجرة خبيثة ، أبطلت بلاغة الآية ، وأزلْتَ عنها رَوْنَقَ الفصاحة ، ومن هذا قوله

كأنما المرّيخُ والمشترى   قُدّامَه فى شامخ الرفْعَهْ
منصرِفٌ بالليل عن دعوةٍ   قد أُسرِجَتْ قُدّامه شمْعَهْ

فالغرضُ أن التشبيه لم يكن للمرّيخ على انفراده ،

ولكنْ إنما حصل له من جهة الحالة الحاصلة له من كون المشترى قدّامَه ، ولهذا كانت الواو فى قوله والمشترى قدامه ، واو الحال ، فهى كالصفة فى كونها تابعةً لا يمكن إفرادُها بالذكر ، بل تُذْكَرُ فى ضمن الأول على طريق التبعية ، فلو أبطلت التركيب قائلاً . كأنما المريخ منصرف عن دعوةٍ ، كان خَلْفاً من الكلام فضلاً عن أن يكون بليغاً ، ونظيرُ هذا القسم ، خاتَمٌ من فضّةٍ ، وسوارٌ من ذَهَب ، فإنه لا يفيد الحسن والإعجاب الاّ اذا كان مركباً منظّماً ، فإن زال تركيبُه ونِظَامُه ، خرج عن إعجابه وحسنه وبَطَل

(الحكم الثالث)

أعلم أنّ من التشبيه ما يحضُرُ فى الذهن ويسهُلُ إدراكه ، ويسمّى القريبَ ، ومنه ما يحتاج الى نوع فكرة وتأمل ، ويسمى الغريب ، ولنذكر الأمرين جميعاً بالأمثلة ، مثال الأول وهو القريب ، وذلك متى أخطرتَ ببالك استدارةَ قُرْصِ الشمس وتنوُّرَها وتموُّجَ ضوئها ، فإن المرْآةَ المجلوّة تقع فى قلبك وتعرف من أول وَهْلَةٍ كونَها مُشْبِهَةً للشمس ، وهكذا إذا نظرت الى السّيف المصقُولِ عند سلّهِ ،

فإنك تذكرُ لمعَان البرق ، فلهذا تشبهه به ، وإذا رأيت الثياب الموشّاةَ من الحرير فى رقّتها وصفائها ، وإحكام ألوانها ، فإنك تشبّهها بالروض الممطور ، المُفْتَرّ عن أزهاره ، المُبْتَسِم عن أنواره ، فهذه الأمورُ وما شابهها تُعَدُّ من التشبيه القريب كما ذكرناه ، ومثالُ الثانى وهو الغريب فهو الذى يحتاج فى إدراكه الى دِقّةِ نظرٍ وقوّةِ فكرٍ ، وهذا نحو تشبيه الشمس بالمرآة فى كفّ الأَشَلّ ، ومثلُ تشبيهها فى التَّموُّجِ والإنارة بالبُوتَقَةِ من الذهب ، ونحوُ تشبيه الخمر فى الكأس فى لونه ، بمَدَاهِنِ دُرٍّ حشْوُهنّ عقيقٌ ، ومثلُ تشبيه حمرة الشقائق مع خضرة أعوادها ، بأعلام ياقوتٍ منصوبةٍ على رماحٍ من زبرجد ، الى غير ذلك مما يحتاج الى مزيد فكرةٍ ونظر

(الحكم الرابع)

كلُّ تشبيهٍ على جميع أنواعه ، فلا بُدَّ فيه من اشتماله على أركانٍ أربعةٍ ، المشبه ، والمشبّه به ، والوصف الجامع بينهما ، وكيفية التشبيه فى قُرْبِه وبعده ، وكونه مفرداً ومركّبا ، ونادراً ومألُوفاً ، الى غير ذلك ، فمتى كثُرتِ الأوصافُ ، كان أدخل فى الغرابة وأعجبَ فى مقاصد البلاغة ، وأقْرَبُ مثالٍ له فى اجتماع

أوصاف التشبيه قوله تعالى « إِنَّمَا مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كَماءٍ أنزلناهُ من السماء » الى قوله تعالى « كأن لم تَغْنَ بالأمسِ » فالآيةُ في نظمها مشتملة على عشر جُمل ، كلٌّ واحدةٍ منها على حظٍّ من التشبيه ، ثم يكونُ التشبيه أيضاً حاصلاً من مجموعها من غير أن يُمكنَ فصلُ بعضها عن بعض ، فإنك لو حذفت منها جملةً واحدةً ، تطرّق الخرمُ اليها على قَدْرِ المحذوف ، وكان مُخلاً بمغزى التشبيه الذى قُصِدَ فيها ، وهكذا القولُ فى الإفراد فى التشبيه ، والتركيب ، فالإفرادُ نحو تشبيهك الكلامَ بالعسل ، فى أن كل واحد منهما يُوجِبُ للنفس لذّةً وحالةً محمودة ، والمركبُ كقولك « أعْطِ القَوْسَ بَارِيهَا » فانه ليس الغرضُ إعْطَاءً مطلقاً ، وإنما المقصودُ إعطاءُ مَنْ هو أهلٌ للرِّمَايَةِ ، ومنه قولهم « الرّامِي بغير وَتَر ، والساعى الى الهيجاء بغير سلاح ، فالتشبيه فيما هذا حاله مركّبٌ كما ترى

(الحكم الخامس)

اعلم أنّ من جملة التشبيهات المركبة ما يُظَنُّ لكثرة اتصاله أنه لا يُمكنُ فَصْلُ بعضه عن بعض ، وليس الأمرُ كذلك ، وهذا كقول امرىء القيس

كأنّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابساً
لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي

فليس يحصل من أجل ضمّ الرَّطْبِ من القلوب الى اليابس ، هيئةٌ تَجِبُ مراعاتُها ، ويُعْنَى بملازمتها ، ولا لاجتماع الحشَف البالى ، مع العُنّاب غرضٌ تجبُ فيه المضامّةُ والملاصقةُ ، ولو فرّقْتَ هذه التشبيهات لم يكن هناك إخلالٌ بالمعنى المقصود ، فلو قلت : كأَن الرّطْب من القلوب عُنّابٌ ، وكأَن اليابس حَشَفٌ من الطير فى وَكْرِ العُقاب ، لم يكن أحد التشبيهين موقوفاً فى إفادته لما يفيده على الآخر ، ونظيره قول أبى الطيب المتنبي

بدَتْ قمراً ومالَتْ خُوطَ بَانٍ
وفاحَتْ عنبراً ورَنَتْ غزالا

فهذا من التشبيه المضمر الأداة ، وكلُّ واحدٍ منهما مستقل بنفسه ، وفيما ذكرناه غُنْيَةٌ عما عداه ، وبتمامه يتمُّ الكلامُ على أسرار التشبيه ، فأمّا كونُه معدوداً من المجاز أم لا ، فقد أوضحنا حالَهُ ، وقد نَجَزَ غرضُنا من القاعدة الثانية المرسومة للتشبيه ، والحمد لله

القاعدة الثالثة

(من قواعد المجاز فى ذكر حقائق الكناية)

أعلم أن الكناية وَادٍ من أودية البلاغة ، وركنٌ من أركان المجاز ، وتختصّ بدقّةٍ وغموض ، ومن أجل ذلك حصل الزلل لكثيرٍ من الفِرَق ، لسبب التأويلات ، كما عرَضَ للباطنيّة فيما أتَوْا به من قبح التأويل وشَنيعِه ، ولطوائفَ من أهل البِدَعِ والضلالات ، وما ذاك الاّ من جهلهم بمجاريها ، وما يجوز استعمالُه منها ، وما لا يجوز ، فلا جَرَمَ كانت مختصةً بمزيد الاعتناء ، لما يحصل فيها من الفوائد الكثيرة ، والنُّكَتِ الغزيرة ، ولْنَذْكُرْ ماهيّة الكناية ، ثم نُرْدِفُه بالفَرْق بين الكناية ، والتعْرِيض ، ثم تذكرُ أقسامَها وأمثلتها ، فهذه فصولٌ أربعة نفصّلها بمعونة الله تعالى

الفصل الأول

(فى تفسير لفظ الكناية و بيان معناها)

ولكثرةِ دَوْرِها فى الكلام استُعْمِلَتْ فى اللغة ، والعُرْف ، والاصطلاح ، فهذه مَجَارٍ ثلاثة

﴿ المجرى الأول ﴾

(فى لسان أهل اللغة)

الكناية مصدرُ كَنَى يَكْنِى ، وكَنَّيْتُهُ تكنيةً حسنةً ، ولامُها واوٌ وياءٌ ، يُقال . كناهُ بكنيتهِ ، ويكنوهُ ، والكُنْيَةُ بالأب ، أو بالأمّ ، وفلانٌ يُكْنَى بأبى عبد الله ، وفلانة تُكْنَى بأمّ فلان ، ولا يُقال . يُكْنَى بعبد الله ، ولا زينبُ تُكْنَى بهندٍ ، وإنّما هو مقصورٌ على الأب ، والأم ، وفلان كَنِىُّ فلان ، اى مكنىٌّ بكنيته ، كما يُقال سَمِيُّهُ ، اى مسمّى باسمه ، وكُنَى الرُّؤيا ، هى الأمثالُ التى تكون عند الرُّؤيا يُكْنَى بها عن أعيان الأمور ، وفى الحديث «إنّ للرُّؤيا كُنًى ، ولها أسماءٌ فكنُّوها بكُنَاها ، واعتبروا بأسمائها »

﴿ المجرى الثانى ﴾

(فى عُرْفِ اللغة)

الكناية مقولةٌ على ما يتكلّم به الانسانُ ، ويُريد به غيرَه ، وأنشد الجوهرىّ لأبى زياد

وإِنّى لأَكْنُو عن قَذُورَ بغَيْرِها
وأُعْرِبُ أَحْيَانًا بها وأُصَارِحُ

والكُنْية بالضم، والكسر فى فائها، واحدة الكُنَى، واشتقاقُها من الستر، يُقال. كَنَيْتُ الشيءَ، إذا سترتَهُ، وإنما أُجْرِىَ هذا الاسمُ على هذا النوع من الكلام، لأنه يسترُ معنًى ويُظْهِرُ غيره، فلا جَرَمَ سُمِّيتْ كنايةً، فالعُرْفُ متناولٌ للعبارة كما ترى

﴿ المجرى الثالث ﴾

(فى مصطلح النظار من علماء البيان)

وقد ذكروا فى بيان معناها تعريفاتٍ كثيرة، ونحنُ نُورد الأقوى منها بمشيئة الله تعالى

(التعريف الأول)

ذكره الشيخ عبدُ القاهر الجُرْجانى. وحاصلُ كلامه هى أنْ يُريدَ المتكلمُ إثباتَ معنًى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ويأتِى بتاليه وجوداً، فيُومِئُ به اليه، ويجعلُه دليلا عليه، ومثالُه قولنا. فلانٌ كثيرُ رَمَادِ القِدْرِ، طويلُ نِجَادِ السيف، فَكَنَى بالأول عن جُوده، وبالثانى عن طُولِ قامَتِه، هذا ملخّص كلامه، وهذا فاسدٌ لأمور ثلاثة، أمّا أوّلاً فلأنّ قوله (ويأتى بتاليه) إمّا أنْ يريد بتاليه مثله،

فهو خطأ ، فإنّ الكناية ليسَت مماثلةً لما كان من اللفظ الذى تُرِكَ بالكناية . لأن كثرةَ الرماد، ليس مُماثلاً لكونه كريما، وإمّا أن يريد معنًى آخر ، فيجب ذكرُه حتى نَنْظُرَ فيه ، إمّا بصحةٍ ، وإمّا بفسادٍ ، وأمّا ثانياً فلأنّ قوله (فيومئُ به) ليس يخلو الإيماء ، إمّا أن يكون على جهة الحقيقة ، أو على جهة المجاز ، فلفظةُ الإيماء محتملة لما ذكرناه ، وليس فى الإيماء إشارةٌ الى أحد الوجهين ، فلا بُدّ من بيان أحدهما ، وإلاّ كان كلاما مُجملاً لا يفيد فائدة ، وهو مُجانبٌ لصناعة الحدود ، وأمّا ثالثا فلأن ما هذا حاله ينتقِضُ بالاستعارة فى نحو قولك . رأيت الأَسَدَ ، ولقيتُ بحرا ، فإنك فيه قد تركْتَ اللفظَ الموضوع للشجاعة والكرم ، وأتيتَ بتاليهما ، وأومأتَ بهما اليه ، وإذا دخلت الاستعارة فى هذا الحدِّ ، كان باطلا، لأنه لم يُفد خصوصيّةَ الكناية على انفرادها ، وقد مرَّ الشيخانِ أبو المكارم صاحبَ التبيان ، والمطرّزى على ما قاله الشيخ عبد القاهر ، ولم يعترضاه بما ذكرناه من الإفساد

(التعريف الثانى)

ذكره ابنُ سِرَاجٍ المالكىّ فى كتابِهِ المصباح ، وتقريرُ ما قاله فى ماهية الكناية ، هو تركُ التصريح بالشىء الى

مساويهِ فى اللزوم، لينْتَقل منـهُ الى الملزوم ، فقوله (ترك التصريح بالشىء) عامٌّ فى جميع الأنواع المجازية ، فإنهُ متفقةٌ فى ترك التصريح بحقائقها الموضوعة من أجلها ، وقوله « الى مساويه فى اللزوم لينتقل منه الى الملزوم » يُحترَزُ به عن الاستعارة فى مثل قولك . رأيت أسداً ، فإنك انتقلْتَ فى الكناية عن لفظٍ الى ما يساويه فى مقصود دلالتهِ ، فإن الوصف كما يلزم قولنا فلان كريمٌ ، فانه يلزم مساويه أيضاً وهو قولنا فلان كثير رماد القدْر ، بخلاف قولنا . أسدٌ ، فإنه ليس مماثلاً لقولنا فلان شجاع فى مقصود دلالتهِ ، بل يُخالفه فى نفس دلالتهِ ، فإنه دال على خلاف مادلّ عليه قولُنا فلان شجاعٌ ، وإنما شاركه فى بعض معانيـه ، وهو الشجاعة فافترقا ، وقوله (ليُنتقلَ منهُ الى الملزوم) يعنى أنّ فائدة المساواة فى الدلالة ، هو المساواةُ فى الملزوم ، فهذا ملخص ما ذكره ابن سراج المالكى فى كتاب المصباح مع فضل بيان منّا لقيودٍ فى الحدّ أغفلها فيه

(التعريف الثانى)

حكاه ابن الأثير عن بعض علماء البيان ، وحاصلُ ما قاله فى تفسير الكناية ، هى اللفظُ الدّال على الشىء بغير

الوضع الحقيقيّ بوصفٍ جامعٍ بين الكناية والمكنيّ عنه ، وزعم أن مثال ما قاله هو ، اللمْسُ ، والجِمَاعُ ، فإن الجماع اسمٌ موضوعٌ حقيقيٌّ لمعناه ، واللمسُ كنايةٌ عنه ، وبينهما الوصفُ الجامعُ ، لأن الجماع لمسٌ وزيادةٌ ، فكان دالاّ عليه بالوضع المجازيّ ، هذه زُبْدَةُ كلامه ، وفائدته ، وهو فاسدٌ لأمور ثلاثة ، أمّا أوّلا فلأن هذا يَبْطلُ بالتشبيه ، فإنه اللفظ الدالّ على غير الوضع الحقيقيّ فى وصفٍ من الأوصاف ، كقولنا . كأن زيداً الأسد ، فأدْخلَ فيه ما ليس منه ، وأمّا ثانياً فلأن الكنايةَ لا تفتقرُ الى ذكر جامعٍ ، فإنّنا إذا قلنا فلان كثير رماد القِدْر ، وجعلْنا هذا دلالةً على كونه كريما ، فهو غير محتاج الى ذكر (جامعٍ) فاعتبارُ ذكر الجامع فى الكناية يخرجُها عن حقيقة وضعها ، ويبطل فائدتها ، وأمّا ثالثاً فلأنه ذكر الكناية والمكنيّ فى حدّ الكناية ، وهذا فيه تفسيرُ الشيء بنفسه ، وإِحالةٌ بأحد المجهولين على الآخر ، فلا جرَمَ كان باطلا ،

(اشارةٌ) اعلم أن ما ذكر ابنُ سراج المالكيّ فى تعريف الكناية ، وإِنْ كان أسلَمَ ممّا حكاه ابن الأثير ، وأدخلَ فى التحقيق ، لكنه لا يخلو عن نظرٍ من وجهين ،

أمّا أوّلاً فلأن ما ذكره حاصلٌ فى الاستعارة فى نحو قولك : رأيت الاسدَ ، ولقيتُ البحرَ ، فإنك تركتَ التصريح بقولك لقيَنى الشجاعُ الى لفظ الأسد ، والكريم الى لفظ البحر ، والكنايةُ مخالفة للاستعارة فى ماهيّتها ، فلا يُخْلَطُ أحدُهما بالآخر ، وأمّا ثانياً فإن قوله (الى مساويه فى اللزوم لينتقل منه الى الملزوم) إنْ أراد بالملزوم ، المدلولَ ، فذكرُ المدلول أوضح ، فلا حاجة الى العدول عنه ، وإنْ أراد به معنًى آخر غير المدلول فهو خطأ لا فائدة فيه ، لأنه لا مشاركة بينهما الاّ فى مدلولهما لا غيرُ ، ولهذا كان كناية عنه ، نَعَمْ إنّما حمله على هذا هو أنه كان مُولَعًا بمُمارسة المنطق ومُعالجته ، فغلبَتْ عليه عباراتُه ، (وما كلُّ آذانٍ تَسْمَعُ القِيل » فإنّ موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ومعرفة أساليبهما ، وهما بمعزل عن علم المنطق ، فلا ينبغى أن يُمزجَ أحدهما بالآخر لاختلاف حقائقهما

(التعريف الرابع)

حكاه ابن الأثير عن بعض الأصوليين ولم أعرف قائله وهو مصدّقٌ فيما نقله ، قال : فى حدّ الكناية ، إنها اللفظ

الذى يحتمل الدّلالة على المعنى ، وعلى خلافه ، وهذا فاسد لامرين ، أمّا أوّلاً فلأن ما قاله يبطُل باللفظ المشترك فى نحو قولك : قرء ، وشفق ، فإن كل واحد منهما دالّ على معنى ، وعلى خلافه ، وأمّا ثانياً فلأن ما ذكره يبطُلُ بالحقيقة والمجاز ، فإن قولنا : أسد ، وبحر ، كما يدل على ما وُضع له بالحقيقة فهو دالّ على ما استعمل فيه من المجاز ، فيلزمُ أن يكون ما ذكرناه من الكناية ، وهو باطلٌ ، فأمّا ابن الخطيب الرازى فما زاد فى حد الكناية فى كتابه نهاية الإيجاز على أنْ قال : هى اللفظ الدالّ على معنى مقصودٍ مع ملاحظة معناه الأصلىّ ، هذا ملخص كلامه ، ولم يُورِدْه على جهة التحديد ، وهذا فاسدٌ بالاستعارة فانها دالة على معنى مقصودٍ مع ملاحظة معناها الأصلىّ ، فيلزم على ما قاله دخولُها فى الكناية ، ويبطُل أيضاً بالحقيقة مع مجازها ، فإنه ما من مجازٍ يدلُّ على معنى الاّ وهو دالّ على حقيقة ، وفى هذا دخول أنواع المجاز فى الكناية ، وهذا باطلٌ ، والعجب من إطلاقه هذا الإطلاق مع إدراكه لصناعة الحدود ، وتصوُّنِه عن النقوض ، وتبحُّرِه فى علم الكلام

(التعريف الخامس)

ماقاله ابن الأثير عن نفسه وهو كل لفظ دلّ على معنًى يجوز حملُه على جانبي الحقيقة والمجاز بوصفٍ جامعٍ بين الحقيقة والمجاز، وهذا نحو قوله تعالى « نساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » فان لفظ الحرث دال على معناه بالحقيقة ، لكنه استعمل فى مجازه ههنا وهو الجماع فى المَأْتَى المخصوصِ الصالحِ للزرع ، فلما كان دالاّ على حقيقته ومجازه لا جَرَمَ كان كناية ، فهذا ملخص كلامه مع حذف كثير من فضلاته وهو فاسدٌ لأوجه ثلاثة ، أمّا أولا فلأن ظاهر كلامه (معنى) يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز ، يدلّ على ان المحمول معنًى واحدٌ على جهة الحقيقة والمجاز ، وهذا خطأ فإن المعنى الواحد لايجوز أن يكون حقيقة ومجازاً لاجتماع النفى والاثبات فيه ، لأنه يصير حقيقة ، ليس حقيقةً وهو باطل ، بل الحقُّ فى الكناية أنهما معنيان ، أحدهما حقيقة ، والآخر مجاز ، وظاهر كلامه أنه معنى واحدٌ ، لأن قولنا فلان كثيرُ رَمَاد القدْر ، هو بأصله دالّ على كثرة الرّماد ، وبمجازه على كرم الموصوف لكثرة ضيفانه ، فقد أساء فى هذا الإطلاقِ، وأمّا ثانياً فلأن ماذكرهُ يبطُل بالاستعارة

فى مثل قولنا فلان أسدٌ وبحرٌ ، فإن قولنا : أسدٌ كما يدلّ بحقيقته على السبع ، فهو دالّ بمجازه على الشجاعة ، فيجب دخوله فى حدّ الكناية ، وأمّا ثالثاً فلأن قوله (بوصفٍ جامعٍ بين الحقيقة والمجاز) يدخل فيه التشبيه ، فإنه لابدّ من اعتبار أمرٍ جامعٍ ، بخلاف الكناية ، فانها لاتفتقر الى ذكر الجامع ، فاعتبارُ قيد الوصف الجامع ، يُدخلُها فى التشبيه ويُخرجها عن حقيقتها ، فهذا مايرد على حدّ ابن الاثير فى الكناية ، ولقد طوّلَ فيه أنفاسَه ، وزعمَ أن أحداً لم يسبقه الى هذه المقالة ، ومن العجب أنه قد عاب على مَنْ ذكر فى حد الكناية ذكرَ الجامع كما حكاه عن بعض علماء البيان ، وأبطله بالتشبيه ، ومع ذلك فإنه قد اعتبره فى حدّه ، وهذه مناقضة على القُرْب ، ولم يدْرِ أن العلم بصناعة الحدود بمَعْزِلٍ عن علم الكتابة ، فهو (ممن حفظ شيئاً وغابت عنهُ أشياء) فإذا عرفت فساد هذه الحدود بما لخّصناه ، فالمختار عندنا فى بيان ماهية الكناية ، أن يقال : هى اللفظ الدالُّ على معنيين مختلفين ، حقيقةٍ ومجازٍ من غير واسطةٍ ، لا على جهة التصريح ، ولْنُفَسِّرْ مُرادنا بهذه القيود ، فقولنا . اللفظُ الدالُّ يُحترز به عن التعريض ، فإنهُ ليس مدلولاً

عليه بلفظ ، وإنما هو مفهومٌ من جهة الإشارة والفحوى كما سنقرّر ماهيتَه من بعدها بمعونة الله تعالى ، والتفرقة بينه و بين الكناية وقولنا على معنيين ، يُحترز به عما يدلُّ على معنى واحدٍ، فإنه ليس كناية ، ويدخل فيه اللفظ المتواطئ ، كرجُل ، وفرس ، واللفظُ المشتركُ كقولنا قَرْء ، وشفَق ، فإنهما دالان على معنيين ، وقولنا مختلفين ، يخرج عنه المتواطئ ، فإن دلالته على أمور متماثلة ، وقولُنا حقيقة ومجاز ، يُحترز به عن اللفظ المشترك ، فإن دلالته على ما يدلّ عليه من المعانى على جهة الحقيقة لا غيرُ ، وقولُنا من غير واسطة ، يُحترز به عن التشبيه، فإنه لابُدَّ فيه من أداة التشبيه ، إمّا ظاهرة كقولك زيد كالأسد ، وإمَّا مضمرة ، كقولك زيد البحر ، وقولُنا على جهة التصريح ، يُحترز به عن الاستعارة ، فإن دلالتها على ما تدلّ عليه من جهة صريحها ، إمّا من غير قرينةٍ ، كدلالة الأسد على الحيوان ، وإما مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع ، فكلاهما مفهومٌ من جهة التصريح ، بخلاف الكناية فإنّ الجماع ليس صريحاً من قوله تعالى « فأْتُوا حرْثَكم » وإنما هو مفهومٌ على جهة التّبَع كما دلّت عليه بحقيقتها فهذا هو الحدُّ الصالحُ لتقرير ماهية الكناية

﴿ تنبيه ﴾

اُعلم أنّ أكثر علماء البيان على عدّ الكناية من أنواع المجاز -خلافا لابن الخطيب الرازى ، فإنه أنكرَ كونها مجازا ، وزعم أن الكناية عبارةٌ عن أن تذْكُرَ لفظةً وتُفيد بمعناها معنًى ثانياً هو المقصودُ ، فإذا كنتَ تفيد المقصود بمعنى اللفظ ، وجب أن يكون معناه معتبراً فيما نقلت اللفظةَ اليهِ عن موضوعها . فلا يكون مجازا ، ومثالُه على زعمه أنك إذا قلتَ فلان كثير رمادِ القدْر ، فانك تريد أن تجعل حقيقة كثرة الرماد دليلا على كونه جوادا ، فأنتَ قد استعملتَ هذه اللفظة فى الأصلىّ وغرضُك فى إفادة كونه كثير الرماد معنًى يلزم الأولَ ، وهو الكرم ، فاذا وجب فى الكناية اعتبار معناها الأصلىّ لم يكن مجازا أصلا هذا ملخص كلامه فى كتابه نهاية الإيجاز ، وهو فاسدٌ لأمرين ، أمّا أولا فلأن حقيقة المجاز ، ما دلّ على معنى ، خلاف ما دلّ عليه بأصل وضعه ، فى قوله تعالى « أوْلاَمستمُ النساء » فإن الحقيقة فى الملامسة هى مماسّة الجسد للجسد ، ودلالة المماسة على الجماع ليس بأصل الوضع ، وهذه هى فائدة المجاز ، وأمّا ثانيا فلأن

الكناية قد دلت على معناها اللغوىّ الذى وُضعتْ من أجله ، فبعد ذلك لا يخلو حالُها ، إمّا أن تدلّ على معنًى مخالفٍ لما دلتْ عليهِ بالوضع أم لا ، فإن لم تدلّ فلا معنى للكناية ، وإن دلتْ عليه وجب القول بكونه مجازا ، لمّا كان مخالفا لِمَا دلت عليه بالوضع ، والعجبُ من ابن الخطيب حيثُ أنكر كون الكناية مجازا ، ، واعترَفَ بكون الاستعارة مجازا ، وهما سيان فى أن كلّ واحدٍ منهما دالّ على معنى يخالف ما دلّ عليه بأصل وضعه

« دقيقة »

أعلم أن التفرقة بين الكناية والاستعارة ظاهرة ، وذلك أنك إذا قلتَ جاءنى الأسدُ ، ورأيت أسداً فهذا وما شاكله تجوُّزٌ بالاستعارة فأنتَ إذا أطلقته فالمرادُ به حقيقتُه وهو السبُع فلا تحتاج فيه الى قرينة ، وإذ أردتَ به الشجاع فأنتَ تحتاج فيه الى قرينة ، فهما بالحقيقة وَضْعان ، أحدهما مجازٌ ، والآخر حقيقةٌ ، فمتى أفاد الحقيقةَ فإنه لا يُفيد المجاز ، ومتى أفاد المجازَ فإنه لا يُفيد الحقيقة ، بخلاف الكناية ، فانها إذا أطلقَتْ فالمعنيان أعنى الحقيقة والمجاز مفهومان معاً

عند إطلاقها ، ومثالُها قولُنا . فلان كثيرُ رَمَادِ القِدْر ، فإنك قد استعملت هذه الألفاظ فى معانيها الأصلية ، وغرضُك فى إفادة كونهِ كثير رَمَادِ القدر إفادةُ معنى آخر يلزمه ، وهو الكرم ، وهكذا فى قوله تعالى « أوْ لامَسْتُمُ النساءَ » فإنك قد أفدت به موضوعه اللغوىّ بالأصالة ، لكنه قُصد به معنى آخر وهو الجماع ، فهما مفهومان عند الإطلاق لكن أحدهما حقيقة والآخر مجاز كما قررنا ، فقد وضح الفرق بينهما بما أشرنا اليه ، نعم هذا هو الذى غرَّ ابن الخطيب حتى أبطل كونَ الكناية مجازاً ، فإنه لمّا كان معناها اللغوىّ مفهوماً عند استعمال كونها مجازاً فى غيره ، أبطل مجازَها ، وظنّ أنّ كون معناها اللغوىّ مفهوماً عند استعمالها فى مجازها يُزِيلُ كونَها مستعملة فى المجاز ، وليس الأمرُ كما زعمه ، بل هما مفهومان معاً ، فأمّا ابنُ الأثير ، فهو وإن قال إن الكناية من باب الاستعارة ، لكنه أحسنُ حالاً من ابن الخطيب ، فإنه بقوله هذا لم يُخرجها عن حدّ المجاز وحكمه ، لأن الاستعارة من باب المجاز ، فكما أن الاستعارة لاتكون إلاّ بحيث يُطْوَى ذكر المستعار له ، فهكذا حال الكناية ، فانّها لا تكون الاّ حيث يكون ذكرُ المكنىّ عنه مَطْوِيّا فيه ، فإذَنْ

حاصلُ الكلام فى الكناية ، أنه يَتجاذَبُها أصلان ، ثمّ ذانكَ الأصلان يستحيلُ فيهما أن يكونا حقيقتين ، لأن ذلك هو اللفظُ المشتركُ ، وباطلٌ أن يكونا مجازين ، لأن المجاز فرعٌ على الحقيقة كما مرّ بيانُه ، وإذا كان فرعاً على حقيقةٍ نُقِلَ عنها ، فإنها لا تُنَزَّلُ الا على تلك الصورة المنقولة بعينها من غير زيادةٍ ، فكما أنّ المجاز نفسَه لا يكون له حقيقتان ، فهكذا حالُ المجازَيْنِ لا يصْدُران عن حقيقةٍ واحدةٍ ، فاذا بطل هذان القسمان لم يبق إلا أنه يتجاذبها حقيقةٌ ومجازٌ ، وهذا هو مطلوبُنا ، ولا قسمَ ههنا رابعٌ فنورده ونتكلم عليه ، هذا ملخص كلام ابن الاثير فيما زعمه ، والحقُّ الذى لا غُبارَ على وجهه ، أن الكناية مخالفةٌ للاستعارة ، وإن كانتا معدودتين من اودية المجاز ، والتفرقةُ بينهما تقع من أوجهٍ ثلاثةٍ ، أوّلُها من جهة العموم ، والخصوص ، فإنّ الاستعارة عامّةٌ ، والكناية خاصّة ، ولهذا فإن كل استعارة فهى كناية ، وليس كل كناية استعارة ، وثانيها أن الكناية يتجاذبها أصلان ، حقيقةٌ ومجازٌ ، وتكون دالّةً عليهما معاً عند الإطلاق ، بخلاف الاستعارة ، فإن لفظ الاسد يستعمل فى السبع فيكون دالاًّ عليه ، ثم يستعمل فى الشجاع فيكون دالاًّ عليه ، فأمّا الكنايةُ فهى

دالّة على الحقيقة والمجاز جميعاً عند الإطلاق ، وثالثها هو أن لفظ الاستعارة صريحٌ ، ودلالتُها على ما تدل عليه من الحقيقة والمجاز على جهة التصريح ، بخلاف الكناية ، فإنّ دلالتَها على معناها المجازىّ ، ليس من جهة التصريح ، بل من جهة الكناية ، فقد افترقا من هذه الأوجه كما ترى ، فوجب القضاء بكون حقيقة أحدهما مخالفةً لحقيقة الاخرى ، لا يُقال فعلى أىّ وجه يكون التعويلُ فى اشتقاق اسم الكناية ، هل يكون من الستر ، أو يكون اشتقاقها من الكُنْيَة ، لأنا نقول : الأمران محتملان فيها

وبيانُه ، أمّا اشتقاقُها من الستر فهو ظاهرٌ ، لأن المجاز مستورٌ بالحقيقة حتى يظهر بالقرينة ، فالحقيقةُ ظاهرة والمجاز خفىٌّ ، وأما اشتقاقُها من الكُنْيَةِ فهو ممكنٌ أيضاً ، لأن الرجل إذا كان اسمه محمداً ، فهو كالحقيقةِ فى حقه ، لأنه هو الموضوع بإزائه أوّلاً ، وأما قولُنا : أبو عبد الله ، فإنه أمرٌ طارئٌ بعد جرْى محمد عليه ، لأنه كأنهم لا يطلقونه عليه الاّ بعد أن صار له ابنٌ يُقال له عبد الله حقيقة ، أو تفاؤلاً ، فلهذا قلنا بأنه كنيةٌ ، لمّا كان موضّحاً للاسم وكاشفاً عنه فهما كما ترى صالحان للاشتقاق

الفصل الثانى

فى بيان ماهيّة التعْريض ، وذكر التفرقة بينه وبين الكناية ، أمّا حقيقةُ التعريض فله مجريان

المجرى الأول ، لغوى ، والتعريضُ خلافُ التصريح ، يُقال : عرّضْتُ لفلان أو بفلان اذا قلت قولاً وأنت تعْنيه ، ومنه المَعَاريضُ فى الكلام ، وفى أمثالهم « إنّ فى المعاريضِ لَمَنْدُوحَةً عن الكذب » أرادوا أن المعاريض فيها سعةٌ عن قصد الكذب وتعمّده ، واشتقاقُه من قولهم عرَض له كذا ، اذا عَنَّ ، لأن الواحد منا قد يعرضُ له أمرٌ خلاف التصريح فيُؤْثِره ويقصدُه

المجرى الثانى فى مصطلح علماء البيان وله تعريفان

(التعريف الأول)

ذكره ابن الأثير ، وحاصل ما قال : أنه اللفظ الدال على الشىء من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى ، ولا المجازىّ ، فقوله اللفظ الدالّ على الشىء ، عامٌّ فى جميع ما يدلّ عليه اللفظ من جهة النصِّ والظاهرِ والحقيقة والمجاز ، وقوله من طريق

المفهوم : يُخرج جميع ما ذكرناه ، فإن دلالتها من جهة اللفظ، لا من جهة مفهومها ، وقوله لا بالوضع الحقيقيّ ولا المجازيّ ، تفصيلٌ لما تقدم و بيانٌ له وإيضاحٌ، وليس يحترز به عن شيء آخر، ولو حذفه لجاز ، هذا ملخص كلامه مع فضل بيان منّا له فى القيود ، ولم يذكره فى كتابه ، وهذا التعريف فاسدٌ لأمرين ، أمّا أوّلاً فلأن المفهوم منقسمٌ الى ما يكون مفهومَ المُوافقة ، والى مفهوم المخالفة ، فأمّا مفهومُ الموافقة ، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم « لا تُضَحُّوا بالْعَوْرَاءِ » فإنه يدخل فيه العمياء « ولا تُضَحُّوا بالْعَرْجَاءِ » فإنه يدخل فيه مقطوعةُ الرّجلين من جهة مفهومه ، وأما مفهومُ المخالفة فكقوله عليه السلام «لا تَبِيعُوا الطّعامَ بالطّعام ، إلاّ مِثْلاً بمِثْلٍ »فما لا يكون مطعوماً لايجرى فيه الربا على زعم الشافعى ، فدلّ على أن ما عدا المطعومَ بخلافه ، وكلّ واحد من هذين المفهومين مأخوذ من جهة اللغة ، ودالّةٌ عليها الألفاظ ، والتعريضُ ليس مفهوماً من جهة اللفظ كما قرّر عليه كلامه ، فهذه مناقضةٌ ظاهرةٌ ، لأن قوله من طريق المفهوم ، يدلّ على كونه لغويًّا ، وتصريحُه بأنّ التعريض يُفهم من قصد المتكلم لا من طريق اللفظ ، ينقُضُ ذلك ، وأمّا ثانيا فلأن قوله (لا بالوضع الحقيقيّ ولا

المجازىّ) ففضلةٌ لا يُحتاج اليها ، لأن ما قبله من القيود قد أغنى عنه ، ومن حقّ ما يكون حدًّا أن لا يكون فضلةً ، فإنْ زعم زاعمٌ وقال : إن ابن الأثير غرضُه بقوله هو اللفظ الدالّ على الشيء من طريق المفهوم ، ليُخْرِجَ به النصّ والظاهر ، فإنّ دلالتَهما من جهة المنطوق ، لا من جهة المفهوم وقوله (لا بالوضع الحقيقى ولا بالوضع المجازى) ليُخْرِجَ منه الاستعارة ، فإنّ دلالتها من جهة المجاز على مدلولها ، ويُخرج منه الكناية ، فإن دلالتها على ما تدلّ عليه من طريق الحقيقة والمجاز جميعاً ، بخلاف التعريض فإنه خارجٌ عن هذه الدّلالات الحقيقية والمجازية جميعاً ، فجوابُه هو أن دلالة التعريض إنما هى من جهة القرينة ، وليست من جهة المفهوم كما زعمه ابن الأثير ، لأن دلالة المفهوم لغويّةٌ ، ولا هى حاصلةٌ من جهة المنظوم لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، فإذَنْ لا معنى لكلامه . والذى غرَّه من هذا ما قَرَعَ سمْعَه وخَرَقَ قِرْطاس عقْلِه من لقب المفهوم فى لسان الأصوليّين ، فظنّ لخفة وطأته فى المباحث الأصولية أن دلالة المفهوم من جهة القرينة ، وليس الأمرُ كما ظنه ، وإنما دلالة المفهوم لغويةٌ ، مخالفةً كانت أو مُوافقَة ، والتعريضُ بمعزلٍ عن ذلك لما أوضحناه

(التعريف الثاني)

أن يُقال فيهِ . هو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به ، فقولنا (الحاصل عند اللفظ) عامٌّ يدخل تحتهُ لفظُ الحقيقة ، وما يندرجُ تحتها من النصّ والظاهر ، ولفظُ المجاز ، وما يندرج تحتهُ من الاستعارة والكناية ، وقوله (لا به) يخرج منهُ جميع ما ذكرناه ، لأن الحقيقة وما يندرج تحتها ، والمجازَ وما يندرج تحتهُ ، كلها مستويةٌ في دلالة اللفظ عليها ، وأنها حاصلة عند اللفظ ، ويدخل تحتهُ التعريضُ فإنهُ حاصلٌ بغير اللفظ ، وهو القرينة كما مرّ بيانه ، وإنْ شئت قلت في حدّهِ : هو المعنى المدلول عليه بالقرينة دون اللفظ ، لأن التعريض إنما حصل معقولُه بالقرينة دون دلالة اللفظ ، فيَنْحَلُّ من مجموع ما ذكرناهُ أن دلالة اللفظ على ما يدلّ عليهِ من المعاني على ثلاث مراتب

(المرتبة الأولى) أن يكون ذلك حاصلاً من جهة ملفوظه ، وما هذا حالُه يندرج تحتهُ النصوصُ والظواهرُ ، والألفاظ المؤوّلةُ ، والحقائقُ المشتركة ، وغير ذلك من الحقائق اللفظية

(المرتبة الثانية) أن يكون ذلك المعنى حاصلاً من جهة المفهوم ، ثم ينقسمُ الى مفهوم المُوافقة ، والى مفهوم المخالفَة ، فما وافق اللفظَ فى دلالته على ما يدلّ ، فهو المُوافق ، وهذا كقول صاحب الشريعة صلوات الله عليهِ « إِذا وقع الحيوانُ فى السمن أُريقَ المائعُ وقُوِّرَ ما حَوالَى الجامدِ » فإِن العسل وسائر المائعات مثلُه ، وما خالف اللفظَ فى دلالته فهو المخالفُ كقوله عليه السلام « فى سائمَةِ الغنمِ زكاةٌ » فمفهومُه أن لا زكاة فى المعلوفة

والمفهوم على درجات مختلفة وأحوال متفاوتة فى الجلاء والظهور ، والخفاء ، قد استوفينا ذكرها فى الكتب الأصولية

(المرتبة الثالثة) ما كان من معقول اللفظ ، ويندرج تحت هذا جميعُ الاستنباطات الفقهية التى أُخذت من غير ظاهر اللفظ ، فاذا حَرُمَ الخمر بنصٍّ فإِنّا نُحَرِّمُ غيرَها بجامع الشدّة والسكر ، بمعقول اللفظ ودلالته عند ورود التعبّد بالقياس، فهذه دلائل الألفاظ ، فأمّا التعريضُ فليس يفهم من جهة اللفظ ، ولكنه مدلولٌ عليه بالقرينة ، خلافاً لما زعمه ابن الأثير ، من كونه مفهوماً من طريق المفهوم كما قرّرناه ، ولنذكر له مثالين

(المثالُ الأول) للتعريض فى خِطْبَةِ النكاح ، كما أشار اليه تعالى فى قوله « ولا جُنَاحَ عليكمْ فيما عرَّضتُمْ به من خِطْبَةِ النِّسَاء » وهذا كقول الزوج . إنّكِ لمرغوبٌ فيكِ ، لأَحوالك الجميلة ، وإِنى لمحتاجٌ الى ما آنَسُ به ، فهذا وأمثالُه مما لا يدلّ على النكاح بحقيقته ، ولا بمجازه ، ولا من جهة ظاهره ، ولا من جهة مفهومه ، وإِنما هو حاصلٌ من جهة القرينة وأحوال الشمائل والشِّيَم

(المثال الثانى) قولك لمن تتوقع صلتَه ومعروفه بغير طلب ، واللهِ إِنى لفقيرٌ ، وإِنى لمحتاجٌ وما فى يدىَّ شىءٌ ، وإِنى عُرْيانٌ ، والبَرْدُ قد آذانى ، فهذا وأمثالُه تعريضٌ بالطلب ، وليس دلالتُه على الطلب لا من جهة حقيقته ، ولا من جهة مجازه ، كما أشرنا اليه ، ومن ثمَّ قيل له تعريضٌ ، لمَّا كان المعنى منه مفهوماً من عُرْضه ، أى جانبه ، وعُرْضُ كلّ شىءٍ جانبُه ، وهو كثيرُ الدَّوْر فى الكلام ، وله مدخلٌ فى البلاغة . وموقعٌ عظيمٌ ، فإِذا تمهّدت هذه القاعدةُ فلنذكُرْ أمثلة التعريض ، ثم نُرْدِفه بذكر التفرقة بينه وبين الكناية فهذان مقصدان نوضّحُهما بعون الله تعالى

﴿ المقصد الأول ﴾

(فى بيان أمثلته)

اعلم أن كثيراً من علماء البيان لا يميّزون بين التعريض والكناية فى الماهيّة ، وقد ميّزْنا كلَّ واحدٍ منهما بحدّه ، وكثيراً ما يخلطون أمثلة هذا بهذا وهما مفترقان كما أشرنا اليه ، ونقتصرُ من الأمثلة على ضروب خمسة

(الضرب الأول)

منها ما ورد فى القرآن وهذا كقوله تعالى فى قصّة إبراهيم « قالوا أأنْتَ فعلْتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ قال بلْ فعَله كبيرُهُمْ هذا فاسألُوهُمْ إنْ كانوا ينطقون » فإنما أورد إبراهيمُ صلوات الله عليهِ هذا الكلام على جهة التهكّم والاستهزاء والسُّخْرية بعقولهم ، وذلك يكون من وجهين ، أحدهما أنهُ لم يُرِدْ نسبةَ الفعل الى كبير الأصنام ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباتَه لها على رَمْزٍ خفىّ ، ومسلَكِ تعْريضٍ ، يبلغُ به إلزامَ الحجة لهم ، والتسفيهَ لحُلومهم ، كأنه قال ياضعفاءَ العقول ويا جُهّالَ البريّة ، كيف تعبدون ما لا يُجيبُ إنْ سُئِلَ ، ولا ينطقُ إنْ كُلِّمَ وتجعلونهُ شريكاً لمن له الخلق

والأمرُ ، فوضع قوله « فاسألوهم إِنْ كانوا ينطقون » موضع هذا ، ونظير هذا لو أُحضر عَدْلِىٌّ وجَبْرِىٌّ للمناظرة ، فلمّا تقابلا للإِفْحام قام العدْلىُّ فلطم الجَبْرِىَّ لطْمةً شديدةً ، فقيل للعدلىّ مَنْ فعلَ هذا ، فله أن يقول فعلَهُ اللهُ فوضع قوله : فعلَه اللهُ ، موضعَ إِلزام الحجة وقطع الخصومة للجبرىّ ، فهكذا قولُ إِبراهيم عليه السلام « فعلَهُ كبيرُهم » وثانيهما أن يقال : إِنّ كبير الأصنام غضبَ لمّا عُبِدَ معه غيرُه من هذه الأصنام الصغار ، فكسّرها على جهة التخيّل والتمثيل ، وغرضُ إِبراهيم بذلك أن يُعَرِّضَ بهم فى كونهم قد أشركوا فى العبادة مَنْ هو دُون الله، وأن مَنْ دُونَه مخلوقٌ حقيرٌ من مخلوقاته ، فوضع هذا الكلام لفاحش ما أتَوْا به وعظيم ما تلبَّسوا به من عبادة غير الله ، ومن ذلك قوله تعالى « فقال الملأُ الذين كفروا من قومِه ما نَراكَ الاّ بشراً مثلَنا وما نَراكَ اتّبعَكَ الاّ الذين همْ أَراذلُنا بَادِىَ الرأْى وما نرى لَكمْ علَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بل نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ » فهذه الآية كلها موضعُها فى قصدهم واعتقادهم موضعُ التعريض بأنهم أحق بالنبوّة ، وأن نوحاً لم يكن متميزاً عليهم بحالةٍ يجبُ لأجلها أن يكون نبيًّا من بينهم فقالوا . لو أراد الله أن يجعل النبوّة فى أحد من

البشر، لكانوا أحقَّ بها دُونَه، والتعريضُ فى القرآن واردٌ كثيراً بأحوال الكفرة فى التهكّم والنقص وإسقاط المنزلة وحطّ القَدْر، ومواضعُها دقيقةٌ تُستَخْرَجُ بالفكر الصافى، والرسوخ فى قدم البلاغة

(الضرب الثانى)

ما ورد من السنة النبوية، فمن ذلك أنّه خرجَ يوماً وهو محتضنٌ لأحد الحسنَين فقال لهما « إنكما لَمِنْ رَيْحَان الله، وإن آخرَ وطْأَةٍ وَطِئَهَا اللهُ بِوَجٍّ » فهذا الكلامُ وأمثالُه أوردهُ على جهة التعريض لغيْره، وأقامَه مُقامَه، فوَضَعَ قوله (إنكما من ريحان الله) موضع الرحمة بهما والشفقة والحُنُوّ والعَطْف عليهما، وإعْظام المنزلة عنده لهما، فعرّض به عن ذلك، ثمَّ وضَع قولَه (وإن آخر وطْأَةٍ وطئها الله بوَجّ، موضع النّعْى لنفسه والتعزية لها بكونه قد قرُبَتْ وفاتُه، ووجهُ التعريض، هو أن وَجًّا موضعٌ بالطائف، وأراد به غزَاةَ حُنَيْنٍ، لأنها آخرُ غزْوةٍ وقع فيها القتالُ مع المشركين، فأمّا غزْوَةُ تَبُوكَ، والطائف، اللتان كانتا بعدها فلم يكن فيهما قتالٌ، وإنما كان خروجٌ من غير ملاقاةٍ للحرْب،

فكلُّ هذا الكلام تعريضٌ بقُرْب وفاته وتأسُّفٌ على مفارقة أولاده ، لأن غزوة حُنَينٍ كانت فى شوّال سنةَ ثمان ، ووفاتُه كانت فى ربيع الأول من سنة إحدَى عشرة فكأنه قال : إنكما لَمِنْ رزْقِ الله الذى يُستراحُ به ، وتَقَرُّ به النفسُ ، وإنى مُفَارِقُكم عن قريب ، فانظر الى هـذا التعريض ، ما أحسن مَغْزَاه وأدقَّ فى البلاغة مجْرَاه ، وكم فى السنة النبوية من هذه اللطائف العجيبة ، والأسرار الدقيقة والرّموز الخفية

(الضرب الثالث)

كلامُ أمير المؤمنين كرّم الله وجهه ، قال فى كلام يخاطبُ به زِيادَ ابنَ أبيه ، وكان عاملاً لعامله عبد الله بن عباس على فارسَ وكرْمَان ، وكُورِ الأهوَاز ، « وإِنى أُقسمُ بالله قسماً صادقاً لَئِنْ بلغنى أنك خُنْتَ مِنْ فَىْءِ المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشُدَّنَّ عليك شَدَّةً ، تَدَعُكَ قليلَ الوَفْرِ ، ثقيلَ الظّهْرِ ، ضئيل الأمر ، والسلام » فهذا كما يحتمل أن يكون على ظاهره فإنه يحتملُ أيضاً أن يكون قد أخرجه مُخرج التعريض فيما كان منه من الانتساب الى أبى سفيان وتهديداً له على ذلك ، فأوْقعَه موقِعَه ، وقوله عليه السلام :

« أيّها الناسُ سَلُونى قبل أنْ تفقدونى فلأَنا بطُرُقِ السماءِ أعلمُ منى بطُرق الأرض قبلَ أنْ تَشْغَرَ برِجلِها فتنةٌ تَطَأُ فى خطامِها ، وتذهبُ بأحلامِ قومِها » فكما يمكن حملُ هذا على ظاهره وهو السابقُ الى الأفهام منه ، يمكن أيضاً أن يكون أورده مورِدَ التعريض تهكُّماً بأصحابه ، وانتقاصاً لقدرهم ، لعدم علمهم بقدره وجهلهم بحاله وأمره ، فرمَزَ بهذه المقالة الى ذلك ، ومَنْ لحَظَ كلامَه بعين الإنصافِ ، وأصغى سمعَه لقبول الحق ودَانَ بالاعتراف ، عرف أن كلامه فى البلاغة شمسٌ لا يشاركه غيره فى الشعاع وأنه فى الفصاحة فَلَكٌ لا يُدانيه غيرُه فى الارتفاع

(الضرب الرابع)

ما ورد فى كلام البلغاء من التعريض ، حَكَى ابنُ الأثير في كتابه : أنّ مروان بن الحكم كان والياً على المدينة من قبل معاويةَ ، فعزَلَه ، فلمّا قدِمَ عليه قال : عزلتُك لثلاثٍ ، لولم تكن الاّ واحدةٌ لأوْجبَتْ عزْلَك ، إحداهنّ أنىّ أمّرْتُك على عبد الله بن عامر ، وبينكما ما بينكما ، فلم تَسْتطعْ أنْ تَشْتفِيَ منه ، والثانيةُ منهنّ كراهتُك أمْرَ زياد ، والثالثةُ أنَّ ابنتى

(رَمْلَةَ) استعدَتْكَ على زوجها عَمْرِو بن عثمانَ ، فلم تعدِها، فقال له مروان : أمَّا عبدُ الله بن عامرٍ، فإني لا أنتصرُ عليه في سلطاني ، ولكن إذا تساوت الأقدامُ ، علِمَ أين موضِعُه ، وأمَّا كراهتِي أمرَ زيادٍ ، فإنَّ سائرَ بنى أُمية كرِهوه ، وأمَّا استعداء (رملةَ) على عمرو بن عثمان ، فواللهِ إنه ليأتِي عليَّ سنَةٌ وعندى بنتُ عثمانَ فما أَكشفُ لها ثوباً ، يريد أنَّ (رملَةَ) بنت معاويةَ ، إنما استعدَتْ لطلَبِ الجماع ، فقال معاويةُ : يا بْنَ الوَزغِ ، لستَ هناك ، فقال له مروان هو ذاك ، وهذا من التعريضات اللطيفة الآخذة من حُسْن الملاطفة بحظّ وافرٍ ، وألْطَفُ منها وأدخلُ في الرشاقة ، ما رُوِيَ عن عُمَرَ بْنِ الخطاب رضي الله عنه، وذلك أنه كان يومُ الجمعة ، فدخل عثمانُ بنُ عفَّانَ ، فقال له عمَر : أيُّ ساعةٍ هذه ، فقال له عثمان يا أميرَ المؤمنين انقلَبْتُ من السُّوق فسمعتُ النداء فَمازدتُ على أنْ توَضَّأْتُ ، فقال عمَر : والوضوء أيضاً ، وقد علمتَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمُر بالغُسْل، فقولُه أيُّ ساعة هذه ، تعريضٌ بالإنكار عليه ، لتأَخُّره عن الحضور للصلاة ، وترْكِ السبْق إليها ، وإنّهما من حُسْن الأدب والإنصافِ لفي أَحسن موقِعٍ ،ومن

التعريض اللطيف ما رُوى عن اُمرأة أنها وقفتْ على قيسِ بن سعد ، فقالت : أشكو إليك قِلّةَ الفأرِ فى بيتى ، فقال : ما أحسَن ما ورَّتْ عن حاجتها ، اُملؤا لها بيتها خُبزاً وسَمْناً ولحْماً ، ويُحكى أن عجوزاً تعرّضتْ لسليمانَ بن عبد الملك بن مَرْوان ، فقالت له : يا أمير المؤمنين مشتْ جرذانُ بيتى على العصىّ ، فقال لها أَلْطفْتِ فى السؤال، لاجَرَمَ لأَرُدَّنَّهَا تَثِبُ وَثْبَ الفُهُود، وملأ بيتَها حبّاً، وأنا شديدُ العجب والاستغراب من ابن الأثير ، حيث أوردَ فى كتابه المثل ، طُرفاً وعجائب وحكاياتٍ فى المنظوم والمنثور عن أهل البلاغة ، وحكى عن نفسه ما كان منه من التقليداتِ ، والكُتب ، والرسائل والتهانى والتعازى حتى ملأ كتابه ممّا كان منه من ذلك ، وأُعجِبَ بحاله وأمره فيما هنالك غايةَ الإعجاب ، وما درى أنّ الإعجاب، ضدّ الصواب ، وأغفَلَ على كثرة ما نقل ، كلامَ أمير المؤمنين فى الخُطَب والرسائل ، والكتب الوجيزة ، ومعانى التوحيد التى أشار اليها ، ودقائق البلاغة ، وأسرار الحِكَم فى طويل الكلام وقصيره ، مع أنه لا غايةَ فى البلاغة الاّ وقد بلغها ، ولا نهايةَ الاّ وقد تجاوزَها ، ولقد كان الاقتصارُ على كلام أمير

المؤمنين فيه شِفَاءُ كلِّ علّةٍ ، وبَلالُ كلِّ غُلّة ، وما أحقّه بكلام أبى الطيب المتنبى

خذ ما تراهُ ودَعْ شيئًا سمعتَ به
فى طَلْعَةِ الشمسِ ما يُغْنيك عن زُحَلِ

(الضرب الخامس)

(فيما ورد من التعريضات الشعرية)

فمن ذلك ما قاله الشَّمَيْذَرُ الحارثى

بَنِى عمِّنا لا تذكرُوا الشِّعْرَ بعد ما
دفنتُمْ بصحْراء الغُمَيْرِ القَوافيا

فليس قصدُه مما قال ، الأبياتَ الشعرية ولكنه قصدَ تعريفَهم بما كان جرى فى ذلك الموضع من الظهور عليهم والقتل لأشرافهم ، فذكرَ الشِّعرَ ، وجعله تعريضا ، أى لا تفخرُوا بعد تلك الوقعة ، ومن ذلك ما قاله امرُؤ القيس

وصِرْنا الى الحُسْنَى وَرقّ كَلامُنا
ورُضْتُ فذَلّتْ صعبة أَىَّ إِذْلالِ

فهذا جعله للتعريض عن الجِماع ، وقد عدّه بعضُ علماء البيان كالْفَاغىّ والعسكرىّ ، من الكناية ، وهو محتملٌ لهما

جميعا ، ولأجل تقارُبِهما تكاد أن تَخْتلطَ أَمْثِلةُ أحدهما بالآخر كما سنذكر التفرقة بينهما بمعونة الله تعالى ، ومن التعريض الرائق ما قاله نَصرُ بنُ سَيَّارٍ فى شَحذِ عزائم بنى أُمَيَّةَ بإدراكِ الثأر ، والانتقام لمن أرادهم

أَرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ
ويُوشِكُ أن يكونَ له ضِرَامُ
فإنّ النار بالزَّنْدَيْنِ تُورَى
وإِنّ الحربَ أَوَّلُها كَلامْ
أقولُ من التعجّبِ ليتَ شِعْرِى
أَأَيقاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيامُ
فان هَبُّوا فذاكَ بقاءُ مُلْك
وإِنْ رَقَدُوا فإِنِّى لَا أُلَامُ

وقد يرد التعريض من غير الالفاظ العربية كالتوراة ، والإنجيل ، والسريانية ، والفُرْسيَّةِ ، وذلك لكثرة الحاجة اليه، وأعجبُ ما سمعتُه من ذلك ، أنّ رجلاً من خواصِّ كِسْرَى قيل له إِنّ المَلِكَ يختلف الى امْرأَتِك ، فهجَرَها من أجلِ ذلك ، وترَكَ فِراشَها ، فأُخبرتْ كِسْرَى ، فدعاه ، وقال له ،

قد بلغنى أنّ لك عَيْناً عذْبَةً وأنك لا تَشْرَبُ منها ، فقال له : أيُّها المَلِكُ بلغنى أنّ الأسدَ يَرِدُها ، فخِفْتُه ، فاستحسن كَسْرَى منه كلامَه ، وأسْنَى عَطِيَّتَه

﴿ المقصد الثانى ﴾

فى بيان التفرقة بين التعريض والكناية ويشتمل على تنبيهات ثلاثة

(التنبيهُ الأول)

(فى أن التعريض ليس معدوداً من باب المجاز)

وبيانُه هو أن المجاز ما دلّ على خلاف ما وضع له فى الأصل ، والتعريضُ ليس حالُه هكذا ، فإنه دالٌّ على ما كان دالاًّ عليه فى الأصل ، خلا أنه أفاد معنًى آخر بالقرينة . ومثاله قوله تعالى « أفَحسِبْتُمْ أنّما خلقْنَاكمْ عَبَثًا » فهذا استفهامٌ ورد على جهة الإنكار ، وهو مجازٌ فيه ، وهو دالٌّ على ما وضع له ، لكنّه تعريضٌ بالكفار فى إنكار الرّجْعة ، والمَعَاد الأخروىّ ، وليس دالاًّ عليه من جهة مجازه ، ولا من جهة حقيقتِه ، وإنما هو مفهوم من جهة القرينة ، كما قررناه من قبل ، ومن غريب ما جاء فى التعريض قول أمير المؤمنين كرم الله

وجهه : « إِنَ الموتَ طالبٌ حثيثٌ لا يفوتُهُ المُقيمُ ، ولا يُعْجزُه الهاربُ ، وإنّ أكرَمَ الموتِ القتلُ ، والذى نفسُ ابنِ أبى طالبٍ بيده ، لَضَرْبَةُ ألفِ سيفٍ أهْوَنُ علىَّ من ميتةٍ على الفراش » فهذا كلامُه ، قاله على جهة التعريض لأصحابه فى تأخّرهم عن الجهاد ونُكوصِهِمْ عن قتال عدوهم، ثم قوله أيضا: يخاطب به أصحابه « أينَ القومُ الذين دُعُوا الى الإِسلامِ فقبلُوه ، وقرَؤا القرآنَ فأحْكَمُوه ، وهُيّجوا للجهاد فوَلِهُوا ولَهَ اللِقّاحِ لأولَادِها ، وسلبُوا السيوف أغمادَها ، وأخذُوا بأطْرافِ الأرض زَحفاً زَحْفاً ، وصَفّاً صفًا ، بعضُهم هالك ، وبعضُهم نجا » الى آخر كلامه فهذا كلامٌ أخرجه مُخرِجَ التعريض بأصحابه ، حيثُ لم ينْقَادوا لأمره ، ولا استمعوا قوله

(التنبيه الثانى)

(فى بيان موقعه)

واعلم أن موقعَه إِنما يكون فى الجمُل المترادفة ، والألفاظِ المركّبة ، ولا يَردُ فى الكَلِم المفردةِ بحالٍ ، والسِرُّ فى ذلك هو أن دلالتَه على ما يدلُّ عليه لم يكن من جهة الحقيقة ، ولا من جهة المجاز ، فيجوز ورودُه فى الألفاظ المفردة والمركبة كما جاز

فى الحقائق ، وكما جاز فى المجازات ورودهما معاً كالاستعارة ، والتشبيه المضمر الأداة ، والكناية ، فإنها واردةٌ فى الأمرين جميعاً ، كما لخصناه من قبلُ ، وإنما دلالتُه كانتْ من جهة القرينة، والتلويح والإشارةِ، وهذا لا يَسْتقلُّ به اللفظُ المفردُ، ولكنه إنما ينشأ من جهة التركيب ، فلأجل هذا كان مختصاً بالوقوع منه ، لا يقال فإذا كان التعريض ليس مدلولاً عليه باللفظ ، لا مجازاً ولا حقيقةً ، فأىُّ مانعٍ من اشتغالهم به فى الكلم المفردة ، كما كان فى المركبة ، فأىُّ تفرقةٍ بينهما فى ذلك ، لأنا نقول : هذا مردودٌ من وجهين ، أما أوّلاً فلأنّ أمرَ الوضع موكُولٌ الى اختيارهم ، وموقوفٌ على ما فهمناه من تصرّفاتهم ، فلأمرٍ مّا قصَرُوه على المركب لا غيرُ ، وأمّا ثانياً فلعلّ اللفظ المركبَ أدلُّ على المقصود، وأوضحُ للمُراد ، ولا حرج عليهم فى قصرْه عليه

(التنبيه الثالث)

(فى بيان التفرقة بينه وبين الكناية)

ويظهر ذلك من أوجه ثلاثة ، أولها أَن الكناية واقعةٌ فى المجاز ، ومعدودة منه ، بخلاف التعريض ، فلا يُعَدُّ منه ،

وذلك من أجل كون التعريض مفهوماً من جهة القرينة ، فلا تَعلَقَ له باللفظ، لا من جهة حقيقته ، ولا من جهة مجازه ، وثانيها هو أن الكناية كما تقع فى المفرد ، فقد تكون واقعة فى المركب ، بخلاف التعريض ، فإنه لا موْقعَ له فى باب اللفظ المفرد كما مرّ بيانه ، وثالثها أن التعريض أخفَى من الكناية ، لأن دلالة الكناية مدْلولٌ عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز ، بخلاف التعريض ، فإنما دلالتُه من جهة القرينة . والإشارة ، ولا شكّ أنّ كلّ ما كان اللفظ يدلُّ عليه ، فهو أوضح مما يدلُّ عليه اللفظ ، وإنْ عُلِمَ بدلالةٍ أُخرى ، ومن أجل هذا فرَقَ علماء الشريعة بين صريح القَذْف وكنايته ، وتعريضه ، فأوجَبُوا فى الصريح من القذف الحدَّ مطلقاً فى قولك : يازانى ، وأوجبوا فى كنايته الحدَّ اذا نَوى به فى مثل قولك : يافاعلاً بأمّه ، ويا مفعولاً به ، ولم يُوجبوا فى التعريض الحدّ فى مثل قولك . يا وَلَدَ الحلال ، وما ذاك إلاّ لأجل أنّ الصريح والكناية ، يدلاّن على القذف من جهة اللفظ ، إمّا بالحقيقة ، أو بالمجاز ، ويُحكى عن الإمام الناصر أنّ رجلاً قال لرجل بحضرته . ياوَلَدَ الحلال ، فلم يحُدَّه ، واعتذر بأنهُ لا حدَّ فى التعريض ، فصار التعريضُ وإن لم يكن معدوداً

من المجاز ، لكنه أخص من الكناية ، ولهذا فإن كلَّ تعريضٍ كنايةٌ ، وليس كلُّ كناية بتعريض ، فهى أعمُّ منه ، والكناية بالإضافة الى الاستعارة خاصةٌ، ولهذا فإن كلّ كناية فهى استعارة ، وليس كلُّ استعارة تكون كنايةً ، لمَا كانت أخص منها، فأمّا التشبيهُ المضمر الأداة والاستعارةُ التى لا يظهر فيها مقصود التشبيه ، فهما نوعان لا يدخل أحدهما تحت الآخر، لكن التشبيهُ المضمر الأداة ، يمكن اندراجهُ تحت التشبيه ، لَمّا كان التشبيه مقدراً فيه ، ويمكن اندراجهُ تحت الاستعارة لمّا كان حرف التشبيه غير ظاهر فيه ، فإذَنْ حقيقتهُ منحدرةٌ اليهما كما ترى ، وقد أسلفنا فيه قولاً بالغاً يُطلِعُ على السرِّ والغاية ويفى بالمقصود وإحرَازِ النهاية ، ثم إنها مندرجة تحت المجاز ، لأنها أنواعه وهو جنسها ، فهذا ما أردنا ذكره فى التعريض ، وهو الفصل الثانى

الفصل الثالث

فى بيان أمثلة الكناية ، وذكرِ شواهدها ولها شواهدُ وأمثلةٌ من جهة الكتاب ، والسنة ، وكلام أمير المؤمنين ، وكلام البلغاء ، والكنايات الشعرية ، فهذه أنواع خمسة

(النوع الأول)

(فى بيان ما ورد من الكنايات القرآنية)

فمن ذلك قوله تعالى « أيُحِبّ أحدُكُمْ أنْ يأكُلَ لَحْمَ أَخيهِ ميتاً فكرهتُمُوهُ » فهذه الآيةُ قد اشتملت على نُكَتٍ سبْعٍ ، كلُّها دالّةٌ على حُسْن المطابقة لمقصد الكناية التى وقعت من أجله، نُفَصِّلُها بمعونة الله تعالى

(النكتة الأولى)

قوله تعالى « أيُحِبّ أحدكم » إنما جعله محبوباً لما جُبِلَتْ عليه النفوسُ ، ومالَتْ اليه الاهواء ، من الإسراع الى الغيبة والإصْغاء الى من يتحدَّثُ بها ، مع ما فيها من الحَظْر ، ووعيد الشرع ، فلهذا صدّرها بالمحبة ، مشيراً الى ما ذكرناه ، ويؤيّدُ ما ذكرناه أنه أُتى فيها بلفظ المحبّة ، ولم تجىء بلفظ الإرادة ، دالاًّ بذلك على موقعها فى النفوس وتَطلّعِ الخواطر اليها ، ولفظُ الإرادة يعطى هـذا المعنى ، ولا يتمكن فى الأفئدة تمكُّن المحبة فلهذا آثره

(النكتة الثانية)

قوله تعالى « أن يأكل لَحْمَ أخيه » إنما جعل الغِيبَةَ

بمنزلة أكل الانسان لحمَ غيره ، لما فى ذلك من شدّة الملاءمة للمعنى ، وعظم المناسبة فيه ، وذلك أن الغيبةَ إنما تكون بذكر معايب الناس ، وبيان مثالبهم وتمزيق أعراضهم ، ولا شكَّ أنّ تمزيق العرض مماثلٌ لأكل الإنسان لحمَ من يغتابه ، لان أكلَ اللحم تقطيعٌ له ، وتمزيقٌ لأوصاله ، ومن وجه آخر ، وهو أن الناس يُولَعُون بالغيبة ، ويشتدُّ شوقُهم إليها كما يُولَعُ الانسانُ بأكل اللحم ، ويَعْظُم شوقُه اليه ، ولأجل هذا شبّهه بأكل اللحم

(النكتة الثالثة)

قوله تعالى « لحم أخيه » فأضافه الى الأخ ، وإنما جعله كلحم الأخ لأمرين ، أمّا أولاً فلأن التحريم إنّما وقع فى غيبةِ المسلمين وأهلِ الديانةِ دون غيرهم ، فلا حُرْمةَ له ، من كافرٍ ولا فاسقٍ ، ولا شكّ أن المؤمنين إخوةٌ بنص القرآن ولهذا أشار اليه بقوله « لحم أخيه » وأمّا ثانياً فلأن أكل الانسان لحمَ الأجنبيّ يكون مستكرهاً خبيثاً ، فضلاً عن كونه أخاً له ، فلا شكّ أن التحريم أوقعُ ، والغيبةُ فيه أعظم من غيره ، فلا جرَمَ أوْرَدَه على جهة المبالغة فى المعنى

(النكتة الرابعة)

قوله تعالى « مَيْتًا » وانما جعله (مَيْتا) لأمرين ، أمّا أولاً فلأن المُغْتابَ غائباً بمنزلة الميت ، فلا يشعُر بما وقع فيه من النقْصِ ، ولا يستطيع الدفعَ لعدم شعوره ، وأمّا ثانياً فلأن أكل اللحم إذا كان هَزِيلاً رُبّما يُستَكْرَهُ ويُستَخْبَثُ فى النفوس ، فكيف به إذا كان ميتةً ، يكون لا محالةَ أدْخلَ فى التقْذير وأعْظمَ فى الاستخباث

(النكتة الخامسة)

قوله تعالى « فكرهتموه » وانما عقّبه بالإخبار عمّا هذا حالهُ . فهو مكروه ، لأن العقول مشيرةٌ الى ما اختص بخصلة من هذه الخصال . فهو فى غاية الكراهة ، فضلاً عمّا إذا كان جامعاً لها يكون لا محالةَ أدخَلَ فى الاستكراه ، فلهذا أخبر عنه بكونه مكروها

(النكتة السادسة)

أن الله تعالى صدّر هذه الآية بالمحبة ، وختمها بذكر الكراهة ، وإنّما فعَل ذلك تنبيهاً على كونها مُحْتَوِشَةً بطرفين

نقيضين ، متضادّين ، فلأجل تمكُّنها فى القلوب وميل الخواطر الى مُلابَستها وفعلها ، فهى محبوبة ، ولأجل كونها بمنزلة أكل لحوم الإخوة الأموات مكروهة ، فلا جرَمَ صدّرها وختمها بما ذكرناه تنبيهاً على المعنى الذى أشرنا اليه

(النكتة السابعة)

تلتفتُ الى مفردات ألفاظ الآية ، وذلك أن الله تعالى آثرَ ألفاظَها على ما يُماثلها فى تأدية معناها ، تعويلاً على البلاغة وإعطاءً لجانب الفصاحة ما يستحقهُ ، فنَزَّلَ هذه الآية على هذه الهيئة ، ولم يقل فيها . أيُريد رجلٌ منكم أن يَمْضُغَ جلْدَ مسلم غائباً فعفتُمُوه ، وما ذاك الاّ لأن كلّ واحدة من ألفاظ الآية مختصٌّ بفضْل بلاغة ، ونوعِ فصاحةٍ لا يكون مثلُه ، كما أشرنا اليه ، ومن ذلك قوله تعالى « أنْزَلَ من السماءِ ماءً فسَالَتْ أوْدِيَةٌ بقدَرِها فاحْتَمَلَ السيْلُ زَبَداً رَابِياً ومِمّا تُوقِدُون عليه فى النارِ ابْتِغَاءَ حلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مثْلُه » ثم قال « كذلكَ يَضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ » الى قوله « فيمكُثُ فى الارض » فهذه الآية لها تقريران

التقريرُ الأولُ من جهة ظاهرها ، وهو أن الله أخبر

أنه أنزل المطر من السماء فسالت الأودية والشعابُ بقدر ما أنزلَ فيها منه ، من الكثرة والقلّة ، فاحتمل السيلُ لأجل ما اختصّ به من الحركة ، والانحدار والجرْى زَبداً رابياً يعلُو على ظهر الماء ، ومما توقدون عليه فى النار ، أى ممّا يحتاج الى الإخلاص من هذه الأحجار المعدنية التى فى إخلاصها واجتماعها الى النار ابتغاء حلْية كالذهبيات والفضّيات أو متاعٍ ، كالحديد ، والرّصاص ، والنحاس ، زبدٌ مثلُه ، يعنى أن هذه المعادن فى أصلها كالزبد ، يُشير الى أن ابتداء خلقها كذلك ، الاّ أنها صارت هكذا بالإخلاص ، ليكون أدخل فى الحكمة ، وأظهرَ فى كمال القدرة (كذلك) أى مَثَلُ ما ذكرناه ، من السيل والزبد ، والإشارة بقوله (ذا) الى المذكور أوّلاً (يضرب الله الحق والباطل) يريد أن الحقّ مشابهتُه للسّيل من جهة صفائهِ وركودهِ ، وكثرة الانتفاع به ، وأنّ الباطل يشبه الزّبَد ، فى خفّته وجفَافه ، وطيَرَانه ، بهبوب الرّيح ، وقلّةِ الجدْوَى فيه ، وقد أشار تعالى الى ما ذكرناه من حالهما بقوله « فأمَّا الزَّبدُ فيذْهبُ جُفَاءً وأمَّا مَا ينْفَعُ النَّاسَ فيمْكُثُ فى الأَرْض » فهذا ما تقتضيه الآية من جهة ظاهرها ، وهو السابقُ الى الافهام ، وأمّا

قوله تعالى « ومما تُوقدون عليه » فهى جملة معترضةٌ بين المثال، والممثول فى السيل، والزبد، للحق والباطل

التقرير الثانى من جهة الكناية، وهو أن يكون قد كَنَى بقوله (ماءً) عن العلم، وبالأودية عن القلوب، وبالزبد عن الضلال، وهذه الآيةُ قد ذكرها الشيخ أبو حامد الغزالى فى كتابه الذى لقَّبه بجواهر القرآن ودُرَره، وأشار فيها الى أن فى القرآن إشاراتٍ وإيماآتٍ لا تنكشف الاّ بعد الموت فنقول . المعتمد فيما يقبل من التأويل، وما يعوّل عليه من ذلك، هوأن ماكان من المعانى محتملاً لحقيقة اللفظ أولمجازه، فهو مقبولٌ يُعَوَّلُ عليه، وما كان من التأويلات لا يحتمله اللفظ من جهة حقيقته، ولا مجازه فهو مردودٌ على قائله، فهذا هو الأصل والقاعدةُ فيما ذكرناه، ولو ساغ تأويلُ القرآن على ما لا يحتمله اللفظ مجازاً ولا حقيقة، لساغ للباطنيَّةِ ما يزعمونه، من تأويل العَصَا بالحجَّة، والثعبان بالبرهان، فى قوله تعالى « فألقى عصَاهُ فإذا هى ثُعْبَانٌ مُبِينٌ » والمرادُ بالأنهار العلمُ فى قوله تعالى « وأَنهَارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى » الى غير ذلك من التأويلات المستهجَنَة، وهذا يفتح علينا باباً من علم التأويل ويُحَرِّكُ قُطْباً من مسائله استقصاؤُهَا يُخرجنا عن مقصد

الكتاب ، وقد ذكرنا منه طرفاً أودعناه كتابَ المشكاة فى الرّد على الباطنية فالتأويل فى الآية إِن استُعمل مجازاً وإِن بَعُد وكان غريباً قبلْناه ، وإِن لم يكن مستعملاً فى المجاز رددناهُ حِرَاسةً للتنزيل عن التأويلات الركيكة ، وصوناً لمعانيه عن المحتمَلات الرديئة الفاسدة ، فأمّا الشيخُ أبو حامد الغزالى رحمه الله فإِنه إِن أتى بغريب من التأويل وبعيدِهِ فلأنه لا وطأةَ له فى علم البيان ، وإِخالُه لم يتغلغلْ فى كُنْهِ أسراره ، ولا خاض فى غمرات بحاره ، ومن ذلك قوله تعالى « وأورَثَكُمْ أرضَهُمْ وديَارَهم وأموالَهم وأرضاً لَمْ تَطؤُهَا » فظاهر الآية دالٌّ على أن الأرض هى العقاراتُ ، والديارَ هى المساكنُ ،والأموالَ هى المنقولاتُ ، وقوله « وأرضاً لم تَطؤُها » يحتمل أن يكون كناية عن فروج النساء ونكاحهن ، وهذا من جيّدِ الكناية ونادرها ، لمطابقتها لقوله تعالى « نساؤُكم حرثٌ لكم » والحرثُ إِنما يكون فى الأرض ، فلهذا ازدادتْ رَشاقةً وحسْناً ، فهذه الآيات كلّها يجوز حملُها على ما ذكرناه من الكنايات على جهة المجاز مع الوفاء بما تحتملُه من ظاهرها على وجه الحقيقة ، وقد قرّرنا فيما سبق أنه ليس فى المجازات ما يجوز حملُه على حقيقته ، ومجازه ، معاً سوى الكناية فلا

مطمَع فى إعادته ، وفى القرآن كنايات كثيرة أعرضنا عنها استكفاءً بما ذكرناه ، وتنبيهاً بالأقلّ منها على الأكثر

(النوع الثانى)

(فيما ورد من الكنايات فى الأخبار النبوية)

فمن ذلك ما رُوى أن رجلاً يقالُ له (أَنْجَشَةُ)(١) غلامٌ أسودُ وكان فى بعض أسفاره، فحدا بالإبِلِ فطربتْ لحُسن حُدائِهِ فأسرَعتْ فى سيرها وعليها النساء فقال الرسول صلى الله عليه وسلم. ويحَكَ يا أنْجَشَةُ ، سوْقكَ بالقوارِير ، فهذه كناية لطيفةٌ ، وإنما كنى عنهنّ (بالقوارير) لأمور ثلاثة ، أمّا أوّلاً فلما هُنّ عليه من حفْظِ الأجنّة ، والوعاء كالقارورة تَحفظُ ما فيها ، وأمّا ثانياً فلاختصاصهنّ بالصّفاء والصّقالة ، والحُسْن والنّضارةِ ، وأمّا ثالثاً فلما فيهن من الرّقة والمسارعة الى التغيُّرِ والانثلامِ ، كما يتسارع الانكسار الى القارورة لرقّتها ، وهذا الوجه هو الذى يومئُ اليه كلامُ الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال له. (رِفقاً بالقوارير) فى حديثٍ غيرهذا ، ومن ذلك ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال . كانتِ امراةٌ ممّنْ

(١) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان من قبلنا ، وكان لها ابنُ عم يُحبها فراودَها على نفسها فامتنعتْ منه ، فأصابتْها سنةٌ مُجْدِبةٌ فجاءتْ إليه تسأله فراودَها فمكّنَتْه من نفسها ، فلمّا قعدَ منها مقعدَ الخائن قالت له : اتقِ اللهَ ولا تَفْضُضِ الخاتَمَ إلاّ بحقّه ، فقامَ وتركَها ، وهذه كناية قد وقعتْ موقعها فى اللطافة والرّقه ، وكَنَتْ بالخاتَم عن بكارتها ، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذى لم ينكسر ختْمُهُ ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لمّا جاءهُ رجلٌ يشهدُ له بالزّنا على نفسه ، فقال له . لعلك لا تَعْرفُ الزّنا ، فقال له . والله يا رسول الله لقد غَيّبْتُ ميلى فى مُكْحُلَتِها كما يُغَيّبُ الرّشاءُ فى البئر ، فكَنى بالميلِ عن الذّكَرِ ، وبالمُكْحُلَةِ عن فرج المرأة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لخَوَّاتِ بن جُبيْرٍ ، وقد كان خَوَّاتٌ كثيراً ما يَردُ على النساء فى مَجامعهنّ فيقول . إنّ معى بَعيراً شَرُوداً فمن يَفْتِلُ له منكنّ قيداً أُقَيّدُهُ بهِ ، فكَنَى بالبعير عن ذكَره فقال له الرسول صلى الله عليهِ وسلم يوماً وقد لقيَه ، ياخَوَّاتُ ما فعلَ بَعيرُكَ الشاردُ ، فقال يا رسول الله قيّدَهُ الإسلامُ ، وإنّما كَنَى بالبَعيرِ عن الذّكَرِ ، لأن اشتداد الغُلْمَةِ وعظَمَ الشَّبَقِ بمنزلة صعوبة الإبل ، وشدّةِ معالجتها ، وعزّةِ مِراسِها ،

فلهذا قرّره الرسول صلى الله عليه وسلم على تلك الكناية لما ذكرناه، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى غزوةِ (بَدْرٍ) حين رَآى أهلَ مكةَ يَصُوبُونَ من العقنقلِ [1] يريدون لقاءه للحَرْب قال: (هذه مكةُ قد أَلْقَتْ إِليكم بأَفلاذِ كَبِدِها يريدون أن يُحادُّوا اللهَ ورسولَه) فكَنَى بقوله (أفلاذ كَبِدِها) عن الرؤساء والأكابر، لأن الكَبِدَ من أعزّ أعضاء الإِنسان، ويضافُ إِليها ضيقُ الإِنسان، وحزْنُه، وفرحُه وغمُّه، وأفلاذُها، قِطَعُها، فكَنَى بها عنهم، ومن ذلك ما يُحكى عن (بَدِيلِ) بن وَرْقاءَ الخزاعىّ وقد جاء الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى عام الحُدَيْبِيَة، حينَ نَزَلَ على الرَّكِيَّةِ فى نفرٍ من قومه من تِهامَةَ، فقال. أتى رَكْبُ كعبِ بن لؤىّ وعامر بن لؤىّ، نزلُوا على مياه الحُديبية، معهمُ العُوذُ المطَافيل، وهم مقَاتلوكَ وصادُّوك عن البيت، فقوله (العُوذُ المطافيلُ) جعلها كنايةً عن النساء والصبيان، والعُوذُ جمع عائذٍ، وهى الناقةُ التى قوىَ ولَدُها (والمطافيل) جمع مُطْفِلٍ، وهى الناقة التى معها ولدُها لقرب عهدها بالنّتاج،

---

(١) هو الوادى العظيم المتسع

ويجوز حملُ هذا على حقيقته ، أى الأموال الكريمة التى تكون قواماً لهم في الحرب ، وعوناً لهم عليها ، ومن ذلك قولُه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا قال له عمرُ . يا رسول الله هلكتُ فقال . وما أهلكك ، فقال حوّلتُ رحلى البارحةَ ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم أقبِلْ وأدْبر واتّق الدُّبُرَ ، والحَيْضةَ ، فكَنى عمرُ بقوله (حوّلت رحلى) عن أنهُ أتى امرأته من جهة دُبُرها ، فجعل تحويلَ الرَّحْلِ كنايةً عن ذلك ، لأن المرأة للرجل بمنزلة الناقةِ ، يأتيها فى الركوب من أىّ جوانبها شاءَ ، فهكذا حالُ المرأة ، ومن ذلك قولُه صلى الله عليه وآله وسلم (إيّاكُمْ وخضراءَ الدِّمنِ) وهذا تحذيرٌ ، وكَنى بقوله (خضراء الدِّمَنِ) عن المرأة الحسناء فى المَنْبت السُّوءِ ، وإنما كنى بذلك عنها ، لما فيه من المناسبةِ لأمرين ، أمّا أوّلاً فلأن أوّل عشرَتها يكونُ حسناً موافقاً ، ومن بعد ذلك تعود الى الفساد والرَّداءةِ ، كزرعِ المَزابلِ ، فإنه يُعجبُ أوّلاً ثم يذبلُ ويجفُّ ويزولُ على القُرْبِ ، وأمّا ثانياً فلأنّ غضارتَها ورونقها أياماً قليلةً ، وعن قريب وقد صارت مقحلةً (١) ذاتَ ذُبولٍ ، ومن ذلك قولُه صلى الله عليه وآله

---

(١) يابسة

وسلم (لجابرٍ) حين سايَرَه من مكةَ الى المدينـة ، وقد سأله عمّن نَـكَحَ ، هـلْ بِكْراً أم ثيّباً ، فقال له (إِذا قدِمْتَ فَالـكَيْسَ الـكَيْسَ) كنى بالـكَيْس عن حسن الشمائل فى الوِقَاعِ ولَطِيفِ المعاشرة عنده ، والإِقلال منه ، ولنقتصر على هـذا القدر من الـكنايات ففيـه كفاية وتنبيـه بالاقل على الاكثر

(النوع الثالث)

(فيما ورد من الكنايات عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه)

اعلم أنّ الـكنايات فى كلامه عليه السلام أكثرُ من أن تُحْصَى ، ولـكنّا نُورِدُ من ذلك نُـكَتاً لطيفةً ، فمِنْ ذلك قوله عليه السلام : فى ذَمِّ البصرةِ وأهلها (كـنتُم جُنْدَ المَرْأَةِ وأَعْوانَ البَهيمةِ ، رَغَا فَأَجبْتُمْ وعقُرَ فَهرَبْتُمْ) فأخرج هذا الكلامَ مُخْرجَ الـكناية ، فجعل قوله ، كنتم جندَ المرأة ، كناية عن خفَّةِ أديانِهم وتَرْكِ التصلّبِ والوَثاقَةِ فيها ، برياسَةِ المرأة عليهم ، ويشيرُ الى سقوط المرُوءة والشهامة ، وقوله (وأعوان البهيمة) جعله كناية عن جهلهم وسُخْفِ حلومهم وفراغ قلوبهم ، حيثُ انقادُوا للجمل ، وكانوا أتباعاً له فساروا حيثُ

سَار، وَوَقَفُوا حيثُ وقف، وهذا فيه نهايةُ الانتقاص ونزول القدْر وقوله (رَغَا فأجبتم) جعله كنايةً عن دُعاءِ عائشةَ الى حربه وتأَلُّبها عليه، وتشميرها فى قتاله، وقولُه (وعقر فهربتُم) جعله كنايةً عن الطيش والفشَل، وكثرةِ الانزِعاج، وهذه الكلماتُ فى الكناية كلّها دالّةٌ على نهاية الذمّ لهم، والرّكّة لأحوالهم، والتلبّس بالخصال الدنيئة فى الدّين والدنيا، وانسلاخهم عن الخصال الشريفة، والمراتب العلية، وهو بأَسرِهِ حكايةٌ عما كان بينه وبين عائشةَ وأهل البصرة، وطلحةَ، والزُّبير يوم الجمل، وصفةُ ما كان منهم ومنه فى ذلك، ومن ذلك قولُه عليه السلام. لَمّا قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ودُعِيَ الى المُبايَعة فقال: ما أجرٌ ولقمةٌ يَغَصُّ بها آكِلُها) فجعل هذا كنايةً عن أمر الخلافة وأنها صعبةٌ عسرةٌ، لذّتُها حقيرةٌ وأيّامُها قليلةٌ، وأخطارها عظيمةٌ، وأُمورُها صعبةٌ، فجعل هذه الأشياءَ كنايةً عمّا ذكرناه، ثم قال: (فإِنْ أَقُلْ، تقولُوا حرصَ علَى المُلْك، وإِنْ أسكُتْ، تقولوا جزِعَ من الموت) فهذا كلامٌ، أخرجه مُخرج الكناية عن كونه غيرَ مُنقادٍ لما قالوه، ولا طيِّبِ النفس لما دعوه اليه، ومعناه، فإِنْ أقلْ (نعَم) وقع فى نفوسهمْ أنّ مُساعدتى إِنّما كانتْ من

أجل محبتي للدّنيا ، وشغفي بلذّتها ، وطمعاً في عاجلها ، وإنْ أسكتْ ، أي لا أُجيبهم الى ما قالوا ، وقعَ في نفوسهم أنّ سُكُوتي ، وعدمَ انقيادي ما كان الاّ من أجل جزعي من الموت ، واقتحامِ موارده ، ومقاساة الشدائد ، وتحمّلِ أعباءِ الخلافةِ والنهوضِ بأثقالها ، ومن ذلك قولُه عليه السلام في الشّقشقيةّ (أمَا واللهِ لقد تقمَّصها فُلانٌ) يكني بذلك عن (أبي بكر) في خلافته ، (وإنّه ليعلمُ أنّ محلّي منها محلُّ القُطْبِ من الرَّحَا) كني به عن استحقاقه للإمامة ، وأهليّته لها ، وسبقِهِ اليها ، لاستكمال خصالها فيه ، (ينْحَدرُ عني السَّيْل ، ولا ترْقَى اليَّ الطّير) كني بذلك عن علوّ شأنه ، وارتفاع قدْره ، وعظم خطَره عند الله (فسدَلتُ دُونها ثوْباً وطويتُ عنها كشْحاً) كني بذلك عن إعراضِه عن الإمامة ، لأُمورٍ جرَتْ وعوارضَ حضرتْ ، فرأى أنّ الإعراض أحْجى ، وأَسلَمُ للدِّين وأرْضَى ، والسَّدْلُ هو إرْخاء جانبيَ الرّداء ، وطي الكشح ، كنايةٌ عن القطع ، يقال فلان طوَى كشْحه عني ، اذا قطعك ، ويحتمل أن يريد بطيّ الكشح ، أنه أضمر ما في نفسه ، وستَرَه وكتَمَه ، يقال طويتُ كشحي ، عن الأمر ، اذا أضمرْته وسترته ، وكلاَ الأمرين صالحٌ

ها هنا ثم قال (حتّى مَضَى الأولُ لسبيله) كنى به عن أبى بكر (فأدْلَى بها الى فلان بعدَه) كنى به عن عمر من تحمّله للخلافة بعده (إلى أن قَامَ ثالثُ القوم) كنى به عن عثمان وخلافته (وقام معه بَنُو أبيه) كنى به عن بنى مُعيْطٍ (يَخْضِمُونَ مَالَ اللهِ خِضْمَةَ الإبل ، نِبْتَةَ الرّبيع) يكنى به عن أخذ الأموال من غير حقّها ، ووضعها فى غير أهلها ، ولقد كان الامر فيهم كما قال عليه السلام من الخَضْمِ والقَضْمِ ، والتوسّع فى الأموال ، والترفُّه فيها ، فهذه الخطبةُ مشتملة على توجُّعٍ ،واصطبارٍ على ما كان منهم فى الإمامة ، من الاختصاص والإيثار ، ولم يصدُرْ من جهته عليه السلام ما يكونُ قَدْحاً فى أديانهم ولا حطًّا لمراتبهم ، ولا نَقْصاً لأقدارهم ، وقد ذكرنا تقرير إمامتهِ بالنصوص ، وأوردْنا ما يتعلق بحكم من خالفَها فى الكتب العقليّة ، ومن ذلك قولُه عليه السلام ، فى من يَتَصَدَّى للحكم وليس أهلاً له ، (فإن نَزَل به إحدى المُهمّاتِ هيَّأَ لها حَشْواً رَثًّا من رأْيِهِ ، ثم قَطَعَ به ، فهو من لُبْسِ الشُّبُهاتِ ، فى مثل نسْجِ العنكبوت . لا يدرى ، أَصابَ أمْ أَخطأَ) فهذا خارجٌ مَخرجَ الكناية عن جهله ، وقلّة البصيرة فيما يأتى ويذَرُ ، ثم قال (جاهلٌ خبّاطُ جهَالات ، عاشٍ رَكَّابُ عشْواءآت)

كنى به عن أنه لا يَدْرى ، أينَ يَضَعُ قدمه ، ولا أينَ منتهى قَدْره (لم يَعَضَّ على العِلْمِ بضِرْسٍ قاطِع ، يُذْرِى الروايات إِذْرَاءَ الريح الهشيم) كنى به عن خفّة الوطأة فى العلم ، وعدم القوة على إِحكام أصوله وفروعه ، وهى كناية لطيفة لا يقومُ لأحد بها لسانٌ ، ولا يطّلعُ على مُحّ فصاحتها إِنسان ، ولا يعرف قدرها ، ولا يستولى على سرّها ، ويعلم قدرَ جوهرِها الا الخواصّ من أهل هذه الصناعة وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلُها الا العالمون

(النوع الرابع)

(ما ورد من الكنايات فى كلام البلغاء)

فمن ذلك ما رُوى عن عمْرو بن العاص : أنه لما زوّجَ ولدَه عبد الله بن عمرو بن العاص ، امرأةً فمكثتْ عنده ثلاثَ ليالٍ ، لم يَدْنُ منها ، وإِنما كان ملتفتاً الى صلاته ، فدخل عليه عمرٌو بعد ثلاث فقال لها : كيف تَرَيْنَ بَعْلَك ، فقالتْ : نِعْمَ البعلُ هُوَ ، الاّ أنه لم يَغْشَ لنا كِنفاً ، ولا قَرُبَ لنا مَضْجَعاً ، فقولُها (لم يغش لنا كنفاً) من الكنايات الغريبة ، والكِنْفُ هو السّتْر ، والكنف الوعاء ، وكلاهما

محتملٌ ههنا ، ومن أمثال العرب قولهم (إِيّاكَ وعقيلَةَ المِلْحِ) جعلوا هذا كناية عن المرأة الحسناء فى منْبِت السوء ، فإِن عقيلة المِلح ، هى اللؤلؤةُ تكون فى البحر ، فهى حسنةٌ ، وموضعها مِلْحٌ ، ومن ذلك قولهم (لبس لَهُ جلدَ النمِرِ ، وجلدَ الأسد) اذا كثُرتْ عداوتُه ، وعظُم حقْدُه ، واشتد غضبه ، ولهذا قال أمير المؤمنين لابن عباس (وقد بلغنى تَنَمُّرُكَ على بنى تميم) يشير به الى ما ذكرناه ، ومن هذا قولهم (قَلَبَ له ظهْرَ المِجَنّ) جعلوه كناية عن أن يبدُوَ له خلافُ ما كان يعهدُه منه ، من الألفة والمودّة ، وقولهم (فلان ورِمَتْ أَنْفُه علينا) اذا كان مُغتاظاً يُظهر الحنَقَ والغضَب ، ومن هذا قولهم (الآن حَمِيَ الوَطيس) جعلوه كناية عن شدّة الحرب والتحامها ، أخْذاً لها من حرّ النار ، والوطيسُ التنُّور ، وقد قيل : إِن أوّل من تكلم بهذا المَثَل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى حُنَيْنٍ) لمَّا رآى جلادَهم بالسيف بعد الهزيمة للمسلمين ، قال ذلك ، فإِن صحّ هذا كان الأحسن إِيرادُه فى قسم كنايات الأخبار ، ومن ذلك ما ورد عنهم من قولهم (التقتْ حلقتَا البطَانِ) وهذا مثلٌ جعلوه كنايةً عن شدّة الأمر ، وازدحام العظائم فى الحروب وغيرها ، ومن

ذلك ما رُوىَ أنّ امرأةَ جاءت الى عائشةَ رضى الله عنهـا ، فقالت : أُقَيِّدُ جَمَلى ، فقالت لها عائشةُ (لا) وأرادتِ المرأةُ أنّها تصنعُ بزوجها شيئاً يمنعُه عن غيرها ، أى تَرْبطُه أن يأتىَ سواها ، فظاهرُ هذا اللفظ يُفيدُ تقييدَ الجمل ، وباطنُه أنها جعلته كنايةً عمّـا ذكرناه ، ومن هذا ما يُحْكى عن عبد الله بن سَلَام : أنه أتاه رجلٌ عليه ثوبٌ مُعَصْفَرٌ فقال له . لو أنّ ثوبَك هذا فى تَنُّور أهْلكَ لكان خيراً لك ، فذهب الرجلُ فألقاه فى التنُّور ، فاحترق ، ولم يُرِدْ عبدُ الله احتراقَه وإنما أراد المجازَ ، وهو أنه لو باعه وصرف قيمتَه الى دقيق يخبزُه فى التنّور أو حطب يُلقيه فيها لكان خيراً له ، وهذا الكلامُ حكاه ابن الأثير عن عبد الله بن سَلَام ، وهو مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمعناه فى سُنَن أبى داوُد ، ويمكن أن نقول . ما نقله عبد الله بن سَلَام هو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا قولُهم (فلانٌ يُقَدّمُ رِجْلاً ويُؤَخّرُ أخرى) جعلوه كنايةً عمن يتحيّرُ فى أمره ، فلا يدرى كيف يُورده ، ويُصدره ، وقولهم (ما زال يَفْتلُ فى الذّرْوَةِ والغَارِب) يجعلونه كنايةً عمّن يريدُ التلطّف والاحتيالَ فى المساعدة الى

مايقصدُه ويريدُه ، وقولهم (فلان ينفُخُ فى غير ضَرَمٍ)جعلوه كنايةً عمن يفعلُ فعلاً لا يُجْدى عليه بفائدة ، ولا يعود عليه بنفعٍ ، لأن النفخ فى غير ضَرَمٍ لا يُورى ناراً ، ومن هذا قولهم (فلان يَخُطُّ على الماء) يكون هذا كنايةً عمن يفعل فعلاً يكون عدمُه كوجوده بالإضافة الى عدم الفائدة . لأن الخطّ على الماء يذهبُ فى أسْرعِ شىءٍ وأقربه ، والكناياتُ كثيرةٌ فى كلام العرب ، وأمثالها ، وفيما ذكرناه غُنْيةٌ وكفاية ، وبالله التوفيق ، واعلم أن هذه الأمثلة التى أسلفناها من الكنايات من الكتاب ، والسنّة ، وكلام أمير المؤمنين ، فى الكناية فإنها واضحةٌ فى الاستعارة وضوحاً كلياً ، واحتمالُها للكناية بعيدٌ يحتاج الى تكلّف ، والمقصود هو معرفة الأمثلة وايضاحُ المقصود بها ، فإنْ هىَ صَلُحَتْ حصلَ المقصود ، وإن كانت غيرَ صالحة للتمثيل ، طُلِبَ غيرُها ولم يكن خلوها يُخِلُّ بالحقيقة المطلوبة

(النوع الخامس)

(فيما ورد من الكنايات الشعرية)

فمن ذلك قولُ أبى الطيب المتنبى فى مدح سيف الدولة

وشَرُّ ما قَنَصَتْهُ راحتى قَنَصٌ
شُهْبُ البُزَاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ

فكَنى بالبُزاة عن سيف الدولة ، وبالرّخم ، عن غيره ، وأنه يستوى فيه فى المال هو وغيره ، ومن ذلك قول الأُقيشِر الاسدى

ولقد أروحُ بِمُشْرِفٍ ذى ميعَةٍ
عَسِرِ المَكَرَّةِ ماؤه يتفصَّدُ
مَرِحٍ يَطِيرُ من المِرَاحِ لُعَابُهُ
ويكادُ جِلْدُ إهابِهِ يَتَقَدَّدُ

وكان عِنّيناً لا رغبة له فى النساء ، وكان كثيراً مّا يصفُ ذلك من نفسه ، فهذان البيتان جعلها كناية ، فهما كما ترى دالاّن بحقيقتهما على شئ ، وبمجازهما على غيره ، وهذه هى فائدة الكناية ، وحكى ابنُ الأثير أنّ سعيدَ بن عبد الرحمن وفد على هشام بن عبد الملك ، وكان جميلَ الوجه ، فراوده عبدُ الصمد على نفسه ، فدخل على هشام مُغْضَباً وهو يقول

أما واللهِ لولا أنتَ لمْ
يَنْجُ منّى سالماً عبدُ الصمد

فقال هشام ، ولما ذاك فقال

إِنّه قدْ رَامَ منّى خُطّةً
لم يَرُمْها قبله مِنّى أحَدْ

فقال له هشام ، وما هى فقال

رَامَ جهْلاً بِى وجَهْلاً بأبى
يُدْخلُ الأفْعَى الى خيسِ الأسَدْ

قال فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أُنكِرْه عليك ، ومما أنشده ابنُ الأثير فى الكناية وقال من لطيفها وعجيبها لأبى نواس فى الهجاء

اذا ما كنتَ جارَ أبى حُسَينٍ
فنَمْ ويَدَاكَ فى طرَفِ السِّلاحِ

فإِنّ له نساءً سارقاتٍ
إذا ما بِتْنَ أطْرَافَ الرِّماحِ

سرَقْنَ وقَدْ نزَلْن عليْهِ أبْرى
فلَمْ أَظْفَرْ به حتى الصباحِ

فجاءَ وقد تخدَّشَ جانبَاهُ
يَئِنُّ إلىَّ من أَلَمِ الْجرَاحِ

فجعل قوله (أطراف الرماح) كناية عن العضو المشار اليه ، وهذه عبارةٌ فى غاية اللطافة ، والحسن والرشاقة ، ومن جيّد الكناية وبديعها ما قاله الفرزدقُ يرثى امرأته

وجَفْن سلاحٍ قد رُزِئتُ فلَمْ أَنُحْ
عليه ولم أَبْعَثْ عليه البواكيا
وفى جَوْفِهِ مِنْ دارمٍ ذُو حفيظةٍ
لَوَ أنّ المنايا أَمْهَلَتْهُ لَياليا

وقد قيل: إنه ما كَنَى عن امرأة ماتت بأحسَنَ من هذه الكناية ، وإنها لجيّدةٌ فى معناها ، فائقة فى مقصودها ومغزاها ، ومما حسُنَ موقعهُ فى الكناية قول الشريف الرّضى

أحِنُّ إلى ما يَضْمَنُ الخُمْرُ والحُلَى
وأَصدِفُ عمّا فى ضَمان المآزرِ

ومن ذلك ما قاله أبو تمام فى الاستعطاف

ما لى رأيتُ تُرابكم يَبسَ الثّرَى
ما لى أرى أطوَادَكُمْ تتهدَّمُ

فجعل يبس الثرى ، كنايةً عن تنكُّر ذاتِ البَيْن ، يقال يَبسَ الثّرَى بيْنى وبيْنَ فلان ، اذا تنكّرَ الودّ الذى بينك وبينَه ، وهكذا تهدُّمُ الأطواد فانه كنايةٌ ، إمّا عن موت

الرؤساء ، وإمّا عن خفّة الحلوم وطيْش العقول ، ومن ذلك قول أبى نُوَاس يكْنى به عن امرأة

تُحَاوِلُ أَنْ يقوم أبُو زِيَادٍ ودُون قيامِهِ شَيْبُ الغُرَابِ
أَتَتْ بِجِرَابِها تَـكْتَالُ فيهِ * فعادَتْ وهى فَارِغَةَ الجِرَابِ

فقوله (أتت بجرابها تكتال فيه) من الكناية اللطيفة ، ومن هذا قول زياد الأعجم

إِنّ السّماحةَ والمُروءةَ والنَّدَى
فى قُبَّةٍ نُصِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

فأراد أن يقول : إِن السماحة والمروءة والندى مجموعة فيه ، أو مقصورة عليه ، أو مختصة به ، لكنه عدَل الى ما هو أرَقُّ من ذلك ، وأدخلُ فى الإِعجاب والمدح ، فجعلها فى (قُبّة) وكَنَى به عن كونه فيها وأنه متمكنٌ فى الندى ، منسدل عليه كالقبّة المضروبة على كلّ ما تحويه ، ومن ذلك ما قاله بعض الأذكياء فى الكناية

وما يكُ فىَّ من عيبٍ فإِنى
جبانُ الكلْبِ مهْزُولُ الفصيلِ

فَكَنَى عن كرَم نفسه ، وكثرةِ قِرَاهُ للضيفان ،

بجُبْن الكلب ، وهُزال الفصيل ، ولو صرّح لقال : إنّ جنابي مأهولٌ ، وكلبي مؤدّبٌ ، لا يُنكرُ الضيفَ ، ولا يَهرُّ في وجُوههم ، وإني أنحرُ النوقَ ، فأدعُ فِصالَها هزلَى ، ومن ذلك ما قاله بعض الشعراء

يكادُ إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقبلاً
يُكلّمهُ من حُبِّه وهوَ أعجَمُ

وهكذا ورد قولُ أبي نواس

فما جازَهُ جودٌ ولا حلَّ دُونه
ولكنْ يصيرُ الجُود حيثُ يَصيرُ

فتوصّل الى إثبات الصفة للممدوح ، بإثباتها في مكانه ، والى لزومها له ، بلزومه الموضع الذي يَحُلّه ، ومن هذا قول حسان بن ثابت

بنى المجدُ بيتاً فاستقرّتْ عمادُهُ
علينا فأعيَا الناسَ أَن يتحوّلاَ

وقول البحتري

ظَللنا نعودُ المجدَ من وعُكك الذي
وجدتَ وقُلْنا اعتلَّ عُضوٌ من المجد

فكنى باعتلال عضو منه، عن اعتلال عضو من المجد،

ومن هذا ما قاله البحترى أيضاً

أو ما رأيت المجد ألقى رحله
في آل طلحة ثمَّ لم يتحوّل

ومن هذا قول أبي تمام

أبين فما يَزُرْنَ سوى كريم
وحسبكَ أنْ يَزُرْنَ أبا سعيدِ

وقول الآخر

متى تخلو تميمٌ من كريم
ومسلمةُ بنُ عمْرٍ ومن تميم

ومن الكناية قول بعضهم: يصف امرأة بالعفةِ

يَبيتُ بمَنْجاةٍ من اللَّوْمِ بيتها
اذا ما بُيُوتٌ للملامَةِ حُلَّت

ومن غريب الكناية وبديعها ما قيل في أبيات الحماسة

أبَتِ الرَّوادفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِها
مَسَّ البُطُونِ وأنْ تَمَسَّ ظُهُورَا
واذا الرِّياحُ مع العشيِّ تناوَحَتْ
نبّهْنَ حاسِدَةً وهِجْنَ غيُورَا

فكنى عن كِبَرِ الأعجاز ، ونُهودِ الثُّدىّ ، بارتفاع القميص عن أن يمسّ بطنا أو ظهرا ، وهذا من عجيب الكناية وغريبها

ومن هذا ما قاله بعض الشعراء

بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إمّا لنوْفلٍ
أَبُوهَا وإِمّا عَبْد شمسٍ وهاشِمِ

ومن هذا النوع ما قاله بعض المغاربة

رَشاً يرْنُو بنَرْجِسَةٍ ويَعْطُو
بسَوْسَانٍ ويبسِمُ عن أقاحِ
يشيرُ إِلىّ قُرْطَاهُ وتُصغى
خلاخلهُ إِلى نَغَمِ الوشَاحِ

ومن غريب الكناية قول بعضهم فى أيام الأسبوع

سبعٌ رواحلُ ما يُنخْنَ من الوَنَى
شُمٌ تُساقُ بسبعةٍ زُهُرِ
متواصلاتٌ لا الدُّءوبُ يُمِلُّهَا
باقٍ تعاقبُها على الدَّهرِ

ومن لطيفها قول بعضهم فى حجرَ المِحَكّ

ومُدَّرِعٍ مِنْ صبغة الليل بُرْدَه
يُفوّقُ طوراً بالنّظار ويطلَس
إذا سَأَلوه عن عَوِيصَيْن أَشْكَلَا
أجاب بما أعْيَى الورى وهو أخرس

ولْنقتصر على هذا القدر من التنبيه على معانى الكناية ، وقد نجَزَ غرضُنا من الفصل الثالث الذى جعلناه بيانًا للأمثلة وحصرها ، فأمَّا ما كان من التلويح ، والرَّمْزِ ، والإشارة ، فكلُّها مندرجة تحت ما ذكرناه من حقيقة التعريض لاتّفاقها فى الدلالة على مقصود واحد فلا جَرَمَ أغْنَى ذلك عن إفرادها بالذكر ، وبالله التوفيق

(الفصل الرابع)

(فى بيان اقسام الكناية وذكر طرف من احكامها الخاصة)

اعلم أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى وغيره من أفاضل علماء البيان مُطْبِقُون على أن الكنايةَ أبلغُ مِن الإفصاح بذلك المعنى المكنّى به عنه ، وأعظمُ مبالغةً فى ثبوته ، والحجة على ما قلناه ، هو أنك إذا كَنَيْتَ عن كثرة القِرَى بقولك فلانٌ كثيرُ رَمادِ القدْر ، فإنك تكون مثبتًا لكثرة

القرى بإثبات شاهدها وأقمت برهاناً على صحتها وثبوتها، وعلماً على صحّة وجودها ، وذلك لا محالة يكون أبلغ من إثباتها بنفسها فتكون بمنزلة دعوى مجرّدة عن البرهان ، فأين حالُ دعوى مقرَّرة بالدليل ، عن حال دعوى لا يؤيّدها برهان ولا تعليل ، فاذا عرفت هذا فلنرجع الى بيان الأقسام والأحكام ، فهذان بحثان ، نفصلّها بمعونة الله تعالى

البحث الأول

(في بيان أقسامها)

وتنقسم باعتبارات كثيرة ولكنا نشير الى ما يخص ما نحن فيه وهي ثلاثة

(القسم الأول)

باعتبار ذاتها الى مفردة ، ومركبة ، فأما المفردة ، فهي ما كانت الكناية حاصلةً في اللفظة الواحدة ، وهذا كقوله تعالى « إِنَّ هَذَا أَخِي لهُ تِسعٌ وتسعُونَ نعجةً ولِيَ نَعْجَةٌ واحدةٌ » فالمرادُ بالنعجة في كلا الموضعين ، المرأةُ ، وإنما كنى بالنعجة عن المرأة لما بينهما من الملائمة في التذلل والضعف والرحمة وكثرة التآلف ، وكقوله تعالى « أَوْ لامستمُ النساء »

فانه كناية عن الجماع وحُكى عن الفرّاء أنه قال : انّ الجبال فى قوله تعالى « وانْ كان مكرُهمْ لِتزُولَ منه الجبالُ » المرادُ منه أمرُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجعل الجبالَ كناية عنه ، وهذا إنما يُحمَلُ على هذا المعنى اذا كانت (إِنْ) نافية ، فيكون المعنى وما كان مكرهم ليزول به أمْرُ النبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحجج الواضحة ، فأما اذا كانت (إِنْ) على بابها فى التوكيد للجملة ، فالجبالُ باقيةٌ على حقيقتها ، ويكون المعنى فيه وإِن كان مكرهم من عظمةِ أمره وفخامة شأنه فى الإِنكار والتكذيب لَتزول منه الجبال الرواسى على رسوخها ، وقوّة أمرها فى الثبوت والاستقرار ، فعلى هذين التأويلين وردت القراءتان فى نصب اللام ، ورفعها ، فالنصبُ يؤيد التأويلَ الأول ، فتكون اللام مؤكدة للجحد ، والرفعُ يؤيدُ التأويلَ الثانى ، وتكون اللامُ فيها هى الفارقة بين المؤكدة ، والنافية ، وتكون القراءة بالرفع فى قوله (لَتزُولُ) دالةً على التخييل ، كأنها لعِظَم دخولها فى الإِنكار وإِغْراقها فيه ، بمنزلة قَلْعِ الجبال ، وإِزاحة الصخور ، ونظيرهُ قوله تعالى « تَكَادُ السمواتُ يَتَفَطَّرْنَ منهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا أنْ دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَدًا » وهذا واردٌ على

جهة الكثرة ، ومنه قول أمير المؤمنين كرّم الله وجهه لولده محمد بن الحنفيّة لما عقدَ له الرّايَةَ في معسكرٍ (أعزّ اللهُ حُجّتَكَ وأيّدَ في الارض قدمَك ، تزولُ الجبالُ الرّواسي ولا تزولُ ، وأما المركبة فأكثرُ ورود الكناية عليها ، وهذا كقولك : الكرمُ في بُرْدَيْهِ ، والمَجْدُ بين ثوبَيْهِ ، والعفافُ في عِطفَيْهِ ، وهذا كلُّه في المدح ، فأمّا الكنايةُ في الذّمّ فكقولهم (إنّكَ لعَرِيضُ الوسادِ) كما ورد في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه لمّا نزل قولُه تعالى (وكُلُوا واشْرَبُوا حتّى يتبيّنَ لكُمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسودِ) جعلَ عدِيُّ بن حاتِم ، خيطَيْن في يده ، أحدُهما أسودُ والآخرُ أبيضُ ، علامةً للفجر ، فحكَى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهُ بما فعل ، فقال لهُ الرسولُ : يا عدِيُّ . إنك لعريض الوساد ، وهو كناية عن بلَهِ الانسان ، وقلّةِ فطانته ، ونقصان كياستِهِ ، وقولهم (فلان عريضُ القفا) يجعلونه كناية عن فهاهته وقلة ذكائه ، ومنه قولُ أمير المؤمنين لبعض الناس (وإنه لمزهوٌّ في عطفَيْه ، مُختالٌ في بُرْدَيْهِ ، تفّالٌ في شراكَيْهِ) يشير بذلك الى حُمْقِهِ وخُيَلائه ، فجعل ذلك كنايةً عنه ، نعمْ ورُودُ الكناية إنما هو على جهة التشبيه

عند التأمّل والنظر، فإذا وردَتْ على طريقة التركيب كانت أشدَّ مُلاءَمةً، وأعظمَ بلاغةً، وإذا وردت على صورة الافراد لم يكن لها تلك المزيّةُ التى حصلَتْ للمركبة، ومثاله أنك اذا قلت فى الكناية المركبة، فلانٌ نقيُّ الثوب، وأردتَ إيرادَه على صورة المشابهة، فإنك تقول هو فى نزاهة العرْضِ من العيوب كنزاهة الثوب من الأدناس، فإذا حصل على هذا التأليف اتضحت المشابهة ووُجدت المناسبة وظهر أمرُ الكناية، وإذا قلتَ فى الكناية المفردة، اللمس، فى الجماع لم تكن فى تلك الدرجة من المناسبة وقوّة المشابهة كما ترى

﴿ التقسيم الثانى ﴾

باعتبار حالها الى قريبة وبعيدة، ونعنى بالقريبة ما يكون الانتقالُ الى المطلوب بأقرب اللوازم، ونُريد بالبعيدة ما يكون الانتقالُ الى مطلوبها من لازم أبعدَ منه، ومثال القريبة قوله (بعيدةُ مَهْوى القُرْط) فإنه كنايةٌ عن طُول عُنقها، وهذا حاصل على القرب من غير اعتبار واسطة ونحو قوله (أبتِ الرّوادف والثدى لقمصها) فانه كناية عن كبر الاعجاز، ونهود الثُّدىّ، هذا كله معدودٌ فى واضح الكناية وأمّا

الخفيُّ من القريب منها فهو كقولك : فلان عريض القفا ، فإنه كناية عن الأبْلَه ، من الناس ، وقولهم أيضاً فلان عريض الوساد ، فانه كناية عن هذه الكناية ، وكقول بعضهم يهجو من به داء الاسد وهو البَخَر

أخو لحم أَعَارَكَ منْهُ ثَوْبًا
هنيئاً بالقميصِ المستجَدِّ

وقال بعضهم فى رجل يهجوه

أَرَادَ أَبُوكَ أُمَّكَ يومَ زُفَّتْ
فلَمْ يُوجَدْ لأُمّك بنتُ سَعْدِ

فقوله بنت سعد ، جعله كناية عن العُذْرَةِ ، فهذا كله يحصل على القرب فى الكناية ، ومثال البعيدة قولهم : فلان كثير الرماد ، فهذا تكثر فيه الوسائط ، لأنك تنتقل من كثرة الرّماد الى كثرة الجمْر ، ثم الى كثرة الاحراق تحت القدر ، ثم الى كثرة الطبائخ ، ثم الى كثرة الآكلين ، ثم الى كثرة الأضياف ، ثم الى كونه مِضْيافا ، وهذا كقولك فلان جبان الكلب ، مهزول الفصيل ، فإن الوسائط تكثر فيهما ، فلهذا كان ما هذا حالُه معدوداً فى بعيد الكناية

﴿ التقسيم الثالث ﴾

باعتبار حكمها الى حسنة وقبيحة، فالحسنةُ ما قدّمنا ذكره من الأمثلة ، ومن هذا ما ورد فى السنة النبوية وهو أنّ امرأةً جاءتْ الى الرسول صلى الله عليه وسلم تسألُه عن غسلها من الحيض ، فأمرَها كيف تغتسل ، ثم قال لها : خُذِى فُرْصَةً من مِسْك فتطهَّرى بها ، فقالت كيف أتطهَّرُ بها ، فقال تَطهّرى بها ، فقالت كيف أتطهَّرُ بها ، فقال سبحان الله ، تَطهّرى بها ، قالت عائشة فاجتذَبْتُها من ورائها ، وقلتُ لها تَتَبَّعِى بها آثارَ الدّم ، فقولها : آثار الدم ، كناية عن الفرج ، ومنه قول أعرابيةٍ تصفُ زوجها ، له إبلٌ قليلاتُ المسارح ، كثيراتُ المبَارِك ، اذا سمعن صوت المِزْهَر، أيقَنَّ أنهن هوَالك، ومثال القبيحة ما تخلو عن الفائدة المرادة من الكناية، وهو عيبٌ عند أهل البلاغة ، ومن هذا قول الشريف الرضى يرثى امرأة (إن لم تكنْ نَصْلاً فغِمْدُ نصَالِ)

وهذا عندهم من رَكِيكِ الكناية ورديئها فانه لا يعطى الفائدة المقصودة من الكناية ، بل ربما سبق الوهم فى هذا الموضوع الى ما يقبح ذكره من التهمة بالريبة ، ومن هذا قول ابى الطيب المتنبي ايضا

إنّى على شغفى بما فى خُمْرها * لأَعفُّ عمّا فى سَراويلاتها

قال ابن الأثير: فهذه كناية عن النزاهة والعفة الا أن الفجور احسن منها وما ذاك الا لنزول قدرها وسوء تأليفها وقد أجاد الشريف الرضى فيما أساء فيه ابو الطيب فأورده على أحسن هيئة وجاء به فى أعجب قالَب قال

أَحِنُّ الى ما يضمَنُ الخُمْرُ والحُلَى
وأَصْدِفُ عمّا فى ضَمانِ المآزرِ

الى غير ذلك من الامثال

البحث الثانى

(فى بيان حكمها)

اعلم أن أُنْسَ النفوس وسكونَها متوقفٌ على إخراجها من غامضٍ الى واضحٍ ومن خفىّ الى جلىّ ، وإبانتها بصريح بعد مكنىّ وأن تردّها فى شىء تُعلمها اياه الى شىء آخر هى بشأنه أعلمُ وثقتها به أقوى ، وتحققها له أدخلُ ، ومن ثمّ كان التمثيل بالامور المشاهدة أوقع وللمادّة الشُّبَه أقطعُ ، واذا أردت أن ترى شاهداً على ما قلت ، فانظر الى قوله تعالى « كمثَل العنكبوت اتخذت بيتاً » فالله تعالى ضرب به مثالاً لضعف الأمر

وهونه فى كل شىء فأنت لو فكّرت فى ، نفسك وبالغت فى نظرك وحذسك فى وصف الضعف ، لكان غاية أمرك ونهاية تقديرك ، أن تقول كأضعف ما يكون وأهونه ، أو تقول هو كالهواء أو غير ذلك من التقدير والتصوير ، لكان دون ما ذكره الله تعالى فى المثال ، وهكذا لو قلت فلان يَكُدُّ نفسه فى قراءة الكتب ، ويتعب نفسه بجَمْعها ، ويتحمّلُ فى التعلم الإصَارَ والمتاعب كلها وهو لا يفهم شيئاً ويسكتُ ، فإنك تجد فرقاً بين أن تذكر هذا وبين أن تتلو الآية وتقول « كمثل الحمار يحمل أسفاراً » فإنك تجد مصداق ما قلتُه فيها وهكذا فإنك تفصل بين أن تقول : إنى أرى قوماً لهم مَنْظرٌ وليس لهم مَخْبَرٌ ، وبين أن تُتبعه بقول من قال

لا تُعجبنْك الثيابُ والصُّوَرُ * تسعةُ أعشارِ مَنْ تَرَى بَقَرُ
فى خَشَبِ السَّرْوِ منهمُ مَثَلٌ * له رُوَاءٌ ومالهُ ثَمَرُ

فإنك تجد فرقاً بين الامرين ، وهكذا حال غيره من الأمثلة والتشبيهات ، فاذا تمهدت هذه القاعدة فاعلم أن الكناية لها فى البلاغة موقعٌ عظيم فانها تفيد الالفاظ جمالا ، وتكسبُ المعانى دِيباجةً وكمالا وتحرّك النفوس الى عملها ، وتدعو القلوب الى فهمها ، فإن أوقعتها فى المدح كانت أرفع وأحسن ، وفى نفس

الممدوح أوقع وأمكن ، وإنْ صدّرتها للذمّ كانت آلَمَ وأوجع ، والى ذكر فضائح المذموم أسرع وأخضع ، وإن أدخلتها من أجل الحِجَاج كان البرهان بها أوضح وأنور ، والسلطان بها أقدرَ وأقهر ، والإفحام بها أشهر ، والتسلط أعظم وأبهر ، وإن وقعت فى الافتخار كان ضياؤه أسطع ، ومناره أعلى وأرفع ، وإن كانت موجهة للاعتذار فهى الى سلّ سَخَائم القلوب أعجل وأقرب ، وبوحر الصدور وفَلِّ غَرْب غضبها أذهب ، وإن صُدّرت للاتّعاظ كانت فى المبالغة فى النصيحة أنجع ، ولمرض القلوب أشفى وأنقع ، وإن أردت بها جانب الإعتاب والرضا ، كانت بطيب الصحبة ولين العرِيكة أظفَر ، وعلى الوفاء بلوازم الألفة أوفر ، فهى كما ترى واقعة من البلاغة فى أعلى المراتب ، وحائزة من الفصاحة أعظم المناقب وقد نجز غرضنا فيها بحمد الله تعالى

بحمده تعالى قد تم الجزء الاول من كتاب

الطراز فى علوم حقائق الاعجاز .

ويليه الجزء الثانى وأوله

القاعدة الرابعة

من قواعد

المجاز